جورج بوليتزر

مبادىء أولية في الفلسفة



ولد بوليتزر في نافيغارود (هنغاريا) عام ١٩٠٣، وغادرها عام ١٩٢١ على أثر استيلاء الرجعية على السلطة التي كانت تلاحق والده. درس في السوربون وأسس مع هنري لوفيفر وآخرين مجلات فنشر فيها دراسات في علم النفس والتحليل النفسي ونقداً للبرغسونية.

فبوليتزر هو ذلك الفيلسوف المتسق مع نفسه، عاش وقضى في سبيل مثله الأعلى، على حد تعبيره، رابطاً هكذا بين النظرية والممارسة في وحدة لا تنفصم.

والكتاب الذي بين أيدينا يمثل لحظة من نضال الفيلسوف الشهيد ضد النازية، وهو عبارة عن مجموعة الدروس التي ألقاها في الجامعة العمالية التي ساهم في تأسيسها عام ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ في باريس. فجورج بوليتزر يجمع في عمله هذا البساطة الى الدقة يعرف أن يكون واضحاً وعميقاً في آن. وفي ذلك تكمن عبقريته. وفي هذا تكمن أهمية الكتاب: إنه مدخل جيد الى الفلسفة مدخل يتسع لجميع القراء ويزودهم بدليل واضح لمتابعة الطريق في الوقت نفسه.



ISBN 9953-411-52-2



مبادىء أولية
في الفلسفة

جورج بوليتزر

مبادىء أولية في الفلسفة

نقلته إلى العربية وقدمت له
د. فهمية شرف الدين
دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة

ضبط مصطلحاته الفلسفية
موسى وهبة
دكتوراه الدولة في الفلسفة

دار الفارابي

Georges Politzer

Principes élémentaires de philosophie

Editions Sociales
1969

الكتاب: مبادئ أولية في الفلسفة

المؤلف: جورج بوليتزر

المترجمة: د. فهمية شرف الدين

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

الطبعة الأولى 1979

الطبعة الثانية 1980

الطبعة الثالثة 1981

الطبعة الرابعة 1985

الطبعة الخامسة 2001

ISBN: 9953-411-52-2

DAR AL FARABI

(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban
Tel: (01)301461 – Fax: (01)307775 – P.O.Box: 3181/11
Code Postale: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb

وقد أعدت ترجمته في الأساس لنيل دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة في كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية بإشراف الدكتور معن زيادة رئيس قسم الفلسفة في كلية الآداب الفرع الأول. ونالت تقديراً من درجة جيد جداً.

تقديم المترجمة

١ ـ موقع الكتاب

يقول هيغل في تقديمه « لفنومينولوجيا الروح » ان كل ما يقال عن الفلسفة في مقدمة ما من عرض موجز لمبادئها او توطئة للدخول اليها لا يتمتع بأية قيمة فلسفية . ويخلص الى ان الفلسفة لا تقدم الا بالفلسفة .

مما يعني ان تلك الكرة الممتلئة التي هي الفلسفة ليس لها باب يعبر منه فاما ان تكون ضمنها واما خارجها .

ولعل « تشخيص » هيغل يصح على معظم الكتب التبسيطية التي تشكل مدخلا او تزمع ان تشكل ذلك المدخل الى الفلسفة . فهي اما ان تبقيك في مجال الانشاء الادبي ـ مجموعة اخبار عن الفلسفة . . واما تبقى سراً مغلقاً على غير العارفين .

جورج بوليتزر يقطع العقدة الغوردية التي عقدها العراف هيغل : من بابه يمكن للجميع ان يدخلوا الى الفلسفة « ويغزوا » كنوزها : مع بوليتزر تصبح الفلسفة ملكية عامة :

فجورج بوليتزر يجمع البساطة الى الدقة ، يعرف ان يكون واضحاً وعميقاً في آن . وفي ذلك تكمن عبقريته . . وفي هذا تكمن اهمية الكتاب : انه مدخل جيد الى الفلسفة ، مدخل يتسع لجميع القراء ويزودهم بدليل واضح لمتابعة الطريق في الوقت نفسه .

واذا كان ذلك كافياً بحد ذاته لنقل هذا الكتاب الى العربية فان حاجة المكتبة

العربية الى هذا النوع من الكتب تزيد في اهمية النقل والحاحيته ، ولكنها في الوقت نفسه تضعنا امام المسؤولية الناجمة عنها : ينبغي ان يأتي النقل على مستوى الأصل ، والا ضاعت الغاية الاساسية للعمل ، اي ينبغي ان يأتي النقل واضحاً ودقيقاً في آن ، ميسراً للجميع دون تساهل في الاداء .

تلك هي الصعوبة التي حاولنا تذليلها خلال هذا العمل الذي تم باشراف جامعي ، ولم يكن يهدينا الطريق سوى جهود المترجين السابقين المتعددين الذين انتفعنا بنجاحاتهم واخطائهم ، وخصوصاً بأخطائهم .

لقد تعلمنا من أخطائهم : ان النص المترجم ينبغي ان يتيح للقارىء الفهم دونما الحاجة الى العودة للنص الأصلي او لدائرة المعارف .

ـ ان النص ينبغي ان ينقل كاملاً دون رقابة او تعليقات المعية ، هي ان نمت عن شيء فانما تنم عن عدم ثقة بالقارىء العربي الذي يفترض غالباً دون سن الرشد .

ان هذا الدرس الثمين قد علمناه بوليتزر بالذات ، بوليتزر المعلم والمناضل الذي يعرف ان يتوجه الى « الحس السليم » ذي الابعاد الكونية ويرتفع به من « بداهاته » الميتافيزيقية الى المنهج الديالكتيكي ، فاذا بـ « الحس السليم » قابلاً ليس فقط لتقبل الديالكتيك ، ذلك « الشيء » المزمع صعباً ، بل وابضاً قادر على التفلت من هيمنة الميتافيزيقا عبر تغليب عنصره السليم ، عبر تطويره .

٢ ـ المؤلف

ولد جورج بوليتزر في نافيفارود (هنغاريا) عام ١٩٠٣ . وغادرها الى باريس عام ١٩٢١ على اثر استيلاء الرجعية على السلطة التي كانت تلاحق والده . درس في السوربون ثم علم في ليسيه دومولون وانتقل بعد نيله لقب استاذ الى ليسيه شربورغ واخيراً الى ليسيه سان موز . اسس مع هنري لوفيفر واخرون مجلات نشر فيها دراسات في علم النفس والتحليل النفسي ونقداً للبرغسونية . كما اسس مركز التوثيق التابع للحزب الشيوعي الفرنسي واشرف عليه ، واصبح محرراً اقتصادياً في صحيفة الاومانيته الصحيفة المركزية للحزب الشيوعي .

بالاضافة الى ذلك ، كان احد مؤسسي « الجامعة العمالية » في باريس ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ وقد درس فيها طيلة فترة عملها وقبل اقفالها بامر من السلطات المتعاونة مع الهتلرية . وقد اضطلع بمهام مسؤولة في تنظيم المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي ابتداء من ٦ حزيران ١٩٤٠ وشارك في المقاومة بنشاط خاصة مع الاوساط الجامعية حيث اصدر بالتعاون مع رفاقه نشرة « الجامعة الحرة » كما كتب كراساً بعنوان « الثورة والثورة المضادة في القرن العشرين » بين فيه ان الديمقراطية لم تمت وان انتصارات هتلر غير قادرة على دفنها . غير ان السلطات الهتلرية اعتقلته في شباط ١٩٤٢ وما لبث ان اعدمته رمياً بالرصاص مع مجموعة من رفاقه .

والكتاب الذي بين ايدينا يمثل لحظة من نضال الفيلسوف الشهيد ضد النازية ، وهو عبارة عن مجموعة الدروس التي القاها في الجامعة العمالية عشية الحرب العالمية الثانية والتي يطبعها طابع النضال ضد الفاشية والنازية المتعاظمة في اوروبا .

فبوليتزر هو ذلك الفيلسوف المتسق مع نفسه ، عاش وقضى في سبيل « مثله الاعلى » على حد تعبيره ، رابطاً هكذا بين النظرية والممارسة في وحدة لا تنفصم . كان ذلك المادي على طول الخط بالقول والفعل . ولعل هذا ما يميز كتاباته المختلفة في علم النفس والفلسفة والسياسة .

لقد كان عمله في علم النفس ينطلق من موقف يعمل على رفض التجريد « السيكولوجي » والميتولوجي ، لصالح « علم نفس وفلسفة » ملموسين غير منفصلين عن العمل في قلب الوسط الاجتماعي .

ففي كتابه « اسس علم النفس » دافع بوليتزر عن الفرويدية ضد شارل بلوندال . اذ اعتبر « التحليل النفسي » الفرويدي ايجابياً كونه يميل الى دراسة الانسان الحي بكامله وليس الوظائف السيكولوجية بشكل منعزل . غير انه من العام ١٩٢٨ تنبه الى ما في التحليل النفسي من امور غير ثابتة واخذ عليه دوغمائيته والنقص في وحدة مفاهيمه وفي منهجه . ومع ذلك فقد راى فيه وضعاً هجومياً على علم النفس التقليدي ، واعتبر انه من الواضح ان يخضع لتغييرات مختلفة قبل ان ياخذ شكله النهائي ، واضاف قائلاً : « ان الفرويدية محكومة بالزوال اذا حافظت على شكلها الحالي » :

وبالرغم من الوعود التي انتظر تحقيقها من قبل الفرويدية عاد فاخضعها لنقد اكثر عمقاً من الذي وجهه الى علم النفس التجريدي ، اخذ عليها « ميتاسيكولوجيا الوعي » والتجريد والبعد عن الواقع ، وانفصل نهائياً عنها في كتابه « نقد اسس علم النفس ».

ان موقف بوليتزر في علم النفس يتمثل في الدعوة الى علم نفس حقيقي مرتبط بالتجربة الانسانية والواقع الملموس ، ومع انه لم يقدم لنا سوى مقدمات ، ومع ان محاولته لم تكن سوى توجيهات نحو علم نفس حقيقي ، فقد كانت تلك المقدمات عبارة عن اجوبة على تساؤلاته وجهاده الطويل في سبيل خلق علم نفس بعيد عن باطن برغسون الذي يذهب على حد قول بوليتزر « من الميتافيزيقا الى الميتافيزيقا ».

العلم في خدمة الانساني الواقعي « الحي » هو ذلك الموقف الذي املاه

بوليتزر ايضا في كتاباته الفلسفية . في « الفلسفة والاساطير » اراد بوليتزر ان يبعد الفلسفة عن الخرافات فقاد صراعا عنيداً ضد الوضعية وزعيمها اوغست كومت الذي كان يرى حكم البورجوازية ابدياً متجاهلاً قوى الانتاج وعلاقات الانتاج . كما قاد في الوقت ذاته الصراع ضد المثالية الفلسفية والدين ساعياً في سبيل نشر عقيدة تحررية مرتكزة على العلوم تستقي من مادية القرن الثامن عشر وتصل ايضاً الى ديكارت . حتى انه اعتبر ان الماركسية هي العقلانية المعاصرة .

لقد كان بولتزر من اولئك الفلاسفة المنتصرين بالرغم من ان مؤلفاته العلمية لم تكمل تفتحها ، ولم يستطع بوليتزر في حياته القصيرة ان يقدم لنا سوى بواكير فلسفية كانت من الاهمية ان غطت على النقص الحاصل من ضياع موسم الحصاد .

اهم مؤلفاته :

Révolution et contre révolution au XXe siècle

الثورة والثورة المضادة في القرن العشرين

Le bergsonisme une mystification philosophique

البرغسونية ، تحريف فلسفي

Ecrits 1 : la philosophie et les mythes

كتابات رقم ١ : الفلسفة والاساطير

Ecrits 2 : les fondements de la psychologie

كتابات رقم ٢ : اسس علم النفس

Principes élémentaires de philosophie

مبادىء اولية في الفلسفة

وهو الكتاب الذي ننقله هنا الى العربية ،
كما سبق ان نشر لبوليتزر باللغة العربية .

ـ « فلسفة الانوار » ترجمة جورج طرابيشي صدر عن دار الطليعة . وهو مقال عن فلاسفة القرن الثامن عشر ونضالهم ضد الايديولوجية الدينية

الاقطاعية .

- « اصول الفلسفة الماركسية » لجورج بوليتزر وغي بيس ترجمة شعبان بركات وصدر عن المكتبة العصرية في صيدا .

وهذا الاخير يقترب في تقسيمه وبعض صياغاته من كتاب الذي نقلناه . غير ان كتابنا هذا يمتاز بدقته ووضوحه وقرب مناله عن الكتاب « الاصول » الذي يبدو ان اصله الفرنسي مفقود .

٣ ـ بعض المصطلحات :

اتبعنا في اختيار المصطلحات نهجاً يجمع الدقة الى البساطة . وفي حال التعارض كانت الدقة هي التي تطغى على البساطة ، على ان نلجأ الى شرح ما هو معقد وغير مألوف كثيراً . ولعل ما نورده هنا يسهم في توضيح بعض الالفاظ الجديدة التي استعملنا :

ادراك بازاء	Perception	اي المدرك الحسي . ويتميز عن :
معرفة بازاء	Connaissance	وايضاً Savoir ولم نر ضرورياً ، نظراً للسياق الواضح اللجوء الى لفظة جديدة لـ Savoir
الاطروحة بازاء الاطروحة ـ النقيض بازاء التوليف بازاء	thèse antithèse Synthèse	وفضلنا على الاستعمال الشائع : قضية ، ضد القضية ـ التركيب . نظراً لغموض معنى القضية والتباسه ، ونظراً ايضاً لاشتراك المعنى في التركيب .
تحول وتحويل بازاء تغير وتغيير بازاء	transformation Changement	حسب تعدى المعنى او لزومه .
تصور بازاء مفهوم بازاء	Conception Concept	وهنا ايضاً لجأنا الى استعمال اصبح مألوفاً الى حد كبير وان خالف في ذلك بعض الكتاب الذي يعكسون المعنيين . وتفضيلنا قائم على ان الدقة المتضمنة في Concept لا يؤديها لفظ: تصور . في حين ان هذا الأخير يؤدي المتصود من Conception اي النظرة الشاملة : في تصور العالم ، أو مجموع الآراء في موقف معين : تصوره للحياة .
تناقض بازاء	Contradiction	وهو داخلي
تعارض بازاء	Opposition	وهو خارجي ، تقابلي
ضد ج اضداد بازاء	Contraire (S)	
تناحر بازاء	Antagonisme	خاص بالصراع الحاد الذى لا يحسم الا بالغلبة.

صراع وصارع بازاء	Lutte	وذلك من موقف وصفي حيادي .
نضال ايضاً بازاء	Lutte	وذلك من موقف منحاز ايجابياً .
جوهر بازاء ماهية بازاء اساسي بازاء	Substance Essence Essentiel	والفرق بين الجوهر والماهية هو الفرق بين المادي والذهني ، بين قوام الشيء والفكرة المكونة عنه . من هنا ترجمتنا لـEssentiel باساسي وليس بجوهري كما هو شائع خطأ في كتابات المحدثين ، وان كان اللفظ الفرنسي يترجم ايضاً بماهوي انما في سياق نظري محض .
خاص بازاء كلي بازاء متميز بازاء عام بازاء	Particulier Universel spécifique général	
ذهن بازاء روح ايضاً بازاء ذهنية ايضاً بازاء	Esprit Esprit Esprit	واللفظ الأول في سياق مادي اما اللفظ الأخر ففي سياق مثالي . اذا كان السياق يقتضي ذلك مثلاً : بذهنية منفتحة .
سستام بازاء	Système	ومشتقاته : مسستم Systématisé ومعناه : بناء فلسفي قائم على انتظام الافكار جميعاً وتوزع مختلف الاجزاء حول فكرة رئيسة تشكل اساس الكل . وفضلنا اللفظ بالصيغة المشار اليها على سائر الاستعمالات الشائعة مثل نسق ونظام ومنظومة نظراً لغموضها وعدم كفايتها للغرض .
نظرية بازاء مذهب بازاء عقيدة بازاء دوغماني بازاء	Théorie Doctrine Dogme Dogmatique	

تعليل بازاء	Raisonnement	– اما محاكمة فتعني ايضاً نفس الأمر انما بمعنى سلبي .
وتفكير احياناً بازاء	Raisonnement	وهو ايضاً تعليل انما من نوع خاص جداً يقوم على مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة .
قياس بازاء	Syllogisme	
خلف او قياس الخلف	Absurde	اما الخلف فهو ما اخل بقواعد القياس : او كان محالاً .
سيرورة بازاء عملية بازاء	Processus Procès	والفرق بين الاثنين هو ان عملية قد تكون ناجزة او واحدة في حين ان السيرورة عملية مفتوحة او مستمرة .
وجود بازاء	Etre	بالمعنى العام والمطلق
كائن بازاء	être	بالمعنى الجزئي والمحصورفيجمع على كائنات
وجود (متعين) بازاء	Existence	
فكرة بازاء	Idée	
مثل بازاء فكر بازاء	Idées Pensée	وخاصة بالمذهب الافلاطوني .
متسق بازاء	Conséquent	اى المتلىء والمكتمل مثلاً المادية المتسقة .
ممارسة بازاء	Pratique	ويقابل نظرية Théorie
تطبيق بازاء	Application	
ملموس بازاء	Concret	ويقابل المجرد Abstrait
تحقيق بازاء	Réalisation	اى تحقيق في الواقع .
منهج بازاء اسلوب بازاء نمط بازاء	Méthode Manière Mode	

وجه بازاء	Aspect	
شكل بازاء	Forme	
اثبات بازاء	Affirmation	
نفي بازاء	Négation	
نفي النفي بازاء	Négation de la négation	
ميتافيزيقا بازاء	Métaphysique	وذلك بدل الاستعمال الشائع « ما بعد الطبيعة ».
ديالكتيك بازاء	Dialectique	وذلك بدل الاستعمال الشائع « الجدل ». ولم نر حاجة لاختراع كلمة عربية او الاستعانة بكلمة موجودة تحتاج هي أيضاً الى شرح ليس فقط لتوضيحها بل وايضاً لمنع التباسها.
هوية بازاء	identité	وكتبنا احياناً متماثل بازاء نفس اللفظ عندما لم يكن بالامكان استخدام الهوهو دون تعقيدات لفظية نافلة .
هوهو ، هي هي بازاء	identique	

مقدمة

ان هذا الكتاب الموجز البسيط يعيد نقل الملاحظات التي دونها احد تلامذة جورج بوليتزر ، اثناء محاضراته في الجامعة العمالية ، في السنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ ، ومن الضروري ان نحدد اولا هدف معلمنا ومنهجه حتى نفهم ميزة الكتاب ومداه .

نحن نعلم ان مجموعة صغيرة من الاساتذة اسست في السنة ١٩٣٢ الجامعة العمالية لتدريس العلم الماركسي للشغيلة اليدويين ، ومنحهم منهجا في التفكير يتيح لهم فهم زماننا ، وتوجيه افعالهم جيدا، من الناحية التقنية كما في المجال السياسي والاجتماعي .

ومنذ البدء اخذ بوليتزر على عاتقه تعليم الفلسفة الماركسية والمادية الديالكتيكية في الجامعة العمالية : كانت مهمة ملحة بقدر ما كان التعليم الرسمي يتابع تجاهل هذه الفلسفة وتشويهها .

ان ايا من اولئك الذين اسعفهم الحظ ، بحضور محاضراته - وكان يتكلم امام العديد من المستمعين حيث تختلط جميع الاعمار والمهن ، ولكن حيث يشكل الاغلبية ، العمال الشباب - لن ينسى الانطباع العميق الذي احس به امام هذا الشاب الاشقر ، المديد القامة ، المفعم بالحماس ، الكثير العلم والوعي ، الودود المتيقظ لوضع مادة جافة وجامدة في متناول جمهور لا تجربة له البتة .

كانت هيبته تفرض في دروسه نظاما مستحبا ، يعرف كيف يكون صارما ويبقى عادلا على الدوام ، وكانت تتصاعد من شخصيته طاقة حياتية واشعاع جعل جميع تلاميذه يحبونه ويعجبون به .

وحتى يكون مفهوما من الجميع ، اسقط بوليتزر من قاموسه كل لغة فلسفية غير مفهومة ، واسقط كل الالفاظ التقنية التي لا يفهمها الا المدربون ، فلم يكن يريد ان يستخدم الا الكلمات البسيطة والمعروفة من الجميع ، وعندما كان يرغم

[illegible] خدام لفظة خاصة ، لم يكن يغيب عن باله شرحها مطولا بأمثلة [illegible] . واذا استخدم احد تلامذته كلمات « متبحرة » في المناقشات ، كان [illegible] ويسخر منه بهذه السخرية اللاذعة التي يعرفها جميع هؤلاء الذين عاشروه .

كان يريد ان يكون بسيطا وواضحا ، يستعين بالحس السليم دون ان يضحي ، مع ذلك ، بصحة الافكار والنظريات التي يعرضها وصوابها . كان يعرف كيف يجعل محاضراته حيوية للغاية ، بجعله المستمع يشارك في النقاش قبل الدرس وبعده . واليكم كيف كان يتصرف : في نهاية كل درس ، كان يطرح سؤالا او سؤالين لامتحان المعلومات ، وكان هدف هذه الاسئلة اختصار الدرس وتطبيقه على بعض المواضيع الخاصة . ولم يكن التلامذة ملزمين بمعالجة الموضوع ولكن العديد منهم كانوا يلزمون انفسهم ، ويقدمون فرضا كتابيا في بداية المحاضرة التالية . كان يسأل عن الذي انجز الفرض ، فيرفعون ايديهم ، ويختار بعضهم لقراءة النص ويكمله بشروح شفهية عند الحاجة . كان بوليتزر ينتقد او يشجع فيولد بين التلامذة نقاشا موجزا ، ثم يستنتج مستخلصا النقاش . كان ذلك يدوم نحوا من نصف ساعة ، فيتيح لاولئك الذين فاتتهم المحاضرة السابقة ان يملأوا الثغرات ويحققوا الربط مع ما تعلموه سابقا : وهذا كان يتيح للاستاذ ان يرى الى اي مدى كان مفهوما ، فيلح على النقاط الحساسة او الغامضة عند الحاجة .

وكان بعد ذلك يبدأ الدرس اليومي ، الذي كان يدوم نحوا من ساعة ، ثم يطرح التلامذة اسئلة عما قيل . هذه الاسئلة كانت في محلها بصورة عامة ، وكان بوليتزر يستفيد منها ليقدم تحديدات دقيقة ، فيراجع الاساسي في المحاضرة من زاوية مختلفة .

ان جورج بوليتزر ، الذي كان يتمتع بمعرفة عميقة لموضوعه ، وذكاء مرن مثير للاعجاب ، كان يهتم ، قبل كل شيء ، بردات فعل مستمعيه : ، فكان يقيس « الحرارة » العامة ، ويتفحص باستمرار درجة الاستيعاب لدى تلاميذه . وكان يتابع كذلك باهتمام كبير . لقد ساهم في تكوين الوف المناضلين الذين يحتل العديد منهم المراكز « المسؤولة » اليوم .

ونحن الذين فهمنا قيمة هذا التعليم ، وفكرنا في هؤلاء الذين لم يستطيعوا سماعه ، وخاصة برفاقنا في الريف ، كنّا نتمنى طبع دروسه . وكان يعدنا بالتفكير بذلك ، ولكنه في غمار عمله ، لم يجد ابداً الوقت لتحقيق هذا المشروع .

وهكذا سنحت لي الفرصة ان اطلب الى بوليتزر ان يصحح لي فروضي ، واعطيته ، بناء على طلبه ، دفاتر المحاضرات التي تخصني . فوجدها محققة جيدا ، فاقترحت عليه ان اؤلف ، وفقا للاحظاتي ، دروس الصف التمهيدي . فشجعني ووعدني بان يراها من جديد ويصححها . لكنه لم يجد ، لسوء الحظ ، وقتا لذلك . كانت مشاغله تثقل اكثر فاكثر ، فترك الصف الا على لصديقنا رينه موبلان[1] Maublanc الذي اخبرته بمشاريعي ، وطلبت منه ان يعيد النظر في الدروس الاولى التي كتبتها . فقبل الامر بحماس ، وشجعني لانهي هذا العمل الذي كنا سنقدمه لبوليتزر فيما بعد . لكن الحرب فاجأتنا ، ومات بوليتزر ميتة بطولية في الصراع ضد المحتل الهتلري .

وبالرغم من ان استاذنا لم يعد حيا ، لينقح عملا شجعه وايده ، رأينا انه من المفيد ان ننشره وفقا للاحظاتي التي دونتها عن دروسه .

ان جورج بوليتزر الذي كان يبدأ صفه في كل سنة في الجامعة العمالية بتثبيت الدلالة الحقيقية لكلمة المادية ، محتجا ضد التشويهات الافترائية التي يخضعها لها البعض ، يذكر بحزم ان الفيلسوف المادي يعوزه المثل الاعلى ، وانه مستعد للنضال في سبيل انتصار هذا المثل الاعلى . ولقد عرف منذ ذلك الوقت ان يثبت ذلك بتضحيته . وموته البطولي خير تمثيل على هذه الدروس التمهيدية التي يؤكد فيها وحدة الممارسة والنظرية في الماركسية . وليس من غير المفيد الوقوف عند هذه التضحية في سبيل مثل أعلى ، وعلى هذا التفاني وهذه القيمة الاخلاقية العالية ، في حقبة يجرؤون فيها من جديد على تقديم الماركسية « كمذهب يحول الانسان الى آلة او حيوان متفوق بالكاد على الغوريللا او الشمبانزي » (موعظة.

١ - Maublanc

الصوم في كنيسة سيدة باريس ، التي القاها في ١٨ شباط ١٩٤٥ ، قدس الأب بانيسي)

نحن لا نحتج ابداً بشكل كاف ضد شتيمة رفاقنا . فلنذكر الذين يجرؤ ون على هذه الشتيمة بجورج بوليتزر فقط وغبريال باري ، وجاك سولومون ، وجاك ديكور ، هؤلاء الذين كانوا ماركسيين وعلموا في الجامعة العمالية في باريس : كانون جميعاً رفاقا طيبين ، بسطاء ، كرماء ، واخويين ، ولا يترددون في التضحية بجزء كبير من وقتهم للمجيء الى حي مجهول ، لتعليم الفلسفة والاقتصاد السياسي والتاريخ والعلوم ، للعمال .

اغلقت الجامعة العمالية عام ١٩٣٩ . وعادت الى الظهور غداة التحرير باسم « الجامعة الجديدة » . وحل فريق جديد من الاساتذة المخلصين محل الذين اعدموا بالرصاص (على ايدي النازية) واعادوا سيرة العمل الذي توقف .

ان تكريم احد مؤسسي ومنشئي الجامعة العمالية هو ما يشجعنا في هذه المهمة ، واي تكريم آخر لا يظهر لنا اكثر صحة واكثر منفعة من نشر المبادىء الاولية للفلسفة لجورج بوليتزر .

موريس لوغوا
Maurice le goas

القسم الأول

المشكلات الفلسفية

المقدمة

١ ـ لماذا يجب أن ندرس الفلسفة ؟

نزمع ، عبر هذا المؤلف ، ان نعرض المبادىء الاولية للفلسفة المادية ونشرحها .

لماذا ؟ ـ لأن الماركسية ترتبط ارتباطا وثيقا بفلسفة ومنهج : هما فلسفة المادية الديالكتيكية ومنهجها . لقد اصبح لزاما علينا اذن ان ندرس هذه الفلسفة وهذا المنهج ، لفهم الماركسية فهما جيدا ، ولتفنيد حجج النظريات البورجوازية ، بالاضافة الى مباشرة النضال السياسي الفعال .

لقد قال لينين : « لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية »[1] ، هذا يعني اول ما يعني انه ينبغي ربط النظرية بالممارسة .

ما هي الممارسة ؟ هي التحقيق[2] . فالصناعة والزراعة مثلا تحقق (اي تنقل الى الواقع) بعض النظريات (نظريات فيزيائية او كيمائية او بيولوجية) .

١ ـ لينين : ما العمل : دار التقدم . ص ٣١
٢ ـ نستخدم التعبير الشائع «التحقيق» وكان الأفضل القول : الوقعنة اى النقل الى الواقع .

ما هي النظرية ؟ هي معرفة الاشياء التي نريد تحقيقها .

من الممكن ان نكون ممارسين فقط ولكن عندها ، نحقق ، بشكل روتيني . ومن الممكن ان نكون نظريين فقط ـ ولكن ما نتصوره ، عندها ، يكون غالباً غير قابل للتحقيق . من الواجب اذن ان ترتبط النظرية بالممارسة . كل المسألة تكمن في معرفة كيف يجب ان تكون النظرية وكيف ترتبط بالممارسة .

نعتقد ان منهجا للتحليل والتعليل ضروري للعامل المناضل لتحقيق عمل ثوري صحيح ، انه بحاجة الى منهج لا يكون عقيدة تقدم له حلولا جاهزة . بل منهج يأخذ في الاعتبار الوقائع والظروف المتغيرة ابداً ، منهج لا يفصل ابداً النظرية عن الممارسة ، ولا يفصل التفكير عن الحياة . والحال ، ان هذا المنهج متضمن في فلسفة المادية الديالكتيكية اساس الماركسية التي نزمع ان نشرحها .

٢ ـ هل دراسة الفلسفة شيء صعب ؟

من المعتقد عادة ان دراسة الفلسفة هي شيء كثير الصعوبة بالنسبة للعمال ، ويتطلب معارف خاصة ، وينبغي الاعتراف بان الطريقة التي صيغت بها الكتب البورجوازية انما اعتمدت لتثبت في روع العمال هذه الآراء ، وتدفعهم الى مجافاة الفلسفة .

ونحن لا ننكر ابدا الصعوبات التي تعترض كل دراسة بصورة عامة ، ودراسة الفلسفة بصورة خاصة ، ولكن هذه الصعوبات قابلة تماماً للتذليل ، اذ تنجم عن كونها تتحدث عن اشياء جديدة بالنسبة للكثير من القراء .

لذلك فاننا منذ البداية ، سنعمد بتحديدنا للاشياء الى دعوة القراء لاعادة النظر في بعض التعريفات المغلوطة في اللغة المتداولة .

٣ ـ ما الفلسفة ؟

كلمة فيلسوف تعني في الاستعمال الشائع ، اما ذاك الانسان الذي يغرق في الخيال او الذي يأخذ الامور بتفاؤل ، ذاك الذي « لا يحمل هما » . ، والحال ان العكس هو الصحيح ، فالفيلسوف هو ذاك الذي يريد ايجاد اجوبة دقيقة لبعض الاسئلة ، واذا كنا نعتبر ان الفلسفة تريد اعطاء تفسير لمشاكل الكون ،

(كيف وجد العالم ؟ والى اين المصير ؟) فذلك يعني ان الفيلسوف يهتم بكثير من الاشياء وانه عكس ما شاع ، « يحمل هماً كبيراً »

فلتعريف الفلسفة نقول اذن: ان الفلسفة تريد شرح الكون والطبيعة ، وانها دراسة المشكلات الاكثر عمومية ، لان المشكلات الاقل عمومية تدرسها العلوم . فالفلسفة اذن هي امتداد للعلوم بمعنى انها ترتكز عليها وتتعلق بها . ونسرع لنضيف ان الفلسفة الماركسية تقدم منهجا لحل جميع المشكلات ، وان هذا المنهج يتعلق بما يسمى : المادية .

٤ ـ ما الفلسفة المادية ؟

هنا ايضاً يوجد خلط في المعنى علينا فضحه بسرعة . يفهم ، بشكل مبتذل ، بكلمة مادي ، ذاك الذي لا يفكر الا بالتمتع بالملذات المادية . فعن طريق التلاعب بلفظ « المادية » ـ التي تحتوي لفظ مادة ـ يعطى للمادية معنى خاطىء تماماً .

وبدراستنا للمادية ـ بمعناها العلمي ـ ، سنعيد لها دلالتها الحقيقية ؛ فكون الانسان ماديا لا يمنعه ابدا ، كما سنرى ، من ان يكون لديه مثل اعلى ، وان يناضل من اجل انتصاره .

لقد رأينا ان الفلسفة تريد تفسير مشكلات العالم الاكثر عمومية . ولكن ، عبر تاريخ البشرية ، لم يكن التفسير هو نفسه .

فالأولون حاولوا شرح الطبيعة والعالم ، ولكنهم لم يفلحوا . فالعلوم هي التي تتيح بالفعل تفسير العالم والظاهرات التي تحيط بنا ، والحال ان الاكتشافات التي سمحت بتقدم العلوم هي حديثة الظهور .

ان جهل الناس الاولين كان اذن حاجزا في طريق ابحاثهم . ولذلك وبسبب هذا الجهل ، نشاهد عبر التاريخ ظهور الأديان التي تريد هي ايضاً تفسير العالم ، ولكن بواسطة قوى فوق ـ طبيعية . وذاك شرح لا علمي . والحال ان العلوم ستتقدم شيئا فشيئا عبر القرون ، وسيحاول الناس تفسير الكون بالوقائع المادية انطلاقا من التجارب العلمية ، ومن هنا ، من هذه الارادة التي تريد تفسير الاشياء بالعلوم ستولد الفلسفة المادية .

ومع اننا سندرس المادية في الصفحات القادمة ، الا انه يتعين علينا حفظ هذا المبدأ : « المادية ليست سوى التفسير العلمي للكون » .

وخلال درسنا لتاريخ هذه الفلسفة سنرى كم كان الصراع مريرا وشاقا ضد الجهل . غير انه علينا ان نلاحظ ان هذا الصراع لم ينته في ايامنا هذه بعد ، فالمادية والجهل لا يزالان يتواجدان جنبا الى جنب .

في خضم هذا الصراع تدخل ماركس وانجلز . وبفهمهما لاهمية الاكتشافات الكبيرة التي تمت في القرن التاسع عشر ، ساعدا الفلسفة المادية على احراز تقدم هائل في التفسير العلمي للكون . وهكذا ولدت المادية الديالكتيكية . ثم انهما كانا اول من وعى ان القوانين التي تسير العالم تسمح ايضا بشرح تطور المجتمعات ، فصاغا النظرية الشهيرة ، المادية التاريخية .

ونحن نزمع ان ندرس في هذا المؤلف اولا الفلسفة المادية ، ثم المادية الديالكتيكية ، واخيرا المادية التاريخية . ولكن قبل كل شيء نود ان نحدد العلاقات بين المادية والماركسية .

٥ ـ ما هي العلاقات بين المادية والماركسية ؟

نستطيع ان نوجز هذه العلاقات على الشكل التالي :

١ ـ ان الفلسفة المادية هي اساس الماركسية[٣]

٢ ـ ان الفلسفة المادية هذه التي تريد ايجاد تفسير علمي لمشكلات العالم ، تقدمت عبر التاريخ مع تقدم العلوم . وبالتالي تنطلق من العلوم وترتكز عليها وتتطور معها .

٣ ـ لقد وجدت فلسفات مادية ، تكرارا وباشكال مختلفة ، قبل ماركس وانجلز . ولكن بعد القفزة الكبيرة التي قفزتها العلوم في القرن التاسع عشر ، جدد ماركس وانجلز المادية القديمة انطلاقا من العلوم الحديثة ، واعطيا المادية الحديثة ، التي نسميها المادية الديالكتيكية والتي تشكل اساس الماركسية .

يتبين لنا من ذلك كله ، وبعكس ما يشاع ، ان للفلسفة المادية تاريخا . وان

٣ ـ راجع لينين : « المادية فلسفة الاصلاحية » في « كارل ماركس ومذهبه » .

هذا التاريخ مرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ العلوم . وان الماركسية ، المؤسسة على المادية ، لم تخرج من دماغ شخص واحد ، بل هي تتمة ومآل المادية القديمة التي كانت جد متقدمة عند ديدرو ، فالماركسية هي تفتح المادية التي طورها موسوعيو القرن الثامن عشر واغتنت بالاكتشافات الضخمة في القرن التاسع عشر . الماركسية هي نظرية حية ، وللدلالة على كيفية مواجهتها للمشكلات ، نأخذ مثلا يعرفه جميع الناس ، مشكلة الصراع الطبقي .

كيف يفكر الناس بالنسبة الى هذا الموضوع ؟ بعضهم يظن ان الدفاع عن الخبز يعفي الانسان من الصراع السياسي ، والبعض الآخر يعتقد ان هز القبضة في الشارع كاف فينكرون اهمية التنظيم . وبعضهم يدعي بأن الصراع السياسي وحده هو الذي يحل هذه المسألة .

اما بالنسبة للماركسي ، فالصراع الطبقي يتضمن :

أ ـ صراعا اقتصاديا .
ب ـ صراعا سياسيا .
ج ـ وصراعا ايديولوجيا .

والمسألة يجب ان تطرح على هذه الارضيات الثلاث في آن .

أ ـ نحن لا نستطيع ان نناضل من اجل الخبز ، بدون ان نناضل من اجل السلام ، بدون ان ندافع عن الحرية ، وعن كل الآراء التي تخدم النضال في سبيل هذه الاهداف .

ب ـ الامر نفسه بالنسبة للصراع السياسي ، الذي اصبح علما حقيقيا منذ ماركس : نحن ملزمون ، لخوض هذا النضال ، بان نأخذ في الاعتبار الواقع الاقتصادي ، والتيارات الايديولوجية معا .

ج ـ اما بالنسبة للصراع الايديولوجي ، الذي يتمثل بالدعاية ، فعلينا ، حتى يصبح النضال مجديا ، ان نأخذ في الاعتبار الحالة السياسية والاقتصادية .

وهكذا نرى ان هذه المشكلات مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا ، واننا لا نستطيع ان نأخذ قرارا ، امام اي وجه من وجوه هذه المشكلة الكبرى التي هي الصراع الطبقي ـ في الاضراب مثلا ـ بدون ان نأخذ في الاعتبار كل معطى على حدة ،

وبجمل معطيات المشكلة نفسها .

فالذي يملك القدرة على النضال في جميع المجالات ، هو الذي يوجه الحركة اذن في الاتجاه الافضل .

هكذا يفهم الماركسي مشكلة الصراع الطبقي . ولكن في الصراع الايديولوجي الذي علينا ان نخوضه يوميا ، نجد انفسنا امام مشكلات يصعب حلها : كالخلود النفسي مثلا ، ووجود الله ، واصل العالم ، الخ . . المادية الديالكتيكية هي التي تمنحنا طريقة في التفكير ، تتيح لنا حل هذه المشكلات وايضاً فضح جميع حملات تشويه الماركسية ، التي تدعي الهام الماركسية وتجديدها .

٦ ـ حملات البورجوازية ضد الماركسية :

ان محاولات التشويه هذه ترتكز على اسس متنوعة جدا : فتارة ينصبون في وجه الماركسية الكتاب الاشتراكيين لمرحلة ما قبل الماركسية ، وهكذا نراهم يستخدمون الطوباويين ضد ماركس . والبعض الآخر يجند برودون ، وبعضهم ايضا ينهل من التحريفيين في فترة ما قبل ١٩١٤ (بالرغم من ان لينين قد دحضها علنا) ولكن ما يجب التشديد عليه خاصة هو هذا الصمت الذي تقيمه البورجوازية حول الماركسية . لقد فعلت كل شيء من اجل الا تعرف الفلسفة المادية بشكلها الماركسي وبجمل التعليم الفلسفي في فرنسا هو مذهل بشكل خاص في هذا المجال .

ففي المؤسسات الثانوية تدرس الفلسفة . ولكن الطالب ينهي تعليمه دون ان يعلم ان ثمة فلسفة مادية اوجدها ماركس وانجلز . وحتى عندما يتكلمون على المادية في الكتب الفلسفية (لانه لا بد من الكلام عليها) فانهم يفصلون دائماً بين المادية والماركسية . تقدم الماركسية بشكل عام كأنها مذهب سياسي فقط ، وعندما يتحدثون عن المادية التاريخية لا يذكرون في هذا المجال الفلسفة المادية ، واخيرا يتجاهلون كل شيء عن المادية الديالكتيكية .

ولا يقتصر هذا الوضع على المدارس والثانويات فحسب . بل يتعداه الى الجامعات . واخص حدث يمكن ان نتكلم عليه ، هو ان نرى « اختصاصيا » في الفلسفة في فرنسا يحمل ارفع الشهادات التي تمنحها الجامعات الفرنسية دون

ان يعلم ان للماركسية فلسفة هي المادية ، وان المادية التقليدية لها شكل حديث هو الماركسية ، او المادية الديالكتيكية .

نحن نريد ان نبرهن ان الماركسية تحتوي تصوراً عاما ليس فقط للمجتمع وحده بل ايضا للكون نفسه . فلا فائدة اذن من التأسف والقول ان خطأ الماركسية الاكبر هو كونها بدون فلسفة . كما يزعم البعض ، ولا جدوى ايضا من البحث عن هذه الفلسفة التي تفتقر الماركسية اليها ، كما يحاول بعض منظري الحركة العمالية . لان للماركسية فلسفة هي المادية الديالكتيكية .

ولم يبق على كل حال الا ان نقول انه بالرغم من حملة الصمت هذه ، وبالرغم من هذا التزوير ، وهذه الاحتياطات التي تتخذها الطبقات الحاكمة فالماركسية وفلسفتها اخذت تصبح معروفة اكثر فأكثر .

الفصل الأول

المشكلة الاساسية في الفلسفة

١ ـ كيف يجب ان نبدأ دراسة الفلسفة ؟
٢ ـ طريقتان لشرح العالم .
٣ ـ المادة والروح .
٤ ـ ما الروح ؟ وما المادة ؟
٥ ـ المسألة او المشكلة الاساسية في الفلسفة .
٦ ـ مثالية ام مادية .

١ ـ كيف يجب ان نبدأ دراسة الفلسفة ؟

ذكرنا في مقدمتنا مرارا ، ان المادية الديالكتيكية هي اساس الفلسفة الماركسية .

ان هدفنا هو دراسة هذه الفلسفة ، لكن للوصول الى هذا الهدف يجب ان نتقدم على مراحل . فعندما نتكلم على المادية الديالكتيكية نجد امامنا كلمتين : مادية وديالكتيكية . وهذا يعني ان المادية هي ديالكتيكية . نحن نعلم ان المادية قد وجدت قبل ماركس وانجلز، ولكنّها، وبفضل اكتشافات القرن التاسع عشر، كانا هما اللذان حولا هذه المادية ، وخلقا المادية « الديالكتيكية».

وسندرس لاحقا معنى كلمة « ديالكتيك » التي تعني الشكل الحديث للمادية .

وبما ان كثيرا من الفلاسفة الماديين (امثال ديدرو في القرن الثامن عشر) قد

سبقوا انجلز وماركس ، وبما ان نقاطا كثيرة تجمع بين جميع الماديين ، لذلك كان علينا دراسة تاريخ المادية ، قبل مباشرة المادية الديالكتيكية . ومعرفة التصورات التي تناهض المادية .

٢ ـ طريقتان لشرح العالم

ذكرنا سابقا ان الفلسفة هي « دراسة المشكلات الاكثر عمومية » وان هدفها هو شرح العالم والطبيعة والانسان

ولو تصفحنا كتاب فلسفة بورجوازية ، لراعنا تنوع الفلسفات الموجودة فيه التي تدلّ عليها بكلمات مختلفة يقل فيها التعقيد او يكثر ، وتنتهي جميعها بلاحقة « اية Isme » ، كالفلسفة النقدية ، والتطورية ، والعقلانية الخ . . وهذه الكثرة تخلق نوعا من الغموض لم تفعل البورجوازية شيئا من اجل توضيحه بل على العكس . لكن يمكن فرز كل هذه السستامات وتمييز تيارين مهمين ، وتصورين متعارضين بوضوح كلي :
أ ـ التصور العلمي .
ب ـ التصور اللاعلمي للعالم .

٣ ـ المادة والروح :

عندما بدأ الفلاسفة تفسير العالم والطبيعة والانسان وكل ما يحيط بنا كان عليهم ان يقيموا تمايزات . نحن ايضا نستطيع ان نتحقق من هذا التمايز في الاشياء ، فمنها المادي الذي نستطيع ان نراه وان نلمسه . ومنها وقائع لا نستطيع ان نراها او نلمسها ، او نقيسها ، كافكارنا مثلا .

نصنف اذن الاشياء هكذا : من جهة ، الاشياء المادية ، من جهة اخرى ، الاشياء غير المادية ، والتي هي من عالم الروح والفكر والافكار .

وهكذا وجد الفلاسفة انفسهم ازاء المادة والروح .

٤ ـ ما المادة وما الروح ؟

رأينا بصورة عامة كيف يتم تصنيف الاشياء بين مادية وروحية .

ولكن علينا ان نوضح ان هذا التمايز يتخذ اشكالا مختلفة ويعبر عنه بكلمات مختلفة ايضا .

وهكذا بدلا من التكلم على الروح يمكن التكلم أيضاً على الفكر، والافكار، والوعي، والنفس ، كما انه عندما نتكلم على الطبيعة والعالم والارض والوجود، فان الكلام يدور على المادة .

وهكذا ايضا عندما تكلم إنجلس في كتابه « لودفيك فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » عن الوجود والفكر كان يعني بالوجود المادة وبالفكر الروح .

ولتعريف الفكر او الروح والوجود او المادة نقول : « الفكر هو الفكرة التي نكونها عن الاشياء ، بعض هذه الافكار تأتينا من الاحساسات عادة وتتعلق بمواضيع مادية ، وبعضها الاخر كفكرة الله مثلا ، والفلسفة واللامتناهي والفكر نفسه لا تتعلق بمواضيع مادية . والاساسي هنا انه لدينا آراء وافكار ومشاعر لاننا نرى ونحس .

فالمادة او الوجود هو ما تعرضه وتظهره لنا احساساتنا وادراكاتنا . انه بصورة عامة كل ما يحيط بنا وهذا ما ندعوه « العالم الخارجي » ولنأخذ مثلا على ذلك : ورقتي بيضاء . معرفتي انها بيضاء هي فكرة ، وحواسي هي التي اعطتني هذه الفكرة ، ولكن المادة هي الورقة بالذات .

لذلك عندما يتكلم الفلاسفة عن العلاقات بين الوجود والفكر ، او بين المادة والروح ، او بين الوعي والدماغ الخ . . فانما يتناولون السؤال نفسه يعني : ايهما اهم المادة ام الروح ، الوجود ام الفكر ؟ ايهما متقدم على الآخر ؟ هذا هو السؤال الاساسي في الفلسفة .

٥ ـ المسألة او المشكلة الاساسية في الفلسفة

كل منا يتساءل عن مصيره بعد الموت ، من اين اتى العالم ؟ كيف تكونت الارض ؟ ومن الصعب علينا القبول بالوجود الازلي . فلدينا ميل للتفكير بانه في لحظة من اللحظات لم يكن هناك شيء ، ولذلك كان من السهل تصديق تعاليم الدين : « كانت الروح ترف فوق الظلمات . . عندما جاءت المادة »

ونتساءل ايضا : اين هي افكارنا ؟ فتطرح نفسها مشكلة العلاقات القائمة بين الروح والمادة ، بين الدماغ والفكر . طبعا هناك عدة طرق لطرح السؤال . مثلا ما هي العلاقة بين الارادة والقدرة ؟ والارادة هنا هي الروح ، الفكر ، والقدرة هي ما هو ممكن ، هي الوجود ، المادة . ونصادف ايضا مسألة العلاقة بين « الوعي الاجتماعي » و« الوجود الاجتماعي » .

فالسؤال الاساسي في الفلسفة يطرح اذ ن باشكال مختلفة ، ونرى كم هو مهم ان نعرف دائماً كيف يطرح هذا السؤال ، عن علاقات المادة والروح . ان الاجابة عنه تنحصر في جوابين اثنين :

١ ـ جواب علمي .
٢ ـ جواب غير علمي .

٦ ـ مثالية أم مادية؟

وهكذا عمد الفلاسفة الى تحديد موقفهم من هذا السؤال المهم .

ان جهل الاولين وعدم معرفتهم بالعالم وبانفسهم ، واعتمادهم على الوسائل التقنية البسيطة للتحكم بهذا العالم ، دفعهم الى القاء مسؤولية كل ما يدهشهم على كائنات فوق طبيعية . فمن خلال مخيلتهم التي تثيرها الاحلام أحيانا فيتعايشون وابناء جنسهم توصلوا الى التصور التالي : لكل منا وجود مزدوج ، وفكرة « المزدوج » هذه بلبلتهم وحملتهم على الاعتقاد بان افكارهم واحاسيسهم حصلت . . ليس بفعل « جسدهم ولكنها بفعل مصدر خاص ـ النفس التي تقطن هذا الجسد وتفارقه عند الموت » بعد ذلك نشأت فكرة خلود النفس ، وحياة ممكنة للروح خارج المادة .

كذلك فان ضعفهم وقلقهم امام قوى الطبيعة ، امام جميع هذه الظاهرات التي لم يفهموها ، والتي لم تساعدهم حالة التكنيك على قهرها ايضا : (كالتوالد والعواصف ، والفيضانات الخ . .) كل ذلك حملهم على افتراض وجود كائنات قادرة على كل شيء تقبع خلف هذه القوى ، « ارواح » او « الهة »

١ ـ انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . دار التقدم ص ١٩

خيرة او شريرة ، انما تتصرف على هواها في جميع الاحوال .

كذلك آمنوا بآلهة ، اوكائنات اكثر قدرة من الانسان ، ولكنهم تصوروها على صورة البشر او الحيوانات ، وكأجسام مادية . ولم تعتبر النفوس او الالهة (ثم الاله الواحد الذي حل مكان الالهة) كارواح خالصة الا فيا بعد .

وهكذا نصل للفكرة القائلة : ان هناك في الواقع ارواحا تعيش حياة خاصة بها ، مستقلة عن الاجسام تماما ، ولا حاجة بها لهذه الاجسام حتى توجد .

بعد ذلك طرح هذا السؤال بشكل اكثر دقة وبما يتناسب مع الدين ، على هذا الشكل :« هل الله هو الذي خلق العالم ام ان العالم وجد منذ الازل ؟ ووفقا للاجابة عن هذا السؤال ، انقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين »[٢] .

فالذين تبنوا التفسير غير العلمي قبلوا بفكرة خلق الله للعالم ، اي انهم اكدوا ان الروح هي التي خلقت المادة ، وهؤلاء كونوا معسكر المثالية .

اما اولئك الذين بحثوا عن تفسير علمي للعالم ، والذين يعتقدون ان الطبيعة او المادة هي العنصر الاساسي . هؤلاء كانوا ينتمون الى مختلف مدارس المادية .

ولم تكن المثالية او المادية تعني في الاصل غير هذا .

فالمثالية والمادية هما اجابتان متعارضتان ومتناقضتان بالنسبة للمشكلة الاساسية في الفلسفة .

المثالية هي التصور اللاعلمي . والمادية هي التصور العلمي للعالم .

وسنرى ادلة هذا الحكم فيما بعد . غير اننا نستطيع منذ الان ان نقول انه على الرغم من ملاحظتنا بالتجربة ، وجود اجسام مجردة من الفكر كالاحجار والمعادن والارض فاننا لا نستطيع العثور على ارواح بدون اجسام .

ولننهي هذا الفصل بنتيجة واضحة ، نرى انه للاجابة عن السؤال التالي : كيف يحدث ان الانسان يفكر ؟ لا يمكن ان يكون هناك سوى اجابتين مختلفتين ومتعارضتين كليا :

٢ ـ انجلس : لودفيغ فيورباخ ـ ص ٢١ .

١ ـ الجواب الاول : الانسان يفكر لأن له نفسا .

٢ ـ الجواب الثاني : الانسان يفكر لأن له دماغا .

وتبعا لتبنّينا احدى الاجابتين ، نكون ملزمين بحلول مختلفة للمشكلات التي تنتج عن هذا السؤال .

وتبعا لاجابتنا نكون مثاليين او ماديين.

للقراءة :

فريدريك انجلز : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية : دار التقدم : الفصل الثاني « مثالية ومادية » ص ١٩ وما بعدها .

الفصل الثاني

المثالية

١ ـ المثالية الاخلاقية والمثالية الفلسفية .
٢ ـ لماذا يجب ان ندرس مثالية باركلي ؟
٣ ـ مثالية باركلي .
٤ ـ نتائج « التعليل المثالي ».
٥ ـ الحجج المثالية

أ ـ الروح تخلق المادة
ب ـ العلم لا يوجد خارج فكرنا
ج ـ ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء .

١ ـ المثالية الاخلاقية والمثالية الفلسفية :

لقد نوهّنا بالغموض الذي اوجدته اللغة المتداولة بالنسبة للمادية .

هذا الغموض نفسه نجده بصدد المثالية .

علينا بالفعل ان لا نخلط بين المثالية الاخلاقية والمثالية الفلسفية .

فالمثالية الاخلاقية تقوم على ان ينذر الانسان نفسه من اجل هدف ما ، من اجل مثال ما.وتاريخ الحركة العمالية يعلمنا ان عددا لا يحصى من الثوريين ، من الماركسيين، قد نذروا انفسهم حتى التضحية بحياتهم من اجل مثل اعلى اخلاقي ، مع كونهم خصوما لتلك المثالية الاخرى المسماة المثالية الفلسفية .

فالمثالية الفلسفية هي مذهب اساسه تفسير العالم بواسطة الروح .

إنها المذهب الذي يجيب على السؤال الاساسي للفلسفة قائلا : « ان الفكر هو العنصر الرئيسي الاول والاكثر اهمية » والمثالية اذ تؤكد على الاهمية الاولى للفكر ، تؤكد انه هو الذي يحدث الوجود او بعبارة اخرى ان : « الروح هي التي تحدث المادة ».

هذا هو الشكل الاول للمثالية ؛ ولقد وجدت هذه المثالية اقصى نموها في الاديان مؤكدة ان الله « الذي هو روح خالصة » هو خالق المادة .

فالدين الذي ادعى ، ومايزال يدعي ، انه خارج المناقشات الفلسفية ، هو في الحقيقة ، على عكس ما يدعي ، التمثل المباشر والمنطقي للفلسفة المثالية .

والحال ان العلم ، بتدخله عبر القرون ، سرعان ما اصبح ضروريا لتفسير المادة وتفسير العالم والاشياء بشيء آخر غير الله وحده . لان العلم بدأ منذ القرن السادس عشر بتفسير ظاهرات الطبيعة بدون ان ياخذ الله في الحسبان ، دونما الحاجة الى فرضية الخلق .

ولمناهضة هذه التفسيرات العلمية ، المادية والالحادية ، مناهضة اجدى ، كان من الواجب ان تدفع المثالية بعيدا ، وان يُنفى حتى وجود المادة نفسه .

وهذا ما كرس له نفسه في بداية القرن الثامن عشر، اسقف انكليزي، هو باركلي، حتى امكن تسميته ابا المثالية.

٢ ـ لماذا يجب علينا دراسة مثالية باركلي ؟

ان هدف مستامه الفلسفي سيكون اذن تحطيم المادية ، ومحاولة البرهنة ان الجوهر المادي غير موجود .فلقد كتب في مقدمة كتابه : « محاورات هيلاس وفيلونويس »: «اذا كانت هذه المبادىء مقبولة وينظر اليها على انها صحيحة ، فينتج عنها ان الالحاد والشك قد دمرا كليا في آن واحد ، وان المسائل الغامضة قد وضحت ، والصعاب غير القابلة للحل تقريبا قد حلت ، وان الناس المعجبين بالمفارقات قد عادوا الى الحس المشترك[١] ».

١ ـ Dialogues d'Hylas et de philonoüs » Collection « Les classiques pour tous ». Librairie Hatier. Paris p.13

وهكذا نرى ان الصحيح، بالنسبة لباركلي، هو ان المادة لا وجود لها وأنه من المفارقة ادعاء العكس.

وسنرى كيف يتصرف باركلي ليبين لنا ذلك . ولكنني اعتقد انه ليس من غير المفيد ان نلح على اولئك الذين يريدون دراسة الفلسفة ، بان يحملوا نظرية باركلي على محمل الجدّ .

أنا اعرف ان اطروحات باركلي تضحك البعض ، ولكن يجب ان لا ننسى اننا نعيش في القرن العشرين ، واننا نستفيد من كل دراسات الماضي ، وسنرى ايضا عندما سندرس المادية وتاريخها ، ان الفلاسفة الماديين القدماء يثيرون الضحك في بعض الاحيان .

ويجب ان نعلم على كل حال ان ديدرو ، الذي كان اكبر المفكرين الماديين قبل ماركس وانجلس ، كان يعلق بعض الاهمية عى مذهب باركلي اذ وصفه بانه: «مذهب ليس، لعار الفكر البشري وعار الفلسفة، أصعب من محاربته على الرغم من انه أكثر المذاهب عبثاً»[2]

وقد كرس لينين نفسه عدة صفحات لفلسفة باركلي. وقال:

« لم يقدم الفلاسفة المثاليون المحدثون ضد الماديين اية حجة . . لا يمكن ان نجدها عند الاسقف باركلي[3] ».

ولنر اخيرا ما يقيم به احد كتب تاريخ الفلسفة المعتمدة في المعاهد لا ـ مادية باركلي :

« مما لا شك فيه ان نظرية باركلي هي نظرية غير متكاملة ، لكنها تدعو

٢ ـ Diderot : « Lettre sur les aveugles » textes choisis T.I . Editions Sociales « classiques du peuple » p.87

كما وانه ورد عند لينين في: المادية والمذهب النقدي التجريبي ـ ترجمة فؤاد ايوب . دار دمشق ص ٢٣.

٣ ـ لينين : المرجع نفسه ص ٢٦ .

للاعجاب ويجب ان تقضي والى الابد ، على الاعتقاد بوجود جوهر مادي في الاذهان الفلسفية »[4] .

ممّا يعني اهمية هذا التعليل الفلسفي بالنسبة لجميع الناس مع اختلاف الاسباب ، أظهرته لنا هذه الاستشهادات.

٣ ـ مثالية باركلي :

ان الهدف من هذا السيستام يقوم اذن على البرهان بان المادة لا وجود لها .

يقول باركلي :

« ان المادة ليست ما نظنه عندما نظن انها موجودة خارج ذهننا ، نحن نظن ان الاشياء موجودة لاننا نراها ، نلمسها ، ولانها تولد فينا هذه الاحساسات نعتقد بوجودها. ولكن احساساتنا ليست سوى افكار نحملها في ذهننا، فالاشياء التي ندركها بحواسنا ليست اذن شيئا آخر غير افكار، والافكار لا يمكنها ان توجد خارج ذهننا».

خارج ذهننا » .

فالاشياء موجودة بالنسبة لباركلي ، وهو لا ينكر طبيعتها ووجودها ولكنه يؤكد انها لا توجد الا بشكل احساسات تعرفنا بها ، ثم يستنتج ان احساساتنا والمواضيع انما تكوّن شيئا واحدا .

الأشياء موجودة ، هذا مؤكد ، ولكنها موجودة فينا كما يقول باركلي ، في ذهننا وليس لها اي حقيقة واقعية خارج الذهن .

نتصور الاشياء بواسطة البصر ؛ ندركها بواسطة اللمس ؛ ويخبرنا الشم بالرائحة ؛ والذوق بالطعم ، والسمع بالصوت . هذه الاحساسات المختلفة تمنحنا افكاراً تجعلنا ، باتحادها بعضها ببعض ، نعطيها اسماً مشتركاً ونعتبرها مواضيع .

٤ ـ A. peryon : Précis d'histoire de la philosophie p. 320 — 321. Librairie Paul Delaplace

« نلاحظ مثلا لونا ، وطعما ورائحة ، وشكلا وصلابة معينة ، مجتمعة الى بعضها بعضا فنعتبر أن هذه المجموعة شيء متميز نطلق عليه لفظة تفاحة وتؤلف مجموعات اخرى من الافكار ما نسميه الحجر، والشجرة، والكتاب، والاشياء الاخرى الملموسة[٥] ».

نحن اذن ضحية وهم فلسفي عندما نظن ان بوسعنا معرفة الاشياء والعالم كاشياء خارجية ، لان كل ذلك لا يوجد الا في ذهننا .

ويبرهن لنا باركلي في كتابه « محاولات هيلاس وفيلونويس » هذه الموضوعة بالشكل الاتي :

«اليس من الخُلْف الاعتقاد بان الشيء نفسه يمكن ان يكون في اللحظة نفسها مختلفا؟، مثلا: حارا وباردا في اللحظة نفسها؟ تصوروا اذن ان احدى اليدين حارة ، والاخرى باردة ، وان الاثنتين مغموستان في وعاء مملوء بالماء المعتدل الحرارة في الوقت نفسه ، الا يظهر ان الماء ساخن بالنسبة لاحدى اليدين ، بارد بالنسبة للاخرى[٦] ».

فاذا كان من الخلف الاعتقاد ان شيئا يمكن ان يكون هو ذاته مختلفا في اللحظة نفسها، فينبغي الاستنتاج ان هذا الشيء لا يوجد الا في ذهننا.

ماذا يفعل باركلي اذن في منهجه في التعليل والمناقشة ؟ انه يجرد الموضوعات والاشياء من جميع خصائصها .

« انتم تقولون ان الاشياء موجودة لان لها طعما ولونا ورائحة ، لانها كبيرة او صغيرة ، خفيفة او ثقيلة ؟ سأبين لكم ان هذه الصفات لا توجد في الاشياء ، ولكن في ذهننا .

« لنأخذ قطعة من القماش : تقولون انها حمراء ، هل هذا اكيد ؟ انتم

٥ - لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي - ص ١١

٦ - Lénine: Matérialisme et empiriocriticisme p. 21

تظنون ان الاحمر هو في القماش نفسه . هل هذا مؤكد؟ انتم تعلمون ان هناك حيوانات لها عيون مختلفة عن عيوننا ، ولا ترى هذا القماش احمر ، كذلك الانسان المصاب بالبرقان يراها صفراء ! اذن من اي لون هي ؟ تقولون هذا نسبي ! الاحمر اذن ليس في القماش ولكن في العين ، اي فينا .

« تقولون ان هذا القماش خفيف ؟ لندعه يقع على نملة ، من المؤكد انها ستجده ثقيلا . من هو على حق اذن ؟ اتظنون انه حار ؟ اذا كنتم محمومين ستجدونه باردا . هل هو اذن بارد ام حار ؟

« بكلمة واحدة اذا كان من الممكن للاشياء ان تكون في اللحظة نفسها حمراء او ثقيلة أو ساخنة للبعض، وعلى عكس ذلك تماما للاخرين، هذا يعني اننا ضحية سراب، وان الاشياء لا توجد الا في ذهننا».

فنحن عندما نجرد المواضيع من خصائصها ، نتوصل الى القول ان هذه المواضيع لا توجد الا في فكرنا ، وهذا يعني ان المادة هي فكرة .

قبل باركلي ، قال الفلاسفة اليونان ، بان بعض الصفات كالطعم والصوت لم تكن في الاشياء نفسها ، بل فينا ، وهذا كان صحيحا .

لكن الجدة في نظرية باركلي هي انه يمد هذه الملاحظة على صفات الاشياء جميعها .

فقد اقام الفلاسفة اليونان بين صفات الاشياء التمايز التالي :

من جهة اولى الصفات الاولية ، اي تلك التي تكون في الاشياء ، كالوزن والمقدار والمقاومة الخ . .

ومن جهة اخرى ، الصفات الثانوية ، اي التي في داخلنا كالرائحة والطعم والحرارة الخ .

لكن باركلي طبق على الصفات الاولية نفس الموضوعة المطبقة على الصفات الثانوية ، اي ان جميع الصفات ، وجميع الخصائص ، ليست في المواضيع بل فينا اذا نظرنا الى الشمس نراها مدورة، مسطحة، حمراء. والعلم ينبئنا باننا نخدع انفسنا ، وان الشمس ليست مسطحة، وليست حمراء. نحن اذن نجرد

بمساعدة العلم ، بعض الخصائص المغلوطة التي نعطيها للشمس ، ولكن بدون ان نستنتج من ذلك انها ليست موجودة!.

لكن باركلي توصل الى مثل هذه النتيجة .

من الأكيد ان باركلي لم يكن مخطئا عندما اظهر ان تمييز الاقدمين لا يصمد امام التحليل العلمي ، ولكنه ارتكب خطأ برهانيا ، ارتكب سفسطة ، عندما استخلص من هذه الملاحظات نتائج غير متضمنة فيها . فهو يظهر بالفعل ان صفات الاشياء ليست كما تظهرها لنا حواسنا ، اي ان حواسنا تخدعنا وتشوه الواقع المادي ، ويستنتج من هذا ، وبصورة مفاجئة ، ان الواقع المادي لا وجود له .

٤ ـ نتائج التعليلات المثالية

حيث ان الاطروحة هي « كل شيء غير موجود الا في ذهننا » علينا ان نستنتج ان العالم الخارجي لا وجود له .

فاذا دفعنا هذا التعليل حتى النهاية ، وصلنا الى القول : « انا وحدي موجود . بما انني لا اعرف الناس الاخرين الا بافكاري ، وان الناس الاخرين كالموضوعات المادية ، ليسوا بالنسبة لي الا مجموعة من الافكار ». هذا ما ندعوه في الفلسفة ـ بالمثالية الوحدانية (تعني اناوحدي فقط) .

يقول لنا لينين في كتابه الأنف الذكر ، ان باركلي يدافع عن نفسه غريزيا ضد اتهامه بانه يدعم نظرية كهذه . ويستنتج ايضا ان المثالية الوحدانية ، الشكل المتطرف من المثالية ، لم يكن يدعمها اي فيلسوف .

ولذلك وجب علينا ، ونحن نناقش المثاليين ، ان نثبت باظهار هذا الامر ، ان المحاكمات التي تنكر المادة انكارا فعليا ، ستصل لا محالة ، حتى تكون منطقية ومتسقة ، الى هذا التطرف العبثي الذي هو المثالية الوحدانية .

٥ ـ الحجج المثالية :

لقد اوجزنا باكثر ما يمكن من البساطة ، نظرية باركلي ، لانه ، وحده ،

وباكثر ما يمكن من الصراحة عرض المثالية الفلسفية .

ولكن من المؤكد انه ، لفهم هذه المحاكمات ، التي هي جديدة بالنسبة لنا ، اصبح ضروريا لنا الان ان ناخذها بجدية كبيرة ، وان نبذل جهدا عقليا لذلك لماذا ؟

لاننا سنرى فيما بعد انه اذا كانت المثالية تقدم نفسها بشكل اكثر سرية تحت ستار مصطلحات وتعابير جديدة ، فكل الفلسفات المثالية لا تفعل شيئا سوى ان تردد حجج « باركلي العجوز » (لينين) .

ولاننا سنرى ايضا الى اي حد استطاعت المثالية ، التي هيمنت وتهيمن على التاريخ الفلسفي الرسمي حاملة معها منهجا في التفكير يطبعنا بطابعه ، والى اي حد استطاعت ان تتسلل الينا بالرغم من تربية علمانية تماما .

ان اساس الحجج ، في كل الفلسفات المثالية ، موجود في محاكمات الاسقف باركلي ، ولاختصار هذا الفصل سنحاول استخلاص اهم الحجج وما تحاول ان تبينه لنا .

١ ـ الروح تخلق المادة .

نحن نعلم ان هذا ، هو الجواب المثالي عن المسألة الاساسية في الفلسفة ، وهذا هو الشكل الاول للمثالية التي تنعكس في مختلف الاديان حيث يؤكد ان الروح خلقت العالم .

هذا التأكيد يمكن ان يكون له معنيان :

ـ اما ان يكون الله قد خلق العالم ، وهذا الاخير يوجد فعلا خارجا عنا . وهذه هي المثالية العادية اللاهوتية[٦] .

ـ واما ان يكون الله قد خلق سراب العالم ، مانحا لنا افكارا لا تنطبق على اية حقيقة مادية . وهذه هي « المثالية » اللامادية ، لباركلي الذي يريد ان يبرهن ان الروح هي الواقع الوحيد ، وان المادة هي « مستحضر تصنعه روحنا ».

٦ ـ اللاهوت : هو « العلم » الذي يبحث في الله وفي الامور الالهية .

لذلك يؤكد المثاليون :

٢ ـ ان العالم لا يوجد خارج فكرنا :

وهذا ما يريد باركلي ان يبينه ، بتأكيده اننا نرتكب خطأ عندما نلحق بالاشياء صفات ، وخصائص خاصة بها ، بينما هذه لا توجد الا في ذهننا . فالمقاعد والطاولات ، بالنسبة للمثاليين ، موجودة حقا ، ولكن في فكرنا فقط وليس خارجا عنا ، لان :

٣ ـ افكارنا هي التي تخلق الاشياء

وبكلمة اخرى : ان الاشياء هي انعكاس لفكرنا ، اذا،بما ان الروح هي التي تخلق سراب المادة بالفعل ، وبما ان الروح هي التي تمنح فكرنا فكرة المادة ، وبما ان الاحساسات التي تنتابنا امام الاشياء لا تتأتى من الاشياء نفسها بل من فكرنا فقط ، فان مصدر واقعية العالم والاشياء اذن هو فكرنا ، ونتيجة لذلك ، فكل ما يحيط بنا لا يوجد خارج ذهننا ، ولا يمكن ان يكون الا انعكاسا لفكرنا . ولكن بما ان روحنا ، بالنسبة لباركلي عاجزة بمفردها عن خلق هذه الافكار ، وبما انها ، على كل حال ، لا تستطيع ان تفعل بها ما تريد (كما يحصل لو كانت خلقتها من ذاتها) فيجب القبول بان روحا اخرى اكثر قدرة ، هي الخالق لهذه الافكار . « الله » اذن هو الذي خلق روحنا ، وفرض علينا جميع افكار العالم التي نصادفها فيه .

هذه هي الاطروحات الرئيسية التي ترتكز عليها المذاهب المثالية ، وهذه هي الاجوبة التي تقدمها للسؤال الاساسي في الفلسفة .

وقد حان الوقت الآن لنرى ما هو جواب الفلسفة المادية عن هذا السؤال وعن المشاكل التي تطرحها هذه الموضوعات .

للقراءة

1 — Berkeley: Dialogues d'hylas et de philonous

٢ ـ لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي من ص ١١ حتى ص ٢٦

الفصل الثالث

المادية

١ ـ لماذا يجب علينا دراسة المادية ؟
٢ ـ من اين تأتي المادية ؟
٣ ـ كيف تطورت المادية ولماذا ؟
٤ ـ ما هي مبادىء المادية وحججها ؟

أ ـ المادة هي التي تنتج الذهن
ب ـ المادة موجودة خارج كل ذهن .
ج ـ العلم يتيح لنا معرفة الاشياء بواسطة التجربة .

١ ـ لماذا يجب علينا دراسة المادية ؟

رأينا انه بالنسبة الى المسألة التالية : « ما هي العلاقة بين الوجود والفكر . لا يمكن ان يوجد الا جوابان اثنان متعارضان ومتناقضان .

وقد درسنا في الفصل السابق الجواب المثالي ، والحجج المقدمة للدفاع عن الفلسفة المثالية .

وعلينا الآن تمحيص الاجابة الثانية عن هذه المسألة الاساسية (لنكرر انها المسألة الموجودة في اساس كل فلسفة) والنظر في الحجج التي تأتي بها المادية للدفاع . فضلا عن كون المادية بالنسبة لنا هي فلسفة مهمة جدا بما انها فلسفة الماركسية .

انه من الضروري اذن ، ونتيجة لذلك، معرفة المادية معرفة جيدة. وضروري بصورة خاصة لان تصورات الفلسفة المادية غير معروفة على الوجه الصحيح ،

وان هذه التطورات قد زورت وضروري كذلك لاننا في تربيتنا ، وفي تعليمنا الذي تلقيناه ـ اكان ذلك في الابتدائي او في ما علاه ـ وعادات عيشنا وتفكيرنا نحن جميعا مطبوعون ، وبدون ان نعي ذلك ، بالتصورات المثالية .

(وسنرى على كل حال في فصول اخرى عدة امثلة على ما نذهب اليه ولماذا الامر كذلك) .

هناك اذن ضرورة مطلقة لدارسي الفلسفة الماركسية ان يعرفوا اساسها : أي المادية .

٢ ـ من اين تأتي المادية ؟

لقد عرفنا الفلسفة بشكل عام بانها الجهد المبذول لتفسير العالم والكون . ولكننا نعلم ان هذه التفسيرات تتغيّر تبعا لحالة المعارف الانسانية . وان موقفين اثنين تبناهما الفلاسفة عبر تاريخ الانسانية لتفسير العالم :

الاول لا علمي ، يستعين بروح او بعدة ارواح عليا لقوى فوق طبيعية .

والآخر علمي يرتكز على الوقائع والتجارب .

ولقد دافع الفلاسفة المثاليون عن احد هذين التصورين. وعن الآخر دافع الماديون .

لذلك قلنا، منذ بداية هذا الكتاب، ان الفكرة الاولى الواجب تكوينها عن المادية هي ان هذه الفلسفة تمثل «التفسير العلمي للكون».

وإذا كانت المثالية قد ولدت من جهل الانسان ـ وسنرى في تاريخ المجتمعات كيف ان قوى ثقافية وسياسية كانت تعتنق التصورات المثالية قد صانت الجهل وساندته ـ فإن المادية نشأت من صراع العلوم ضد الجهل والظلامية .

من اجل ذلك حوربت هذه الفلسفة ، ومن اجل ذلك لم تعرف كثيرا في شكلها الحديث (المادية الديكالكتيكية) إن لم نقل انها لم تزل مجهولة وغير معروفة في العالم الجامعي الرسمي .

٣ ـ كيف تطورت المادية ولماذا ؟

ان تاريخ الفلسفة المادية يظهر لنا، شيئا حيا ودائم الحركة فيها، على عكس ما يدعيه مناهضوها والذين يزعمون ان هذا المذهب لم يتطور منذ عشرين قرنا .

لقد تقدمت المعارف الانسانية العلمية عبر القرون . ففي بداية تاريخ الفكر ، في عصور الاغريق القديمة ، كانت المعارف شبه معدومة . وكان العلماء الاولون فلاسفة في الوقت نفسه ، لان الفلسفة كونت في هذه الحقبة ، كلا متكاملا، مع العلوم الناشئة، لأن الواحدة كانت امتدادا للاخرى.

بعد ذلك ، وإذ ادخلت العلوم في تفسيرها لظاهرات العالم ، تدقيقات ازعجت الفلسفة المثالية بل وناقضتها، ، تولد نزاع بين الفلسفة والعلوم . ولأن العلوم كانت متناقضة مع الفلسفة الرسمية في هذه الحقبة ، اصبح من الضروري ان تنفصل عنها .

اضف الى ذلك ؟

« ليس لدي العلوم ما هو اكثر الحاحا من التخلص من حشو الكلام الفلسفي ومن ان تترك للفلاسفة اوسع الافتراضات لتهتم هي بالمشكلات المحددة، تلك المشكلات التي بدأ حلّها ينضج . وعندها يحصل التمايز بين العلوم. . والفلسفة[1] » .

لكن الفلسفة التي ولدت مع العلوم ، وارتبطت بها وخضعت لها ، تقدمت وتطورت معها لتتوصل مع المادية الحديثة ، مادية ماركس وانجلز ، الى ان تجمع من جديد العلم والفلسفة في المادية الديالكتيكية .

وسندرس في وقت لاحق هذا التاريخ وهذا التطور المرتبطين بتقدم الحضارة . ولكننا نستنتج منذ الآن ، ومن المهم جدا ان نحفظ ذلك ، ان المادية والعلوم مرتبطتان احداهما بالاخرى، وان المادية تخضع بصورة مطلقة للعلم .

١ ـ René Maublanc : La vie ouvrière. 25 Novembre 1935

بقي علينا ان نقوّم اسس المادية ونعرفها ، تلك الاسس المشتركة بين جميع الفلسفات التي تنتسب الى المادية باشكال مختلفة .

٤ ـ ما هي مبادىء المادية وحججها ؟

للاجابة ، علينا ان نعود الى المسألة الاساسية في الفلسفة ،مسألة العلاقات بين الوجود والفكر ، ايهما هو الرئيسي ؟

يؤكد الماديون اولا انّ ثمة صلة محددة بين الوجود والفكر ، بين المادة والذهن . بالنسبة لهم الوجود والمادة هما الحقيقة الاولى ، الشيء الاول . والذهن هو الحقيقة الثانية ، التالية ، الخاضعة للمادة .

اذن بالنسبة لهم ، ليس الذهن او الله هو خالق العالم والمادة ، ولكن العالم والمادة والطبعة ، هي التي تخلق الذهن .

« الذهن ليس سوى اعلى نتاج للمادة »[2].

لذلك فاننا اذا اعدنا السؤال المطروح في الفصل الثاني : « كيف يحدث ان الانسان يفكر ؟» اجابنا الماديون بان الانسان يفكر لانه يملك دماغا ، وان الفكر هو نتاج الدماغ . فلا فكر عندهم بدون مادة ، بدون جسد .

« ان وعينا وفكرنا ، مهما يبدوا مفارقين ، فانهما ليسا سوى نتاج جهاز مادي جسمي هو الدماغ »[3].

وبالتالي فالوجود والمادة هي اشياء واقعية بالنسبة للماديين ، اشياء موجودة خارج فكرنا ، وليست بحاجة للفكر او للذهن حتى توجد . كذلك الذهن لا يمكن ان يوجد بدون مادة ، فليس هناك نفس خالدة ومنفصلة عن الجسد .

فالاشياء التي تحيط بنا توجد مستقلة عنا على عكس ما يدعي المثاليون وهي التي تهبنا افكارنا، وافكارنا ليست سوى انعكاس الاشياء في دماغنا.

٢ ـ فريدريك انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . دار التقدم ص ٢٥

٣ ـ المرجع نفسه ص ٢٥

لذلك امام الوجه الاخر من السؤال عن العلاقات بين الوجود والفكر :

ـ ما هي العلاقة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا ، والعالم نفسه ؟ وهل يستطيع فكرنا ان يعرف العالم الواقعي ؟ هل يمكننا في تصوراتنا ان نكون انعكاسا صادقا للواقع ؟

وتسمى هذه المسألة ، في اللغة الفلسفية ، مسألة مطابقة الفكر والكائن[4].

ـ يؤكد الماديون ، نعم نستطيع معرفة العالم ، والافكار التي نكونها عن هذا العالم تزداد صحة ، لاننا نستطيع دراستها بواسطة العلوم ، وهذه العلوم تبرهن لنا دائما بالتجربة ان الاشياء التي تحيط بنا تتمتع فعلا بواقعية خاصة بها ، مستقلة عنا ، ويستطيع الناس اعادة انتاج هذه الاشياء جزئيا ، وخلقها اصطناعيا .

ونوجز فنقول إن الماديين يؤكدون امام المشكلة الاساسية للفلسفة :

١ ـ ان المادة هي التي تنتج الذهن ، واننا ، علميا ،لم نصادف قط ذهنا بدون مادة .

٢ ـ ان المادة موجودة خارج كل ذهن وليست بحاجة للذهن حتى توجد لانها تملك وجودا خاصا ، وانه بالتالي ، على عكس ما يدعي المثاليون ، ليست افكارنا هي التي تخلق الاشياء، بل ان الاشياء هي التي تعطينا افكارنا.

٣ ـ ان باستطاعتنا معرفة العالم وإن الافكار التي نكونها عن المادة والعالم تزداد صحة ، بما اننا نستطيع بواسطة العلوم تحديد ما نعرفه سابقا واكتشاف ما نجهل .

ملاحظة من الناشرين

لفهم هذا الفصل قارن بالصفحات المهمة ٧٧ ـ ٧٩ ؛ و١٩٩ ـ ٢١٢ (الفصل الأخير)

فعندما يقول انجلز ان الفكرهو نتاج الدماغ يجب ان لا نتصور ان الدماغ يفرز

٤ ـ انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ص ٢١

الفكر كما يفرز الكبد الصفراء ، بالعكس فانجلز حارب هذه النظرية (خاصة في كتابه لودفينغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، انظر كذلك لينين في المادية والمذهب النقدي التجريبي . الفصل الاول والثاني) .

فالوعي ليس افرازا لعضو من الاعضاء ، انما هو وظيفة الدماغ فليس هو شيئا ، كالصفراء او الهرمون ، انه نشاط . ان النشاط الانساني هو نشاط واع في بعض الظروف العضوية المعقدة التي تسمح بتدخل القشرة الدماغية . وهذه الظروف هي نفسها غير منفصلة عن الظروف الاجتماعية ، كما يظهر بوليتزر ذلك فيما بعد .

للتوسّع في هذه النقاط، تجدر العودة الى:

Lucien Sève : Introduction au Léninisme p.p. 98 — 108 in Essais de la nouvelle critique. Editions Sociales 1960

الفصل الرابع

من هو على حق ، المثالي ام المادي ؟

١ ـ كيف يجب ان نطرح المشكلة .
٢ ـ هل صحيح ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ؟
٣ ـ هل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء ؟
٤ ـ هل صحيح ان الروح تخلق المادة ؟
٥ ـ الماديون هم على حق ، والعلم يثبت تأكيداتهم .

١ ـ كيف يجب أن نطرح المشكلة :

الان ، وبعد ان عرفنا اطروحات المثاليين والماديين ، سنحاول معرفة من هو على حق .

لنتذكر انه يجب علينا اولا ملاحظة ان هذه الاطروحات هي متعارضة ومتناقضة من جهة ، ومن جهة اخرى اننا مذ ان ندافع عن هذه النظرية او تلك فان هذه النظرية تقودنا الى نتائج مهمة جداً بما يترتب عليها .

ولكي ندرك من هو على حق ، يجب ان نرجع الى النقاط الثلاث التي اوجزنا بها كل حجاج .

المثاليون يؤكدون :

١ ـ ان الروح تخلق المادة ؟
٢ ـ ان المادة لا توجد خارج فكرنا فهي اذن ليست سوى وهم بالنسبة لنا .
٣ ـ ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء .

بينما يؤكد الماديون عكس ذلك تماما .

ولتسهيل عملنا يجب اولا ان ندرس ما يقع تحت الحس المشترك ، وما يشير دهشتنا كثيرا .

١ ـ هل صحيح ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ؟
٢ ـ هل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء ؟

هاتان حجتان تدافع عنهما المثالية « اللامادية » لباركلي ، وتؤدي نتائجهما ، كما في جميع اللاهوتيات الى السؤال الثالث :

٣ ـ هل صحيح ان الروح تخلق المادة ؟

ان هذه الاسئلة مهمة جدا لانها تتعلق بالمشكلة الاساسية في الفلسفة . وبالتالي سنرى من على حق عند مناقشتها ، لانها هامة جدا بالنسبة للماديين . بمعنى ان الاجوبة عن هذه الاسئلة مشتركة بين جميع الفلسفات المادية وبالتالي في المادية الديكالكتيكية .

٢ ـ هل صحيح ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ؟

قبل دراسة هذا السؤال يجب علينا ان نحدد وضع لفظين فلسفيين نحن مدعوون لاستعمالهما ، ونجدهما غالبا في قراءاتنا .

الواقع الذاتي (اي الواقع القائم فقط في فكرنا)
الواقع الموضوعي (وهو واقع قائم خارج فكرنا)

فالمثاليون يقولون ان العالم ليس واقعا موضوعيا بل هو واقع ذاتي .

ولاظهار ان العالم والاشياء لا توجد الا في فكرنا ، جزأ الاسقف باركلي الاشياء بحسب خصائصها (لون ، مقدار ، كثافة الخ) وبين لنا ان هذه الخصائص التي تتغير تبعا للاشخاص ليست في الاشياء نفسها ، ولكن في ذهن كل منا . ويستنتج ان المادة هي مجموعة خصائص غير موضوعية وانما ذاتية ، وهي بالتالي غير موجودة .

فاذا اخذنا مثل الشمس من جديد ، فان باركلي يسألنا ، هل نحن نعتقد بالواقع الموضوعي للاسطوانة الحمراء ، ويبينّ لنا ، اعتماداً على منهجه في مناقشة

الخصائص ، ان الشمس ليست حمراء ، وليست اسطوانة ، اذن ليست الشمس واقعا موضوعيا لانها غير موجودة بذاتها وانما هي واقع ذاتي لانها لا توجد الا في فكرنا .

بينما يؤكد الماديون انه ، مهما يكن من امر ، فالشمس موجودة ، ليس لاننا نراها كاسطوانة مسطحة وحمراء ، لان ذلك هو الواقعية الساذجة ، واقعية الاطفال والناس والاوائل الذين لم يملكوا سوى حواسهم لمراقبة الواقع ، بل يؤكدون مستعينين بالعلم ان الشمس موجودة ، فالعلم يتيح لنا بالفعل تصحيح الاخطاء التي تدفعنا حواسنا لارتكابها .

ولكن يجب علينا ، في مثل الشمس هذا ، طرح السؤال بوضوح .

سنقول مع باركلي ان الشمس ليست اسطوانة ، وليست حمراء ، ولكننا لن نقبل باستناجاته نفي الشمس كواقع موضوعي .

نحن لا نناقش خصائص الاشياء ، بل وجودها .

نحن لا نناقش لنعرف هل حواسنا تخدعنا وتشوه الواقع المادي ، ولكن لنعرف ما اذا كان هذا الواقع موجودا خارج حواسنا .

يؤكد الماديون وجود هذا الواقع خارجا عنا ويقدمون حججا هي العلم نفسه .
فماذا يفعل المثاليون ليبينوا لنا انهم على حق ؟ يناقشون الكلمات ، ينفقون خطبا طويلة ويكتبون صفحات عديدة .

ولنفترض لحظة انهم على حق . فاذا لم يوجد العالم الا في فكرنا ، فهذا يعني انه لم يوجد قبل وجود الناس ؟

نحن نعلم ان ذلك غير صحيح لان العلم بين لنا ان الانسان ظهر متاخرا جدا على الارض ، سيقول بعض المثاليين عندئذ انه قبل الانسان كانت هناك الحيوانات وان الفكركان يقيم فيها ، ولكن نحن نعلم ان ارضا غير مسكونة وجدت قبل الحيوانات ، وان اية حياة عضوية لم تكن ممكنة عليها . بعضهم ايضا سيقول لنا انه حتى ولو وجد النظام الشمسي وحده والانسان لم يوجد قط ، فالفكرة والروح موجودتان في الله ، وهكذا نصل الى الشكل الاسمى للمثالية . وعلينا ان نختار بين الله والعلم ، فالمثالية لا يمكن ان تستقيم بدون

الله ، والله لا يمكن ان يوجد بدون المثالية .

لنرى اذن كيف تطرح مسالة المادية والمثالية : من هو على حق ؟ الله ام العلم .

الله : هو روح خالص خالق للمادة ، وذاك تأكيد بدون اثبات .

العلم بين لنا بالممارسة والتجربة ان العالم هو واقع موضوعي ويسمح لنا بالاجابة عن السؤال :

٣ ـ هل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء ؟

لناخذ مثلا على ذلك، اوتوبيس يمر في اللحظة التي نجتاز فيها الشارع بصحبة مثالي يناقشنا لمعرفة هل الاشياء هي ذات واقع موضوعي او واقع ذاتي ، وهل صحيح ان افكارنا هي التي تخلق الاشياء .

من المؤكد انه اذا اردنا ان لا ندهس علينا ان ننتبه جيدا ، اذن المثالي مضطر في الممارسة ان يعترف بوجود الاتوبيس . بالنسبة له ، عمليا لا فرق بين اوتوبيس موضوعي واوتوبيس ذاتي . وهذا امر بالغ الصحة حتى ان الممارسة تقدم البرهان على ان المثاليين هم ماديون في الحياة .

نستطيع في هذا المجال ايراد امثلة عديدة نرى فيها ان الفلاسفة المثاليين ، والذين يدعمون هذه الفلسفة لا يترددون عن ارتكاب بعض السفالات « الموضوعية » ليحصلوا على ما ليس بالنسبة لهم سوى حقيقة ذاتية .

ولهذا السبب بالاحرى لم نعد نصادف احدا يؤكد، كما يفعل باركلي ، ان العالم غير موجود . فالحجج هي اكثر تنويعاً واكثر تمويها . (تجدر العودة ، كمثال على شكل الحجاج المثالية ، الى كتاب لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ، في الفصل المعنون « اكتشاف عناصر العالم »[1] .

ان « معيار الممارسة » كما يقول لينين ، هو اذن الذي يتيح لنا ان نفحم المثاليين .

١ ـ الفصل الاول ـ فقرة ٢ ـ ص ٤١ وما بعدها .

غير ان هؤلاء لا يتوانون عن القول ان الممارسة والنظرية ليستا سواء وانهما شيئان مختلفان كليا . هذا غير صحيح . لان صحة تصور معين او خطأه تبينه لنا الممارسة فقط بواسطة التجربة .

فمثل الاتوبيس بين ان العالم واقع موضوعي وانه ليس سرابا يخلقه ذهننا .

يبقى علينا ان نرى الان ـ وحيث ان النظرية اللامادية لباركلي لا تستطيع ان تدافع عن نفسها بوجه العلوم ، ولا ان تصمد امام معيار الممارسة ـ ما اذا كانت الروح تخلق المادة كما تؤكد جميع استنتاجات الفلسفات المثالية والاديان واللاهوت .

٤ ـ هل صحيح ان الروح تخلق المادة ؟

ان الروح بالنسبة للمثاليين كما رأينا سابقا تجد شكلها الاسمى في الله . هذا هو الجواب النهائي ، وهذه خلاصة نظريتهم ، ولذلك فمسألة الروح ـ المادة تطرح في آخر التحليل لمعرفة من هو على حق ، المثالي ام المادي ، على شكل السؤال : « الله ام العلم » .

يؤكد المثاليون ان الله وجد منذ الازل وانه ،حيث لم يخضع لاي تغيير،هو دائما نفسه . هو الروح المحض ، الذي لا وجود للزمان والمكان بالنسبة اليه ، هو خالق المادة .

ولا يقدم المثاليون هنا ايضا ، اية حجة لدعم اثباتهم لله .

وللدفاع عن خالق المادة يستعين المثاليون بمجموعة من الالغاز التي لا يستطيع ذهن ان يقبلها .

فعندما نعود الى اصول العلم ونرى ان البدائيين ، بسبب من جهلهم وضمنه اوجدوا داخل اذهانهم فكرة الله ، نلاحظ ان مثاليي القرن العشرين يتابعون كالناس الاولين تجاهل كل ما اتاح معرفته عمل مثابر وصبور . لان الله في نهاية المطاف لا يفسر بالنسبة للمثاليين ، ويبقى بالنسبة لهم ايمانا بدون اي دليل . فعندما يريد المثاليون ان « يثبتوا » لنا ضرورة خلق العالم بقولهم ان المادة لم توجد منذ الازل ، وكان من الضروري ان تحدث ، يلجأون الى اله لم يكن له هو نفسه بداية . فبماذا يكون هذا التفسير اكثر وضوحا ؟

على عكس ذلك يستخدم الماديون العلم لدعم نظريتهم ، هذا العلم الذي طوره الناس بمقدار ما جعلوا « حدود جهلهم » تتراجع .

ولكن هل يتيح لنا العلم الظن بان الروح خلقت المادة ؟ كلا .

ففكرة الخلق بواسطة روح خالصة هي فكرة غير مفهومة لاننا لا نعرف شيئا من هذا القبيل في التجربة . وحتى يصبح ذلك ممكنا كان يجب،كما يقول المثاليون ان تكون الروح وجدت وحدها قبل المادة . بينما يبين لنا العلم ان ذلك غير ممكن وانه لا ذهن بدون مادة ابدا . على عكس ذلك ، الذهن مرتبط دائما بالمادة . ونستنتج بصورة خاصة ان ذهن الانسان مرتبط بالدماغ الذي هو مصدر افكارنا وفكرنا. فالعلم لا يسمح لنا بتصوّر ان الافكار توجد في الفراغ . . .

يجب اذن على الله ـ الروح ، حتى يمكنه ان يوجد ، ان يكون ذا دماغ . لذلك نستطيع القول انه ليس الله هو الذي خلق المادة وبالتالي الانسان ، لكن المادة بشكل الدماغ الانساني هي التي خلقت الروح ـ الله .

وسنرى فيما بعد هل العلم يمنحنا امكانية الاعتقاد بالله او بشيء ما لا اثر للزمن عليه ، ولا وجود للمكان والحركة والتغير بالنسبة اليه .

نستطيع الاستنتاج منذ الان ، انه في اجابتهم على المشكلة الاساسية في الفلسفة :

٥ ـ الماديون هم على حق والعلم يثبت تأكيداتهم :

الماديون على حق في التأكيد :

١ ـ ضد مثالية باركلي وضد الفلاسفة الذين يختبئون وراء لا ماديته :

من جهة ان العالم والاشياء توجد فعلا خارج فكرنا ، وليست بحاجة لفكرنا حتى توجد ، ومن جهة اخرى ، ليست افكارنا هي التي تخلق الاشياء ولكن ، على عكس ذلك ، الاشياء هي التي تعطينا افكارنا.

٢ ـ ضد جميع الفلاسفة المثاليين لان استنتاجاتهم تؤدي الى تأكيد خلق المادة بواسطة الروح ، اي تأكيد وجود الله ومساندة اللاهوتيين في نهاية الأمر، يؤكد

الماديون ويثبتون ، بالاستناد الى العلوم ، ان المادة هي التي تخلق الروح وانهم لا يحتاجون الى « فرضية الله » لتفسير خلق المادة .

ملاحظة :

علينا الانتباه الى الشكل الذي يطرح به المثاليون المسائل ، فهم يؤكدون ان الله قد خلق الانسان في حين اننا راينا ان الانسان هو الذي خلق الله . يؤكدون ايضا من جهة اخرى ان الروح خلقت المادة في الوقت الذي راينا ان العكس تماما هو الصحيح . وثمة طريقة في قلب وجهات النظر اقتضى ان يشار اليها .

للقراءة

١ ـ لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ص ٥٢ هل كانت الطبيعة موجودة قبل الانسان ؟ . وهل يفكر الانسان بالدماغ ، ص ٧٦ الى ٧٨ .

٢ ـ انجلز : لودفيغ فيورباخ : المثالية والمادية ص٢١ .

الفصل الخامس

هل هناك فلسفة ثالثة ؟

اللاادرية

١ ـ لماذا فلسفة ثالثة ؟
٢ ـ حجاج هذه الفلسفة الثالثة .
٣ ـ مم تتأتى هذه الفلسفة ؟
٤ ـ نتائجها .
٥ ـ كيف ندحض هذه الفلسفة « الثالثة » .
٦ ـ الخلاصة .

١ ـ لماذا فلسفة ثالثة ؟

قد يكون بدا لنا أنه قد اصبح من السهل ان نتعرف على انفسنا وسط هذه المحاكمات الفلسفية لان النظريات جميعها تتوزع في تيارين اثنين فقط ، هما المثالية والمادية ، ولاننا ، فضلا عما تقدم ، نرى الحجج التي تناضل في سبيل المادية تحوز الاقناع بشكل نهائي .

تبدى لنا اذن بعد التفحص اننا وجدنا الطريق الذي يؤ دي الى فلسفة العقل : المادية .

ولكن الاشياء ليست بهذه البساطة ، فكما اشرنا سابقا ، لا يتمتع المثاليون المحدثون بصراحة الاسقف باركلي : فهم يقدمون آراءهم :

« بمزيد من التصنع في صورة اكثر غموضا من جراء استعمال مصطلحات

« جديدة » الغرض منها جعلها مقبولة من الناس البسطاء على اعتبارها الفلسفة « الاحدث »[١] .

ورأينا انه بالنسبة للسؤ ال الاساسي في الفلسفة نستطيع ان نعطي جوابين اثنين متعارضين كليا ، ومتناقضين ، وغير قابلين للتوفيق . هذان الجوابان واضحان ولا يسمحان باي غموض .

وبالفعل فحتى السنة ١٧١٠ تقريبا ، كانت المشكلة تطرح على الشكل التالي : من جهة اولى ، اولئك الذين يؤكدون وجود المادة خارج فكرنا واولئك هم الماديون ، ومن جهة اخرى اولئك الذين ينفون ، مع باركلي وجود المادة ، ويدعون انها لا توجد الا فينا ، وفي ذهننا ، واولئك هم المثاليون.

ولكن العلوم تقدمت في هذه الحقبة ، وتدخل فلاسفة آخرون حاولوا ان يعيدوا النظر في القسمة الى مثاليين وماديين ، بخلقهم تيارا فلسفيا يثير الغموض بين النظريتين . ومنشأ هذا الغموض هو البحث عن فلسفة ثالثة .

٢ ـ حجاج هذه الفلسفة الثالثة :

اساس هذه الفلسفة التي صيغت بعد باركلي ، هو انه من غير المفيد البحث لمعرفة الطبيعة الحقيقية للاشياء ، وانه لن نعرف ابدا سوى المظاهر .

ولذلك دعونا هذه الفلسفة باللاادرية (من اليونانية a اي نفي و Gnosticos اي مؤ هل للمعرفة : اذن غير مؤ هل للمعرفة) .

بالنسبة للاأدريين ، لا نستطيع ان نعرف هل العالم ، في اساسه ، هو روح او طبيعة ، فمن الممكن معرفة مظهر الاشياء ، ولكننا لن نستطيع معرفة واقعها .

ولنعد الى مثل الشمس : فقد رأينا انها ليست كما ظنها الاوائل ، اسطوانة ، مسطحة وحمراء . هذه الاسطوانة لم تكن سوى سراب ، سوى مظهر ، (المظهر هو الفكرة السطحية التي نملكها عن الاشياء ، وليس واقعها) .

١ ـ لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ص ٩

ولذلك وباعتبار ان المثاليين والماديين يتجادلون ليعرفوا هل الاشياء مادة ام روح ، وهل الاشياء موجودة ام غير موجودة خارج فكرنا ، واذا كان من الممكن معرفتها ، فان اللاادريين يقولون : اننا نستطيع معرفة المظهر جيدا ، ولكننا لن نعرف الواقع ابدا .

ويقول اللاادريون : ان حواسنا تتيح لنا رؤية الاشياء والاحساس بها ومعرفة الأوجه الخارجية اي المظاهر ، هذه المظاهر موجودة اذن بالنسبة لنا ، وتؤلف ما يدعى في اللغة الفلسفية بـ « الشيء لنا » لكننا لن نستطيع معرفة الشيء مستقلا عنا ، بواقعه الخاص به ، وهذا ما يسمى بـ « الشيء ـ في ـ ذاته »

فالماديون والمثاليون الذين يتناقشون في هذه الموضوعات ، يشبهون رجلين ، احدهما يملك نظارات زرقاء والاخر وردية ، يتنزهان على الثلج ويتجادلان لمعرفة لونه الحقيقي . ولنفترض انهما لا يستطيعان خلع نظاراتهما . فهل يستطيعان معرفة لون الثلج الحقيقي يوما ما ؟ . . طبعا لا . . فالمثاليون والماديون الذين يتجادلون لمعرفة : ايهما على حق ، يضعون نظارات زرقاء ووردية . لن يعرفوا الحقيقة اذن ابدا بل سيعرفون الثلج «بالنسبة لهم» كل واحد يراه على طريقته، ولكنهم لن يعرفوا الثلج في ذاته ابدا. تلك هي محاكمة اللاادريين .

٣ ـ مم تتأتى هذه الفلسفة ؟

ان مؤسسي هذه الفلسفة هم : هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦) الذي كان اسكتلانديا وكنط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) الذي كان المانيا . لقد حاول الاثنان التوفيق بين المثالية والمادية .

وهاكم مقطعا من محاكمات هيوم ، ذكره لينين في كتابه المادية والمذهب النقدي التجريبي .

« يمكن ان تعتبر امرا مفروغا منه كون الناس ميالين ، بغريزتهم الطبيعية . . . الى ان يثقوا بحواسهم ، وكوننا نفترض دائما دون ادنى محاكمة ، او حتى قبل ان نلجأ الى المحاكمة ، وجود كون خارجي لا يتوقف على ادراكنا ، وهو سيظل موجودا حتى لو اختفينا او زلنا من الوجود نحن وجميع الكائنات

الاخرى التي تملك الحساسية .

لكن هذا الرأي الاولي والكلي ، سرعان ما تدمره الفلسفة الاوهن التي تعلمنا ان الذهن لا يمكن ابدا ان يطال سوى النسخة او الادراك ، وان الاحساسات ـست سوى قنوات تتبعها هذه النسخ ، دون ان يكون في مقدورها ان تنشىء اي علاقة مباشرة بين الذهن والموضوع . ان الطاولة التي تراها تبدو انها تصغر عندما تبتعد عنها ، ولكن الطاولة الفعلية ، التي توجد بصورة مستقلة عنا ، لا تتعرض لاي تغيير ، فعقلنا لم يدرك اذن سوى نسخة الطاولة ، تلك هي اوامر العقل البينة»[2] .

نرى ان هيوم يقبل اولا كل ما يقع تحت الحس المشترك؛ « وجود كون خارجي » غير مرتبط بنا . ولكنه يرفض في الحال قبول هذا الوجود كواقع موضوعي . فهذا الوجود بالنسبة له ، ليس شيئا آخر غير نسخة ، واحساساتنا التي تستنتج هذا الوجود ، هذه النسخة ، غير جديرة باقامة صلة ايا كانت بين الذهن والموضوع .

بكلمة واحدة ، نحن نعيش وسط الاشياء كما في السينما ، حيث نلاحظ على الشاشة نسخة المواضيع ووجودها ، ولكن وراء النسخة اي وراء الشاشة لا يوجد شيء .

فاذا اردنا الآن معرفة كيف يعرف ذهننا المواضيع ، فالجواب ان هذا يمكن ان ينشأ : «عن طاقة ذهننا نفسه ، او عن فعل اي فكر لا مرئي ومجهول ، او عن اي سبب اخر نحن اشد جهلا به ايضاً»[3] .

٤ ـ نتائجها :

تلك نظرية مغرية . ومنتشرة جدا على كل حال . وسنجدها عبر التاريخ بمظاهر مختلفة ، بين النظريات الفلسفية ، وفي ايامنا عند جميع الذين يدعون « البقاء حياديين ومتحفظين علميا » .

٢ ـ قارن لينين : المرجع نفسه ص ٢١
٣ ـ قارن المرجع نفسه ـ الصفحة نفسها .

يجب علينا اذن ان نتفحص صحة هذه المحاكمات والنتائج المترتبة عليهـا . فاذا كان صحيحا ، كما يؤكد اللاادريون ، ان من المستحيل معرفة الطبيعـة الحقيقية للاشياء ، وان معرفتنا تقف عند حدود مظاهرها ، فنحن لا نستطيع اذن تاكيد وجود الواقع الموضوعي ، ولا نستطيع معرفة هل الاشياء موجودة في ذاتها . بالنسبة لنا مثلا ، الاوتوبيس هو واقع موضوعي ، اللاأدري يقول ان هذا غير مؤكد واننا لا نستطيع ان نعرف ما اذا كان الاوتوبيس هو فكرة وواقع . انه يمنعنا اذن من القول : ان فكرنا هو انعكاس للاشياء . ونرى اننا هنا في قلب المحاكمة المثالية ، لان الفرق ليس شاسعا بين التأكيد ان الاشياء غير موجودة ابدا ، واننا ببساطة لا نستطيع ان نعرف هل هي موجودة .

ولقد رأينا ان اللاأدرية تميز : « الاشياء ـ لنا » و« الاشياء ـ في ذاتها » . ودراسة « الاشياء ـ لنا » هي ممكنة اذن : هذا هو العلم . لكن دراسة « الاشياء ـ في ذاتها » امر محال ، لاننا لا نستطيع معرفة ما يوجد خارجا عنا .

ان نتيجة هذه المحاكمة هي الاتية : اللاأدري يقبل العلم ، وبما انه لا يستطيع العمل بالعلم ما لم يطرد من الطبيعة كل قوة تفوق الطبيعة ، فانه امام العلم يكون ماديا .

لكن اللاأدري يسرع ليضيف : ان العلم لا يعطينا سوى مظاهر ، وعدا ذلك لا شيء يثبت عدم احتواء الواقع اشياء اخرى غير المادة ، او حتى هل المادة موجودة ، او ان الله غير موجود . فالعقل الانساني لا يستطيع ان يعرف شيئا عن ذلك ، وليس عليه ان يتدخل فيه . واذا وجدت طرق اخرى لمعرفة « الاشياء ـ في ذاتها » كالاعتقاد الديني فان اللاأدري لا يريد ان يعرفها ايضا ، ولا يعترف لنفسه ابدا بحق مناقشتها .

فاللاادري هو مادي اذن بالنسبة للسلوك في الحياة ولاقامة العلم ولكنه مادي لا يجرؤ على تاكيد ماديته ، ويفتش قبل كل شيء على ان لا يخلق لنفسه المتاعب مع المثاليين ، وان لا يدخل في صراع مع الاديان . انه « مادي خجل »[٤] .

النتيجة هي ان هذه الفلسفة الثالثة،وهي تشك بقيمة العلم العميقة ، ولا ترى

٤ ـ انجلس الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية . المقدمة ص ١٤

فيه الا المظاهر ، تقترح علينا عدم تخصيص العلم باية حقيقة ، واعتبار البحث عن معرفة شيء ما ، ومحاولة الاسهام في التقدم ، عملا عديم الفائدة .

يقول اللاأدريون : رأى الناس الشمس قديما كالاسطوانة المسطحة، فاعتقدوا ان هذا هو الواقع . لقد اخطأوا . واليوم ينبئنا العلم ان الشمس ليست كما نراها ويزعم تفسير كل شيء . ومع ذلك نعرف ان العلم يخطىء غالبا . ويحطم في النهار ما بناه في الليل، خطأ البارحة هو حقيقة اليوم، لكنه خطأ في الغد.
هكذا يدعم اللاأدريون الصيغة : نحن لا نستطيع المعرفة البتة : فالعقل لا يحمل لنا اي يقين ، واذا ادعت طرق اخرى غير العقل كالايمان الديني مثلا منحنا اليقين المطلق ، فلن يستطيع العلم ايضا منعنا من تصديقه . وهكذا ، فان اللاادرية ، بتقليصها الثقة بالعلم تهيء عودة الايمان .

٥ ـ كيف ندحض هذه الفلسفة « الثالثة »

راينا ان الماديين لا يستخدمون العلم وحده لاثبات تاكيداتهم . بل يستخدمون كذلك التجربة التي تتيح مراقبة العلوم . فبفضل « معيار الممارسة » نستطيع المعرفة ، نستطيع معرفة الاشياء .

يقول اللاأدريون انه من المستحيل تاكيد وجود العالم الخارجي اوعدم وجوده .

لكن ، بالممارسة ، نعلم ان العلم والاشياء موجودة . ونعلم ان الافكار التي نكونها لانفسنا عن الاشياء هي افكار اساسية ، وان الصلات التي نقيمها بيننا وبين الاشياء هي صلات واقعية .

« وما ان نستخدم تلك المواضيع لاستعمالنا الشخصي حسب الخواص التي ندركها فيها ، حتى نمتحن صحة ادراكاتنا الحسية او خطأها امتحانا لا يخطىء . فاذا كانت هذه الادراكات خاطئة فان حكمنا ، حول امكانية استعمالنا الشيء الذي اوحت به لا بدّ من ان يكون خاطئا هو الاخر ولا بد من ان تفشل محاولتنا.

لكننا اذا نجحنا في بلوغ هدفنا ولاحظنا ان الشيء يتفق وفكرتنا عنه ويستجيب للغرض الذي توخيناه منه ، فان ذلك يعتبر دليلا ايجابيا على ان ادراكاتنا للشيء وخواصه ، ضمن هذه الحدود ، متفقة مع الواقع الموجود

خارجا عنا . ومتى وجدنا انفسنا وجها لوجه امام الفشل فاننا لن نحتاج عموما الى وقت طويل لنتبين السبب الذي جعلنا نفشل ، وسنجد ان الادراك الذي تصرفنا بموجبه كان اما غير كامل وسطحيا ، واما مرتبطا بنتائج ادراكات اخرى ـ بشكل لا يبرره الواقع ـ وهذاما نسميه بالقياس الفاسد . وطالما نحرص على تدريب حواسنا واستخدامها بشكل صحيح ونحصر سلوكنا داخل الحدود التي ترسمها ادراكاتنا المكتسبة والمستعملة بشكل صحيح ، طالما سنجد ان نتيجة تصرفاتنا تثبت تطابق ادراكاتنا مع الطبيعة الموضوعية للاشياء المدركة . ولم يوجد حتى الآن مثل واحد قادنا الى الاستنتاج بان ادراكاتنا الحسية المسيطر عليها علميا تولد في اذهاننا افكارا عن العالم الخارجي هي من حيث طبيعتها بالذات غير مطابقة للحقيقة ، او ان هناك تنافرا لازما بين العالم الخارجي و ادراكاتنا الحسية عنه »[٥] .

اذا استعدنا جملة انجلس نقول : « ان الدليل على الفطيرة هو اننا ناكلها » (مثل انكليزي) فاذا كانت غير موجودة ، او كانت مجرد فكرة ، فان جوعنا لا يهدأ بعداكلها ابدا . وهكذا فمن الممكن معرفة الاشياء بصورة كاملة ، والنظر في مدى تطابق افكارنا مع الواقع . ومن الممكن مراقبة معطيات العلم بالتجربة ، بالصناعة التي تترجم النتائج النظرية للعلوم الى تطبيقات عملية . فاذا استطعنا صنع الكاوتشوك المركب فهذا يعني ان العلم يعرف « الشيء ـ في ـ ذاته » الذي هو الكاوتشوك .

نحن نرى اذن انه من غير المفيد البحث لمعرفة : من على حق ، لانه ضمن الاخطاء النظرية التي يرتكبها العلم تأتي التجربة لتعطينا في كل مرة البرهان مؤكدة ان الحق هو بجانب العلم .

٦ ـ الخلاصة :

منذ القرن الثامن عشر ، نرى عند مختلف المفكرين الذين اخذوا من اللاأدرية قليلا او كثيرا ، نرى ان هذه الفلسفة تتجاذبها المثالية تارة ، والمادية طورا . فتحت غطاء من الكلمات الجديدة ، كما يقول لينين ، مع محاولة استخدام

العلوم لتوسيع تعليلاتهم ، لا يفعلون شيئا اخر غير خلق الغموض بين النظريتين متيحين بذلك للبعض امتلاك فلسفة ميسرة ، تمكنهم من الاعلان عن عدم مثاليتهم لانهم يستخدمون العلم ، لكنهم ليسوا ماديين ايضا لانهم لا يجرؤون على السير بحججهم حتى النهاية لانهم غير متسقين .

« بالفعل ما هي اللاادرية ان لم تكن مادية « خجلة » ، اذا استعملنا كلمة لنكشيرية بليغة التعبير ؟ فتصور اللاادري عن الطبيعة هو مادي بكليته ، فالعالم الطبيعي كله تحكمه قوانين ولا يقر بتدخل اي فعل خارجي . ولكن اللاادري يضيف مستدركا : نحن لا نملك الوسيلة التي تتيح لنا ان نؤكد او ندحض وجود كائن ما اعلى في ما وراء الكون المعروف »[٦] .

تلعب هذه الفلسفة اذن لعبة المثالية ، وفي نهاية المطاف ينتهي اللاادريون الى المثالية لانهم غير متسقين في تعليلاتهم . يقول لينين : « حكوا اللاادري ستجدون المثالي » .

كنا قد راينا اننا نستطيع ان نعرف ايهما على حق : المثالية ام المادية .

ونرى الآن ان النظريات التي تدعي وصل الفلسفتين لا تستطيع فعليا الا مساندة المثالية ، وانها لا تقدم بالتالي جوابا عن السؤال الاساسي في الفلسفة ، وانه بالتالي ليس هناك فلسفة ثالثة .

للقراءة

لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي من ص ٩ الى ص ٢١

انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٢٠ وما بعدها .

انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ص, ١٤ ـ ١٥ .

القسم الثاني

المادية الفلسفية

الفصل الأول

المادة والماديون

1 ـ ما المادة ؟
2 ـ النظريات المتتابعة في المادة .
3 ـ ما المادة بالنسبة للماديين ؟
4 ـ المكان ، الزمان ، الحركة والمادة .
5 ـ خلاصة .

بعد ان حددنا :

اولا ، الافكار المشتركة لدى جميع الماديين ، ثم حجج جميع الماديين ضد الفلسفات المثالية ، وبعد ان اظهرنا خطأ اللاأدرية اخيرا ، سنستخلص نتائج هذا التعليم ونقوي حججنا المادية بتقديم اجوبتنا على السؤالين التاليين :

1 ـ ما المادة ؟
2 ـ ماذا يعني ان نكون ماديين ؟

1 ـ ما المادة ؟

اهمية السؤال : علينا طرح الاسئلة بوضوح في كل مرة تطرح فيها مشكلة للحل . فليس من السهل هنا بالفعل اعطاء جواب مرض . وللتوصل الى ذلك علينا ان نصوغ نظرية للمادة .

يظن الناس عموما ان المادة هي ما نستطيع لمسه ، ما هو صامد وصلب . هكذا حددت المادة في عصور الاغريق القديمة .

لكننا نعلم اليوم وبفضل العلوم ان هذا ليس دقيقا .

٢ ـ النظريات المتتابعة في المادة :

ان هدفنا هو ان نتناول تناولا عابرا وباكثر ما يمكن من البساطة مختلف النظريات المتعلقة بالمادة ، دون الدخول في الشروحات العلمية .

في اليونان ، كان يظن ان المادة هي واقع ممتلىء لا يُخرق ، ولا يستطيع الانقسام الى ما لا نهاية . وكان يقال: في لحظة ما لا تعود الاجزاء قابلة للانقسام. وسميت هذه الجزئيات الذرات (الذرة = غير منقسم) ، فالطاولة هي اذ ذاك تجمع من الذرات . وكان يظن ايضاً ان هذه الذرات يختلف بعضها عن بعض : هناك ذرات ملساء ومدورة كذرات الزيت ، واخرى خشنة ومعقوفة كذرات الخل .

اول من حاول اعطاء قوام لهذه النظرية هو ديمقريطس ، وهو مادي قديم . وهو الاول الذي حاول ان يعطي تفسيرا ماديا للعالم . كان يعتقد مثلا ان الجسم الانساني مركب من ذرات غير صقيلة ، وان النفس هي تجمع من الذرات اكثر رقة ، انه كان يعترف بوجود الالهة وكان مع ذلك يريد شرح كل شيء من وجهة نظر المادي. فقد كان يؤكد ان الالهة نفسها مكونة من ذرات في غاية الرقة.

هذه النظرية عدلت بصورة عميقة في القرن التاسع عشر .

كان ما يزال يظن ان المادة تنقسم الى ذرات ، وان هذه الذرات كانت جزئيات قاسية جدا ، متجاذبة فيما بينها ، لقد اهملت نظرية اليونانيين ، ولم تعد هذه الذرات معقوفة او ملساء ، ولكن استمر الاعتقاد انها لا تخرق ولا تنقسم ، وتخضع لحركة التجاذب فيما بينها .

اليوم يبرهن ان الذرة ليست حبة من المادة لا تخرق ولا تقطع (اي لا تنقسم) ولكنها هي نفسها مركبة من جزئيات تسمى الكترونات تدور بسرعة كبيرة حول نواة تتضمن مجموع كتلة الذرة تقريبا بشكل مكثف . واذا كانت الذرة محايدة ، فان الالكترونات والنواة هي ذات شحنة كهربائية ، الا ان الشحنة الايجابية للنواة تساوي مجموع الشحنات السلبية في الالكترونات . المادة هي تجمع هذه

الذرات وهي اذ تبدي مقاومة للاختراق ، فانما يعود ذلك لحركة الجزئيات التي تتركب منها .

ان اكتشاف الخصائص الكهربائية للمادة ، وخاصة اكتشاف الالكترونات في بداية القرن التاسع عشر قد احدث هجمة من قبل المثاليين ضد وجود المادة نفسه. لقد زعموا « ان الالكترون ليس فيه شيء مادي ، وانه ليس الا شحنة كهربائية متحركة . فاذا لم يكن من مادة في الشحنة السلبية فلماذا يكون في النواة الايجابية ؟ اذن ان المادة قد تلاشت ، وليس هناك سوى الطاقة ! »

ولقد اعاد لينين ، في كتابه « المادية والمذهب النقدي التجريبي » (الفصل الخامس) ، الامور الى نصابها باظهاره ان الطاقة والمادة لا ينفصلان . فالطاقة هي مادية ، والحركة ليست سوى نمط وجود المادة . بالاجمال يترجم المثاليون اكتشافات العلم بالمقلوب . ففي الوقت الذي يظهر فيه العلم بجلاء اوجهاً لوجود المادة كانت حتى ذلك الحين مجهولة ، يستنتجون ان المادة غير موجودة ، بحجة انها لا تطابق الفكرة المكونة عنها سابقا كأن يعتقد ان المادة والحركة هما واقعان متمايزان[1] .

٣ ـ ما المادة بالنسبة للماديين ؟

من الضروري في هذا الموضوع ان نميز : فالمطلوب ان نرى اولاً :

١ ـ ما المادة ؟

ثم

٢ ـ كيف هي المادة ؟

جواب الماديين على السؤال الاول ، هو ان المادة واقع خارجي مستقل عن الذهن ولا حاجة به للذهن حتى يوجد . يقول لينين في هذا الموضوع : « ان

١ ـ القسم الثاني من هذا الفصل عدل بمساعدة لوس لانجفن وجان اورسل. ـ حول التقدم المنجز منذ بداية القرن في دراسة بنية المادة ، ارجع الى :

F. joliot — Curie : Textes choisis E.S. pp. 85 — 89

مفهوم المادة لا يعبر الا عن الواقع الموضوعي الذي يعطى لنا في الاحساس »[٢]

والآن عن السؤال الثاني : « كيف هي المادة ؟ يقول الماديون : « على العلم ان يجيب وليس علينا نحن » .

الجواب الاول لم يتغير منذ القدم حتى ايامنا هذه .
الجواب الثاني تغير ويجب ان يتغير لانه يخضع للعلوم ولحالة المعارف البشرية ، انه ليس اذن جوابا نهائيا .

نرى انه من الضروري ضرورة مطلقة ان نطرح السؤال جيدا وان لا ندع المثاليين يخلطون السؤالين معا . يجب فصلهما جيدا ، وتبيان ان الاول هو الرئيسي وان جوابنا بالنسبة له لم يتغير ابدا .

لان « الخاصة » الوحيدة للمادة التي يحدد التسليم بها المادية الفلسفية هي انها « واقع موضوعي ، هي انها خارج وعينا »[٣] .

٤ ـ المكان ، الزمان ، الحركة ، والمادة :

اذا اكدنا ان المادة موجودة خارجة عنا ، لاننا نلاحظ ذلك ، فاننا نؤكد ايضاً :

١ ـ ان المادة توجد في الزمان وفي المكان .
٢ ـ ان المادة في حركة .

المثاليون يظنون ان المكان والزمان افكار لذهننا (كنط اول من دعم هذا الاتجاه). بالنسبة اليهم ، المكان هو صورة نعطيها للاشياء ، المكان يخلق من ذهن الانسان ، والشيء نفسه بالنسبة للزمان .

الماديون يؤكدون ، على العكس ، ان المكان ليس فينا ، انما نحن الذين نوجد في المكان . يؤكدون ايضا ان الزمان هو شرط ضروري لمجرى حياتنا ، وان المكان والزمان هما بالتالي غير منفصلين عما يوجد خارجا عنا ، اي عن

٢ ـ فارن لينين : المادية والمذهب النقدى التجريبي ص ٢٦٧
٣ ـ فارن لينين : المادية والمذهب النقدي والتجريبي ص ٢٦٠

المادة . « ان الاشكال الاساسية لكل كائن هي المكان والزمان ، واي كائن خارج الزمان هو خلف كبير ، بقدر ما هو خلف وجود الكائن خارج المكان »[٤] .

نعتقد اذن ان هناك واقعاً مستقلا عن الوعي . نعتقد جميعا ان العالم وجد قبلنا ، وانه سيكمل الوجود بعدنا . انه ليس بحاجة لنا ليوجد . نحن مقتنعون بأن باريس وجدت قبل مولدنا ، وانها اذا لم تهدم نهائيا ستوجد بعد موتنا . نحن متأكدون من وجود باريس حتى عندما لا نفكر بها ، كذلك ان مئات الالوف من المدن موجودة ولم نزرها ابدا ، حتى اننا لا نعرف اسمها وهي مع ذلك موجودة . هذه هي القناعة العامة . وقد اتاحت العلوم اضفاء دقة وصلابة على هذه الحجة تحيلان كل الحذلقات المثالية الى عدم .

« وتؤكد علوم الطبيعة ايجابيا ان الارض كانت موجودة في حالات لم يكن يسكنها معها ، ولا يمكن ان يسكنها ، لا انسان ولا اي كائن حي . ان المادة العضوية ظاهرة متأخرة ، نتاج تطور طويل »[٥]

فاذا كانت العلوم تقدم لنا اذن البرهان على ان المادة موجودة في المكان والزمان ، فهي تعلمنا في نفس الوقت ان المادة متحركة . هذا التدقيق الذي زودتنا به العلوم الحديثة مهم جدا ، لانه يحطم النظرية القديمة التي كانت المادة بموجبها غير قادرة على الحركة ، اي خامدة.

« الحركة هي نمط وجود المادة . . ولا يمكن تصور المادة بدون حركة تماما كما لا يمكن تصور الحركة بدون مادة »[٦] .

نحن نعلم ان العالم في حالته الحاضرة هو نتيجة تطور طويل في جميع المجالات . وبالتالي هو نتيجة حركة بطيئة ولكن متصلة . وبعد ان بينا وجود المادة نقول اذن :

« ليس الكون سوى مادة في حالة الحركة ، وهذه المادة التي هي في حالة

٤ ـ قارن انجلس انتي دوهرينغ ـ دار دمشق . ترجمة فؤاد ايوب ، ص ٦٥ ، ١٩٦٨
٥ ـ لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ص ٦٤
٦ ـ قارن انجلس انتي دوهرينغ ، ص ٧٥

الحركة لا يمكن ان تتحرك الا في المكان والزمان »[٧] .

٥ ـ خلاصة :

حاصل هذه الملاحظات هو ان فكرة الله ، فكرة « الروح الخالص » خالق الكون ، لا معنى لها . لان الها خارج المكان والزمان هو شيء غير ممكن الوجود .

يجب ان نقاسم المثاليين صوفيتهم وبالتالي عدم قبولهم بأية رقابة علمية ، حتى نعتقد باله موجود خارج الزمان ، اي غير موجود في اية لحظة ، وموجود خارج المكان اي لا وجود له في اي مكان .

الماديون ، المدعمون بنتائج العلوم ، يؤكدون ان المادة موجودة في المكان ، وفي زمن معين (في الزمان) . وبالتالي لا يمكن للكون ان يكون مخلوقا لانه سيكون على الله ، ليستطيع خلق العالم ، خلق لحظة لا تكون في اية لحظة (لان الزمان غير موجود بالنسبة لله) وسيكون واجبا ان يخرج العالم من لا شيء . ولقبول الخلق ، يجب اذن القبول اولا بوجود زمن لم يكن الكون قد وجد فيه قط ، ثم انه من لا شيء ، خرج شيء ، وهذا ما لا يمكن للعلم قبوله .

نرى اذن ان الحجج المثالية ، اذا ما عرضت على محك العلوم لا تستطيع الدفاع عن نفسها ، في حين ان حجج الماديين ، لا يمكنها ان تكون مفصولة عن العلوم نفسها . نشدد هنا ، مرة اخرى ، على الصلات الحميمة التي تربط المادية بالعلوم .

للقراءة

١ ـ انجلس : انتي دوهرينغ ، ص ٧٥ .

٢ ـ لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي : (الفصل الثالث) (ص ١٧٠ ـ ١٧٦) والفصل الخامس .

٧ ـ لينين : المرجع نفسه ص ١٧١

الفصل الثاني

ماذا يعني ان يكون الانسان ماديا

١ ـ وحدة النظرية والممارسة :

ان هدف الدراسة التي نتابعها هو العمل على معرفة ما هي الماركسية ، ورؤية كيف ان الفلسفة المادية ، عندما تصبح جدلية ، تصبح هي الماركسية . نحن نعلم ، حتى الآن ، ان احد اسس هذه الفلسفة هو الصلة الوثيقة بين النظرية والممارسة .

لذلك ، وبعد ان رأينا ما المادة بالنسبة للماديين ثم كيف هي المادة ، فقد اصبح ضروريا بعد هذين السؤالين النظريين ان نقول ماذا يعني كون المرء ماديا ، اي كيف يتصرف المادي . هذا هو الوجه العملي لهذه المشكلات .

اساس المادية هو الاعتراف بأن الوجود هو مصدر الفكر . ولكن أيكفي ان نكرر هذا بصورة متواصلة ؟ لكي نكون انصاراً حقيقيين للمادية المتسقة ، يجب ان نكون كذلك : ١ ـ في مجال الفكر ، ٢ ـ في مجال الفعل .

٢ ـ ماذا يعني ان يكون المرء نصيراً للمادية في مجال الفكر ؟

ان يكون المرء نصيراً للمادية في مجال الفكر ، هذا يعني معرفة المعادلة الاساسية للمادية التي هي الوجود ينتج الفكر ، ثم معرفة كيفية تطبيق هذه المعادلة .

فعندما نقول : ان الوجود ينتج الفكر ، فان لدينا هنا صيغة مجردة لان كلمتي : وجود وفكر هما كلمتان مجردتان . « الوجود » تعني الوجود بالمعنى العام ، و« الفكر » تعني الكلام على الفكر بالمعنى العام . الوجود والفكر بالمعنى العام ، هما واقع ذاتي (راجع القسم الاول ، الفصل الرابع ، شرح « الواقع الذاتي » و« الواقع الموضوعي ») : ان ذلك غير موجود . وهذا ما نسميه تجريداً. فالقول «ان الوجود ينتج الفكر » هو اذن صيغة مجردة لانها مركبة من تجريدات .

نحن نعرف مثلا الاحصنة معرفة جيدة، ولكن اذا تكلمنا على الحصان يكون الكلام على الحصان بالمعنى العام ، فالحصان بالمعنى العام هو اذن تجريد.

فاذا وضعنا مكان الحصان الانسان ، او الوجود بالمعنى العام ، فهذه ايضا تجريدات .

ولكن ، اذا كان الحصان بالمعنى العام لا وجود له فماذا يوجد اذن ؟ ـ الاحصنة على وجه الخصوص . فالبيطري الذي يقول : « انا اعالج الحصان بالمعنى العام وليس الحصان بالمعنى الخاص » يضحك الناس منه ، كذلك الطبيب الذي يقول الكلام نفسه على الناس .

لا وجود اذن للوجود بالمعنى العام ، وما يوجد هو كائنات على وجه الخصوص ، لها كيفيات خاصة . والقول نفسه يقال عن الفكر .

نقول اذن : ان الوجود بالمعنى العام هو شيء مجرد ، وان الوجود بالمعنى الخاص هو شيء ملموس ، والشيء نفسه بالنسبة للفكر بالمعنى العام ، وللفكر بالمعنى الخاص .

المادي هو الذي يعرف كيف يتعرف في كل الظروف على موقع الوجود وموقع الفكر ، ويعرف كيف يجعله ملموسا .

مثلا : الدماغ وافكارنا .

علينا معرفة تحويل الصيغة العامة المجردة الى صيغة ملموسة . فالمادي يحدد اذن هوية الدماغ بكونه الوجود ، وهوية افكارنا بكونها الفكر . فيفكر قائلا : ان الدماغ (الوجود) هو الذي ينتج افكارنا (الفكر) . هذا مثل بسيط ، ولنأخذ مثلا من المجتمع البشري اكثر تعقيدا ولنر كيف سيحاكم المادي .

حياة المجتمع مركبة (اجمالا) من حياة اقتصادية وحياة سياسية . ما هي العلاقات بين الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ؟

ما هو العامل الاول في هذه الصيغة المجردة التي نريد تحويلها الى صيغة ملموسه ؟

العامل الاول اي الوجود ، العامل الذي يعطي الحياة للمجتمع ، هو عند المادي الحياة الاقتصادية . والعامل الثاني هو الفكر الذي خلقه الوجود والذي لا حياة له بدونه ، هو الحياة السياسية .

المادي سيقول اذن ان الحياة الاقتصادية تفسر الحياة السياسية ، لان الحياة السياسية هي نتاج للحياة الاقتصادية .

هذه الملاحظة الموجزة هي في اساس ما نسميه المادية التاريخية والتي وضعها لاول مرة ماركس وانجلس .

لنأخذ مثلا اكثر دقة ، الشاعر . من المؤكد ان عوامل عديدة تدخل في الحسبان عند « تفسير » الشاعر ، ولكن نريد هنا تبيان وجه من هذه المسألة .
يقال عموما ان الكاتب يكتب مدفوعا بالوحي . ايكفي هذا لتفسير كون الشاعر يكتب هذا بدلا من ذاك ؟ كلا .

من المؤكد ان الشاعر لديه افكار في رأسه ، ولكنه ايضا كائن يعيش في المجتمع . وسنرى ان العامل الاول الذي يهب الكاتب حياته الخاصة هو المجتمع ، لان العامل الثاني هو الافكار التي يمتلكها الكاتب في دماغه .
وبالتالي فان احد العناصر ، العنصر الاساسي الذي « سيفسر » الكاتب سيكون المجتمع ، اي الوسط الذي يعيش فيه الكاتب داخل المجتمع . (سنعود فنجد

« الشاعر » عندما سندرس الديالكتيك ، لانه سيكون لدينا عندئذ جميع العناصر لدرس هذه المسألة جيدا) .

ونحن نرى ، في هذه الامثلة ، ان المادي هو الذي يعرف كيف يطبق الصيغة المادية دائما وفي اي مكان ، وفي كل لحظة ، وفي جميع الحالات .

٣ ـ كيف نكون ماديين في الممارسة ؟

١ ـ الوجه الاول للسؤال :

رأينا انه لا وجود للفلسفة الثالثة ، وانه اذا لم نكن متسقين في تطبيق المادية ، فاما ان نكون مثاليين ، واما ان نحصل على خليط من المادية والمثالية .

العالم البورجوازي ، في دراساته وفي تجاربه ، هو مادي دائما . هذا طبيعي لانه من الضروري ان يشتغل على المادة لجعل العلوم تتقدم ، واذا ظن العالم فعلاً بأن المادة لا توجد الا في ذهنه ، فانه سيجد اجراء التجارب عملا عديم الفائدة .

هناك اذن انواع عدة من العلماء :

١ ـ العلماء الماديون الواعون والمتسقون .[1]

٢ ـ العلماء الماديون دون ان يدروا ، اي جميع العلماء على وجه التقريب لانه من المستحيل ان نشتغل علماً دون ان نفترض وجود المادة . ولكن بين هؤلاء يجب ان نميز :

أ ـ هؤلاء الذين يبدأون باتباع المادية ثم يتوقفون لانهم لا يجرؤون على القول بانهم كذلك ، هؤلاء هم اللاأدريون ، اولئك الذين دعاهم انجلس « الماديون الخجلون » .

ب ـ ثم العلماء الماديون على غير علم منهم ، وغير المتسقين . هم ماديون في المختبر ، ثم بعد خروجهم من عملهم ، هم مثاليون مؤمنون ومتدينون .

وفي الواقع فان هؤلاء لم يعرفوا ، او لم يريدوا ترتيب افكارهم . انهم في

١ ـ Voir P. Langevin: La pensee et l'action. Editeurs Français Réunis, Paris s.d.

تناقض دائم مع انفسهم . يفصلون اعمالهم المادية بالضرورة عن تصوراتهم الفلسفية . انهم « علماء » ، وعلى الرغم من ذلك يظنون ـ وهذا امر قليل العلمية ـ انه من غير المجدي معرفة طبيعة الاشياء الواقعية ، هذا اذا لم ينفوا صراحة وجود المادة . هم « علماء » ومع ذلك يؤمنون ، بدون اي برهان ، باشياء مستحيلة (لنر حالة باستور وبرنلي وآخرين من المؤمنين ، بينما العالم اذا كان متسقا، عليه ان يتخلى عن اعتقاده الديني) فالعلم والايمان متضادان بصورة مطلقة .

٢ ـ الوجه الثاني للسؤال :

المادية والفعل : اذا كان صحيحا ان المادي الحقيقي هو الذي يطبق الصيغة التي هي في اساس هذه الفلسفة اينما كان وفي جميع الحالات ، فعليه اذن الانتباه لتطبيقه جيدا .

وكما رأينا للتو الى يجب ان نكون متسقين ، وليكون الانسان مادياً متسقاً يجب ان ينقل المادية الى الفعل.

ولكي يكون الانسان ماديا في الممارسة ، عليه ان يعمل بصورة مطابقة للفلسفة ، معتبرا الواقع العامل الاول والاهم ، والفكر العامل الثاني .

وسنرى ما هي المواقف التي يتخذها هؤلاء الذين ، على غير علم منهم ، يأخذون الفكر كعامل اول وهم في ذلك مثاليون دون ان يدروا .

أ ـ ماذا نسمي ذاك الذي يعيش كأنه وحيد في العالم؟ الفرداني. انه يعيش منطويا على نفسه، العالم الخارجي لا يوجد الا بالنسبة له. المهم بالنسبة اليه نفسه هو وفكره. انه مثالي صرف او ما نسميه مثالي وحداني (راجع شرح هذه الكلمة في القسم الاول ، الفصل الثاني)

الفرداني هو انسان اناني، وان يكون الانسان انانيا ليس موقفا ماديا. فالاناني يجعل حدود العالم داخل شخصه الخاص.

ب ـ ذاك الذي يتعلم للذة التعلم ، كهاو، ولا يجد صعوبة في الفهم ، لكنه يحفظ هذا لنفسه فقط ، يعلق الاهمية الاولى على نفسه وفكره .

المثالي هو مغلق على العالم الخارجي، على الواقع . المادي هو منفتح دائما على

الواقع : لذلك على الذين يتابعون دراسة الماركسية ويتعلمون بسرعة ان يحاولوا نقل ما تعلموه.

ج ـ ذاك الذي يفكر حول جميع الاشياء انطلاقا من ذاته ، يخضع لتشويه مثالي.

سيقول مثلا عن اجتماع قيل فيه اشياء غير مستحبة بالنسبة له ، «ان هذا الاجتماع سيء». لا يجوز ان تحلل الاشياء هكذا، يجب الحكم على الاجتماع بالنسبة لتنظيمه، لهدفه ، وليس بالنسبة لذاتنا نحن.

د ـ التزمت العقائدي ليس «موقفاً مادياً هو الآخر لأن المتزمت يفهم المشاكل، ولانه متفق مع ذاته ، يزعم ان على الآخرين ان يكونوا مثله. المتزمت هو ايضاً الذي يعطي الاهمية الاولى لنفسه ، او لشيعة معينة .

هـ ـ المذهبي ، الذي درس النصوص ، واستخلص منها تعريفات ، هو ايضاً مثالي عندما يكتفي بايراد النصوص المادية عندما يعيش فقطمع نصوصه لان العالم الواقعي يختفي آنذاك . فيعيد هذه الصيغ بدون ان يطبقها في الواقع . ويعطي الاهمية الاولى للنصوص والافكار . الحياة نفسها تجري في وعيه بشكل نصوص. ونستخلص عموما ان المذهبي ايضا هو متزمت عقائدي.

ان الاعتقاد بان الثورة هي مسألة تربية ، والقول انه ان شرحنا ضرورة الثورة للعمال « مرة واحدة بشكل جيد » فان ذلك يكفي ان يفهموا وانه اذا لم يريدوا الفهم ليس مهما محاولة تحقيق الثورة . هذا ايضا تزمت عقائدي وليس موقفاً ماديا .

يجب علينا ان نلاحظ الحالات التي لا يفهم فيها الناس ، ان نبحث لماذا يكون الامر كذلك ، ان نلاحظ القمع ، دعاية الصحف البورجوازية ، الراديو ، السينما الخ . . ونفتش عن الطريق الممكنة لايصال ما نريد بواسطة المنشورات والكتيبات والصحف والمدارس الخ . . .

ان لا نملك الاحساس بالوقائع ، ان نعيش في القمر ، وعملياً ان نضع التصاميم بدون ان نأخذ في الاعتبار الاوضاع والوقائع ، ذلك اتجاه مثالي يعلق الاهمية الاولى على المشاريع الجميلة دون الانتباه الى : هل هي قابلة للتحقيق ام لا . اولئك الذين ينتقدون بصورة متصلة ولا يفعلون شيئاً لكي تجري الامور

بشكل افضل اذ لا يقترحون اي علاج ، واولئك الذين يفتقرون الى الحس النقدي تجاه ذواتهم ، جميع هؤلاء هم ماديون غير متسقين .

٤ ـ خلاصة :

نحن نرى في هذه الامثلة ان العيوب التي نلاحظها قليلا او كثيرا في كل منا ، هي عيوب مثالية. نحن مصابون بها لاننا نفصل النظرية عن الممارسة ولان البورجوازية التي تأثرنا بها ، تود ان لا نعلق اهمية على الواقع . فبالنسبة للبورجوازية ، التي تدعم المثالية ، النظرية والممارسة هما شيئان مختلفان كليا وليس بينهما اية علاقة .

هذه العيوب هي اذن مضرة وعلينا محاربتها ، لانها في نهاية المطاف تفيد البورجوازية . بايجاز، علينا ان نلاحظ ان هذه العيوب التي ولدها فينا المجتمع بواسطة الاسس النظرية لتربيتنا ولثقافتنا المتجذرة في طفولتنا ، هي من عمل البورجوازية وعلينا التخلص منها .

الفصل الثالث

تاريخ المادية

درسنا حتى الآن ما هي المادية بصورة عامة ، وما هي الافكار المشتركة لدى جميع الماديين . سنرى الآن كيف تطورت المادية منذ القدم حتى بلـوغ المادية الحديثة . بايجاز سنتتبع بسرعة تاريخ المادية .

ليس في نيتنا تفسير ٢٠٠٠ سنة من تاريخ المادية في صفحات قليلة ؛ نريد فقط ، اعطاء بعض التوجيهات العامة التي ستوجه القراء .

ولكي ندرس جيدا هذا التاريخ ، ولو بصورة مختصرة ، من الضروري ان نرى في كل لحظة لماذا جرت الاشياء على هذا النحو . وإن عدم ايراد بعض الاسماء التاريخية أقل سوءاً من عدم تطبيق هذا المنهج . لكن مع حرصنا على ان لا

نزحم ادمغة قرائنا، نعتقد انه من الضروري تسمية الفلاسفة الماديين الرئيسيين المعروفين قليلا او كثيرا من القراء حسب التسلسل التاريخي .

لذلك ، واختصارا للعمل ، سنخصص الصفحات الاولى للجانب التاريخي المحض ، ثم ، في القسم الثاني من هذا الفصل ، سنرى لماذا خضع تطـور المادية لهذا الشكل من النمو الذي عرفه .

١ ـ ضرورة درس هذا التاريخ :

البرجوازية لا تحب تاريخ المادية . ولذلك فان هذا التاريخ المدرسي في الكتب البورجوازية هو تاريخ غير كامل البته وخاطيء دائما . وتستعمل فيه مختلف عمليات التزوير .

١ ـ انها تذكر المفكرين الماديين الكبار ، ما دامت غير قادرة على تجاهلهم ، وتتحدث عن كل ما كتبوا ، الا عن دراساتهم المادية ، وتنسى القـول انهـم فلاسفة ماديون .

هنـاك الكثـير من حالات النسيان هذه في تاريخ الفلسفـة كما يدرس في الثانويات او في الجامعات ، وسنورد « ديدرو » كمثل على ذلك ، ديدرو الذي كان اكبر فيلسوف مادي قبل ماركس وانجلس .

٢ ـ كان هناك العديد من المفكرين عبر التاريخ الذين كانوا ماديين دون ان يدروا ، او كانوا غير متسقين . اي انهم كانـوا ماديين في بعض كتاباتهـم ، ومثاليين في البعض الآخر : ديكارت مثلا .

والحال ان التاريخ الذي كتبته البورجوازية يترك في الظل ليـس فقط كل ما اثر في المادية عند هؤلاء المفكرين ، بل وايضا كل ما ادى الى ولادة تيار بكامله في هذه الفلسفة .

٣ ـ بعد ذلك ، اذا لم تنجح هاتـان العمليتان في التـزوير لتمـويه بعض المؤلفين ، فانهم يطمسـون بكل بساطة .

هكذا يدرس تاريخ الادب والفلسفة في القـرن الثامـن عشر « بتجاهـل » دولباخ (D'holbach) وهلفيتيوس (Helvétius) ، اللـذين كانـا مفـكرين

كبيرين في هذه الحقبة .

لماذا الامر كذلك ؟ لان تاريخ المادية هو تاريخ يعلّم بصورة خاصة معرفة مشاكل العالم وفهمها ؛ وكذلك لان نمو المادية مضر بالايديولوجيات التي تدعم امتيازات الطبقات الحاكمة

هذه هي الاسباب التي دعت البورجوازية لتقديم المادية كمذهب متحجر لم يتغير منذ عشرين قرنا ، بينما كانت المادية على العكس شيئا حيا ودائم الحركة .

« ولكن المادية ، شأنها شأن المثالية ، قد مرت بعدة مراحل من التطور . فعند كل اكتشاف يفتح عهدا جديداً في ميدان العلوم الطبيعية ، كان ينبغي على المادية ان تغير شكلها »[1] .

نفهم الآن بصورة افضل ضرورة دوس تاريخ المادية هذا ولو بايجاز . وللقيام بهذا العمل علينا ان نميز مرحلتين :

١ ـ من المنشأ (عصور الاغريق القديمة) حتى ماركس وإنجلس .

٢ ـ من مادية ماركس وانجلس حتى ايامنا هذه . (سندرس القسم الثاني مع المادية الديالكتيكية)

نسمي المرحلة الاولى « مادية ما قبل الماركسية » ، والثانية « المادية الماركسية » او « المادية الديالكتيكية » .

٢ ـ المادية الما قبل الماركسية :

أ ـ عصور الاغريق القديمة .

نذكر ان المادية مذهب ارتبط ارتباطا دائما بالعلوم وتطور وتقدم معها . وعندما ابتدأت العلوم تظهر مع « الفزيائيين » في عصور الاغريق القديمة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، تكون في ذلك الوقت تيار مادي جذب اليه افضل المفكرين والفلاسفة في ذلك العصر (طاليس ، اناكسيمنس

١ ـ فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ـ دار التقدم ص ٢٥ ـ ٢٦

وهيراقليطس) . هؤلاء الفلاسفة الاول سيكونون كما قال انجلس : « ديالكتيكيين بالطبع » لقد ادهشتهم واقعة اننا نصادف الحركة والتغير في كل مكان ، وان الاشياء ليست منعزلة ، ولكنها مرتبطة بصورة وثيقة بعضها ببعض . .

قال هيراقليطس الذي نسميه « ابا الديالكتيكية » :

« لا شيء جامد ، كل شيء يسيل ، ولا نستحم ابدا في النهر ذاته مرتين ، لانه في لحظتين متتاليتين لا يكون ابدا هو نفسه ، لقد تغير من لحظة الى اخرى واصبح آخر » .

وكان هيراقليطس اول من حاول تفسير الحركة والتغير ، ورأى في التناقض اسباب تطور الاشياء .

فتصورات هؤلاء الفلاسفة الاول كانت تصورات صائبة ، ومع ذلك اهملت لانها تشكو من كونها مصاغة قبليا ، بمعنى ان حالة العلوم في تلك الحقبة لم تكن تسمح باثبات ما قدموه . من جهة اخرى لم تكن قد تحققت بعد الظروف الاجتماعية الضرورية لازدهار الديالكتيك (وسنرى فيما بعد ما هي هذه الظروف) .

ولم تتحقق الظروف (الاجتماعية والذهنية) فتتيح للعلوم اثبات صحة الديالكتيك الا في زمن متاخر جدا ، في القرن التاسع عشر .

وكان لدى فلاسفة يونانيين آخرين تصورات مادية : وقد ناقش لوسيب (القرن الخامس عشر قبل الميلاد) الذي كان معلم ديمقريطس ، مشكلة الذرات هذه التي اقام نظريتها ديمقريطس .

وابيقور (٣٤١ ـ ٢٧٠ قبل الميلاد) من اتباع ديمقريطس ، هو مفكر كبير زورت الكنيسة فلسفته كليا في القرون الوسطى . فقد قدمت الكنيسة المذهب الابيقوري كرها بالمادية ، كمذهب لا اخلاقي جذريا ، كتبرير للانفعالات الاكثر خسة . لقد كان ابيقور في الواقع ناسكا وفلسفته تهدف لاعطاء الانسانية اساسا علميا (اذن لا ديني) .

جميع هؤلاء الفلاسفة كانوا يعون ان الفلسفة مرتبطة بمصير الانسانية. ونلاحظ هنا معارضتهم للنظرية الرسمية ، ومعارضتهم للمثالية*.

لكن مفكراً كبيرا سيطر على العصور الاغريقية القديمة ، هو ارسطو ، كان بالاحرى مثاليا . وكان تأثيره كبيرا بصورة خاصة . فقد اقام لائحة المعارف البشرية في هذا العصر وسد ثغراتها التي خلفتها العلوم الجديدة . وهو ذو ذهن كليّ ، وضع كتبا عديدة في جميع المواضيع . وبشمولية معرفته ، التي لم يحفظ منها الا الميول المثالية ، واهملت فيها المظاهر المادية والعلمية ، كان له تأثير كبير على تصورات الفلاسفة حتى نهاية العصور الوسطى ، اي خلال عشرين قرنا .

خلال هذه المرحلة كلها ، اتبع التقليد القديم ، ولم يفكر احد الا من خلال ارسطو . وكان الذين يفكرون بطريقة اخرى يقمعون بوحشية . وبالرغم من كل هذا ، وحوالي نهاية القرون الوسطى ، نشب صراع بين المثاليين الذين كانوا ينكرون المادة ، واولئك الذين كانوا يعتقدون بوجود واقع مادي .

ففي القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، تتابع هذا الخصام في فرنسا وخاصة في انكلترا .

في البداية ، نمت المادية بصورة رئيسية في انكلترا. يقول ماركس : « المادية هي الابنة الحقيقية لبريطانيا العظمى »(٢)

بعد ذلك بقليل ازدهرت المادية في فرنسا . على كل حال نرى في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ظهور تيارين : احدهما المادية الانجليزية ، والآخر المادية الفرنسية ، اللتان ادت وحدتهما الى ازدهار المادية العظيم في القرن الثامن عشر .

* ـ وفي الاصل الفرنسي يوجد : ومعارضتهم للمادية وقد رأينا في ذلك خطأ مطبعياً.

٢ ـ Marx- Engels. La Sainte Famille in Etudes Philosophiques — E.S. 1961

ب ـ المادية الانجليزية :

اما الاب الحقيقي للمادية الانجليزية ولكل علم تجريبي حديث فهو بيكون . ان علم الطبيعة عنده هو العلم الصحيح . والفيزياء القائمة على تجربة الحواس ، هي الجزء الاشرف و« القسم الأهم في علم الطبيعية »٣ .

اشتهر بيكون كمؤسس للمنهج التجريبي في دراسة العلوم ، وكان المهم عنده هو دراسة العلم في « كتاب الطبيعة الكبير ». وذاك امر مثير للاهتمام خاصة في عصر درست فيها العلوم في الكتب التي خلفها ارسطو قبل ذلك بعدة قرون .

فلدراسة الفيزياء مثلا ، اليكم كيف كانوا يتصرفون : في موضوع معين تؤخذ المقاطع التي كتبها ارسطو ، ثم تؤخذ كتب القديس توما الا كويني ، الذي كان لاهوتيا كبيرا ، ويقرأ ما كتبه بالنسبة لمقطع ارسطو . ولا يقوم الاستاذ باي تعليق شخصي ، وكان يقول اقل مما يفكر به ايضا ، ولكنه كان يرجع الى مؤلف ثالث يعيد ارسطو والقديس توما . هكذا كان العلم في العصور الوسطى ، هذا العلم الذي دعي السكولائية : كان علما كتبيا ، لانهم كانوا يدرسون فقط في الكتب .

انتفض بيكون ضد هذه السكولائية ، ضد هذا التعليم المتحجر ، داعيا للدراسة في « كتاب الطبيعة الكبير » .

وقد طرح في هذا العصر السؤال التالي :

عم تتأتى افكارنا ؟ عم تتأتى معارفنا؟ إنّ لكل منا افكاره ، فكرة البيت مثلا . يقول الماديون : ان هذه الفكرة تأتينا لان البيوت موجودة . ويظن المثاليون ان الله هو الذي اعطانا فكرة البيت.

بيكون هو الآخر كان يقول مؤكدا ان الفكرة لا توجد الا لاننا نرى او نلمس الاشياء ولكنه لم يستطع اثبات ذلك .

٣ ـ قارن انجلس : الاشتراكية الطوباوية الاشتراكية العلمية ، دار التقدم ص ٩

ولوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) هو الذي شرع بتبيان كيف تتأتى الافكار من التجربة . فبين ان جميع الافكار تتأتى من التجربة وان التجربة وحدها تعطينا الافكار . ففكرة الطاولة الاولى تأتت للانسان حتى قبل ان توجد لانه بالتجربة استخدم في السابق حجرا او جذع شجرة بوصفه طاولة .

مع افكار لوك ، انتقلت المادية الانكليزية الى فرنسا في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، لانه خلال تطور هذه الفلسفة في انكليترا بشكل خاص ، تكون تيار مادي في فرنسا .

ج - المادية في فرنسا :

نستطيع ان نحدد بوضوح ابتداء بديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ولادة تيار مادي في فرنسا . ولقد كان لديكارت تأثير كبير على هذه الفلسفة ولكن لا يحكى عن هذا التأثير بصورة عامة !

في هذه الحقبة ، التي كانت الايديولوجية الاقطاعية فيها حية جدا حتى في العلوم ، هذه العلوم التي كانت تدرس بالاسلوب السكولاتي الذي رأيناه ، دخل ديكارت في صراع مع هذا الأمر الواقع .

ان الايديولوجية الاقطاعية مصطبغة بالعقلية الدينية . فهي تعتبر ان الكنيسة ، ممثلة الله على الارض ، تحتكر الحقيقة . وينتج عن ذلك انه لا يستطيع اي انسان ان يدعي الحقيقة اذا لم يخضع فكره لتعاليم الكنيسة . لقد هفّت ديكارت هذا التصور . وبالطبع هو لم يهاجم الكنيسة ككنيسة ، لكنه جاهر بجرأة ان كل انسان ، مؤمنا كان ام غير مؤمن ، يستطيع الوصول الى الحقيقة بتمرين عقله ، «النور الطبيعي».

ففي مطلع كتابه «القول في المنهج» يعلن ديكارت : « العقل السليم هو في العالم الشيء الافضل توزيعا » . وبالتالي فان كل واحد يتمتع بالحقوق نفسها امام العلم . وهو اذا انتقد مثلا طب عصره انتقادا جيدا (المريض الوهمي لموليير هو صدى انتقادات ديكارت) فلأنه يريد ان يحقق علما يكون علما حقيقيا ، قائما على دراسة الطبيعة ، رافضا العلم المدرسي حتى ايامه ، حيث كان ارسطو وتوما الاكويني « الحجج » الوحيدة .

كان ديكارت يعيش في بداية القرن السابع عشر ، وفي القرن التالي كانت الثورة ستندلع ، ولذلك نستطيع القول انه يخرج من عالم يحتضر ليدخل في عالم جديد ، في العالم الذي سيولد . هذا الوضع جعل من ديكارت توفيقيا ، فهو يريد خلق علم مادي وفي الوقت نفسه هو مثالي لانه يريد خلاص الدين .

وعندما كان يسأل في عصره ، لماذا يوجد حيوانات تعيش ؟ كان يجاب وفق الاجابة اللاهوتية الجاهزة : لان هناك مبدأ يجعلها تعيش . على العكس من ذلك دعم ديكارت القول بأن قوانين الحياة الحيوانية هي بكل بساطة قوانين مادية وقد اعتقد واكد ان الحيوانات ليست شيئا آخر غير آلات من لحم وعضل ، كما ان باقي الآلات هي من حديد وخشب . كان يظن ان هذه او تلك لا تملك احساسات ، وعندما كان الناس المنتسبون لفلسفته يخزون الكلاب خلال اسابيع الدراسة في دير بورروريال كانوا يقولون « لله كم هي حسنة الصنع هذه الطبيعة حتى لكأنها (كلاب) تتألم . . . »

في نظر ديكارت المادي ، كانت الحيوانات اذن آلات ، لكن الانسان كان مختلفا ، لانه يملك نفسا كما يقول ديكارت المثالي . . .

من هذه الافكار التي طورها ودافع عنها ديكارت سيتولد تيار فلسفي مادي واضح من جهة ، ومن جهة اخرى تيار مثالي .

بين هؤلاء الذين يكملون الفرع الديكارتي المادي نذكر لاماتري (١٧٠٩ - ١٧٥١) الذي يستعيد هذه الاطروحة عن الحيوان - الآلة ويمدها حتى تشمل الانسان . لماذا لا يكون الانسان آلة ؟ . . النفس البشرية نفسها ، يراها كآلة ، حيث الافكار هي حركات ميكانيكية .

في هذه الحقبة دخلت المادية الانكليزية الى فرنسا مع افكار لوك . ومن التقاء هذين التيارين ستتولد مادية اكثر تطورا . وهذا سيكوّن ،

د - مادية القرن الثامن عشر :

دافع عن هذه المادية فلاسفة عرفوا ايضا ان يكونوا مقارعين ، وكتابا مدهشين : كانوا ناقدين للمؤسسات الاجتماعية والدين بصورة متصلة ، مطبقين النظرية في الممارسة ، وكانوا في صراع دائم مع السلطة ، فسجنوا احيانا

في الباستيل ، او في فانسين .

هؤلاء هم الذين جمعوا اعمالهم في الموسوعة الكبيرة التي ثبتوا فيها الاتجاه الجديد للمادية . وقد كان لهم تأثير كبير لأن هذه الفلسفة ، كما يقول انجلس كانت « قناعات الشبيبة المثقفة بأسرها » . .

وكانت هذه هي الحقبة الوحيدة في تاريخ الفلسفة في فرنسا حيث اصبحت فلسفة ذات خصائص فرنسية ، فلسفة شعبية حقا .

ويهيمن ديدرو ، المولود في لانجر في السنة ١٧١٣ ، والمتوفي في باريس في السنة ١٧٨٤ ، على كل هذه الحركة . وما يجب قوله قبل كل شيء وما لا يقوله التاريخ البورجوازي ، انه كان اكبر مفكر مادي قبل ماركس وانجلس . فقد قال لينين ان ديدرو توصل تقريبا الى خلاصات المادية المعاصرة (الديالكتيكية) .

كان مناضلا حقا ، في معركة دائمة ضد الكنيسة ، ضد الحالة الاجتماعية ، وعرف السجون . والتاريخ الذي كتبته البورجوازية المعاصرة طمسته كثيرا ولكن يجب قراءة محاورات ديدرو ودالمبار وحفيد رامو وجاك القدري لنفهم تأثير ديدرو الضخم على المادية[4] .

ونلاحظ تأخر المادية في النصف الاول من القرن التاسع عشر بسبب الحوادث التاريخية . فبرجوازية جميع البلدان قامت بدعاية كبرى لمصلحة المثالية والدين ، لانها ليس فقط لم تعد تريد انتشار الافكار التقدمية (المادية) ، بل صارت بحاجة ايضا لتنويم المفكرين والجماهير حتى تبقى في السلطة .

وفي اثناء ذلك نرى في المانيا ان فيورباخ يؤكد وسط جميع الفلاسفة المثاليين قناعاته المادية : معلنا من جديد وبكل صراحة ، انتصار المادية »[5] .

4 - Voir dans la collection « des classiques du peuple » aux Editions Sociales les textes publiés de Diderot (6 vol.), D'holbach Hélvetius, La Mettrie et Morelly et dans une certaine mesure ceux de Rousseau et de Voltaire.

٥ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ١٧

واذ يطور فيورباخ نقد الدين بصورة رئيسية ، يستعيد بشكل سليم ومعاصر اسس المادية المنسية ، فيؤثر هكذا في فلاسفة عصره .

ونصل الى هذه الحقبة من القرن التاسع عشر حيث نلاحظ التقدم في العلوم ينجم بشكل خاص عن الاكتشافات الكبيرة الثلاثة : الخلية الحية ، تحول الطاقة ، التطور (داروين) ، هذه الاكتشافات التي ستتيح لماركس وانجلس ، المتأثرين بفيورباخ ان يطورا المادية ليعطيانا المادية الحديثة او الديالكتيكية .

رأينا للتو ، وبشكل مختصر تماما ، تاريخ المادية قبل ماركس وانجلس . ونعرف ان هذين ، وان اتفقا مع الماديين الذين سبقوهم في عدة نقاط مشتركة ، الا انهم يريان ان اعمال هؤلاء انما تنطوي ، على العكس من ذلك ، على اخطاء وثغرات عديدة .

ولفهم التحولات التي احدثاها في مادية ما قبل الماركسية ، اصبح ضروريا بصورة مطلقة اذن ان نبحث عن هذه الاخطاء والثغرات ، ولماذا كان الامر كذلك .

• • •

بكلام آخر نقول ان دراستنا لتاريخ المادية ، بعد ان عددنا مختلف المفكرين الذين ساعدوا على تقدمها ، سيكون ناقصا اذا لم نحاول معرفة كيف حدث هذا التطور ومعنى هذا الحدوث ولماذا خضعت المادية لهذا الشكل من التطور او ذاك .

ونهتم بصورة خاصة بمادية القرن الثامن عشر ، لانها نقطة الوصول لمختلف التيارات في هذه الفلسفة .

سندرس اذن اخطاء هذه المادية وثغراتها ، ولكن ، بما انه يجب ان لا نرى الاشياء بشكل احادي الجانب ، بل على العكس يجب ان نراها بمجملها ، فاننا سنشير ايضا الى ما ملكت من حسنات .

لم تستطيع المادية الديالكتيكية في بدايتها ، اكمال تطورها على هذه

الاسس ، فقد اهمل التعليل الديالكتيكي بسبب عدم كفاية المعارف العلمية وكان من الواجب اولا خلق العلوم وتطويرها .

« يجب اولا معرفة ما هو هذا الشيء المعني او ذاك ، قبل التمكن من دراسة السيرورات »[6] .

فالوحدة الوثيقة بين المادية والعلوم هي التي ستتيح لهذه الفلسفة ان تصبح من جديد وعلى اسس اكثر صلابة وعلمية ، المادية الديالكتيكية مادية ماركس وانجلس .

سنجد اذن عملية ولادة المادية جنبا الى جنب مع عملية ولادة العلم . لكن ، اذا كنا نعرف من اين تتأتى المادية دائما ، فان علينا ايضا ان نحدد من اين تأتي المثالية .

٣ ـ مم تتأتى المثالية :

لئن استطاعت المثالية ان توجد عبر التاريخ الى جانب الدين ولئن سمح لها الدين بهذا الوجود وصادق عليه ، فلأنها في الحقيقة ولدت من الدين ونجمت عنه . ونجمت عنه .

ولقد كتب لينين ، في هذا الموضوع ، عبارة يجب دراستها : « المثالية ليست سوى صورة مهذبة ومنفاة للدين » ، ماذا يعني هذا ؟ ـ انه يعني الآتي:

ان المثالية تعرف ان تقدم تصوراتها بصورة اكثر مرونة بكثير من الدين . فالادعاء بان الكون خلق بواسطة روح ترف فوق الظلمات وان الله لا مادي ، ثم الاعلان فجأة ، كما يفعل الدين ، انه يتكلم (بكلمة الله) وان له ولدا (يسوع) ، إنْ هو إلاّ مجموعة من الافكار المقدمة بصورة فجة . فالمثالية وهي تؤكد ان العالم لا يوجد الا في فكرنا ، وفي ذهننا ، تقدم نفسها بشكل اكثر تخفيا . وفي الواقع ، نحن نعرف ان النتيجة واحدة في الاساس ، اما الشكل فهو اقل فظاظة واكثر لباقة ! ولذا فان المثالية هي شكل مهذب من اشكال الدين .

٦ ـ قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٩

المثالية منقاة ايضا لان الفلاسفة يجيدون التنبوء بالاسئلة في المناقشات ، ويجيدون نصب الافخاخ كما فعل فيلونوس بالمسكين هيلاس في محاورات باركلي .

ولكن القول : ان المثالية تتأتى من الدين هو مجرد تأخير للمشكلة ويجب علينا ان نتساءل فورا :

٤ ـ مم يتأتى الدين :

ان انجلس قد اعطانا جوابا واضحا جدا في هذا الموضوع : « ولد الدين من تصورات الانسان المحدودة » .

هذا الجهل مزدوج بالنسبة للناس الاولين : جهل الطبيعة ، وجهل انفسهم . ويجب التركيز على هذا الجهل المزدوج عندما ندرس تاريخ الناس البدائيين .

ففي عصور الاغريق القديمة التي نعتبرها مع ذلك حضارة متقدمة ، يظهر هذا الجهل لنا طفوليا ، وذلك مثلا عندما نرى ان ارسطو ظن ان الارض ثابتة ، وانها مركز العالم ، وحولها تدور الكواكب (هذه الكواكب التي رآها مثبتة كمسامير في سقف ، عددها ٤٦ ، وهذا الكل هو الذي يدور حول الارض . .)

وقد اعتقد اليونان ايضا بوجود اربعة عناصر : الماء ، الارض ، الهواء ، النار ، وظنوا انه من غير الممكن تجزئتها . نحن نعلم ان كل ذلك خطأ ، ما دمنا الآن نجزىء الماء والارض والهواء ، ولا نعتبر النار جسما من الرتبة نفسها .

وكان اليونانيون ايضا في جهل كبير عن الانسان نفسه ، ماداموا لا يعرفون وظيفة اعضائنا ، ويعتبرون مثلا ان القلب هو مقر الشجاعة !

فاذا كان جهل علماء اليونان كبيرا الى هذا الحد ، هؤلاء الذين نعتبرهم متقدمين ، فماذا يكون جهل الناس الذين عاشوا آلاف السنين قبلهم ؟

ان التصورات التي امتلكها الناس البدائيون عن الطبيعة وعن انفسهم كان يحدها الجهل ، لكن هؤلاء الناس حاولوا رغم كل شيء ان يفسروا الاشياء .

كل ما نملك من وثائق عن الناس البدائيين يشير الى انشغالهم بالاحلام ، وقد رأينا في الفصل الاول كيف حلوا مسألة الاحلام هذه باعتقادهم بالوجود « المزدوج » للانسان وفي البدء اضفوا على هذا المزدوج نوعا من الجسد الشفاف الخفيف ، ذي كثافة مادية ايضا ، ولم يتولد في اذهانهم الا بعد ذلك بزمن طويل التصور بأن الانسان يملك مبدأ لا ماديا يحيا بعد الموت ، مبدأ روحيا (كلمة مشتقة من كلمة روح ، التي تعني النفحة في اللاتيني ، النفحة التي تذهب مع آخر نفس ، في اللحظة التي تستعاد في النفس ، وحيث « المزدوج » وحده مستمر) وهكذا فالنفس ، هي التي تشرح الفكر ، والحلم .

وفي القرون الوسطى كانت لديهم تصورات غريبة عن النفس ، ظن ان في الجسم السمين نفس رقيقة ، وفي الجسم النحيل نفس كبيرة ، لذلك كان النساك يقومون بصيامات متعددة وطويلة في تلك الحقبة حتى يملكوا نفسا كبيرة ، ويحققوا مسكنا كبيرا للنفس .

وبما ان الناس البدائيين سلموا ببقاء الانسان بعد الموت بصورة المزدوج الشفاف ، ثم بصورة النفس كمبدأ روحي ، فقد خلقوا الالهة .

وباعتقادهم بوجود كائنات اكثر قدرة من الناس ، موجودة على شكل ما يزال مادياً ، توصلوا لا شعوريا الى الاعتقاد بالهة متعددة موجودة على شكل نفس ارقى من نفسنا . وهكذا ، وبعد ان خلقوا حشدا من الالهة لكل منها وظيفة محددة ، كما هو الشأن في عصور الاغريق القديمة ، توصلوا الى هذا التصور للاله الواحد . وعندها خلق الدين الموحد الحالي . نرى ، بذلك ، ان الجهل كان في اصل الدين ، حتى في شكله الحالي .

لقد ولدت المثالية اذن من تصورات الانسان المحدودة ومن جهله ، بينما ولدت المادية ، على العكس ، من تراجع هذه الحدود .

وسنشهد ، عبر تاريخ الفلسفة ، هذا الصراع المتواصل بين المثالية والمادية ، فهذه تعمل على تراجع حدود الجهل ، وسيكون ذلك احد امجادها واحدى حسناتها؛ وعلى العكس من ذلك ، فالمثالية والدين الذي يغذيها ، يبذلان كل جهودهما لحفظ الجهل والاستفادة من جهل الجماهير لجعلها تقبل القمع والاستغلال الاقتصادي والاجتماعي .

٥ ـ حسنات المادية الما قبل الماركسية :

رأينا ولادة المادية عند اليونان منذ وجدت العلوم بشكل جنيني . ووفقا لهذا المبدأ : تتطور المادية عندما يتطور العلم ونلاحظ عبر التاريخ ما يلي :

١ ـ في العصور الوسطى ، تطور ضعيف للعلوم ، توقف للمادية .

٢ ـ في القرنين السابع عشر والثامن عشر تطور كبير للعلوم يقابله تطور كبير للمادية . فالمادية الفرنسية في القرن الثامن عشر هي النتيجة المباشرة لتطور العلوم .

٣ ـ في القرن التاسع عشر ، نشهد اكتشافات كبيرة وعديدة ، والمادية تخضع لتحول كبير مع ماركس وانجلس .

٤ ـ في الوقت الحاضر ، تتقدم العلوم بصورة كبيرة وفي الوقت نفسه تتقدم المادية . ونرى افضل العلماء يطبقون في اشغالهم المادية الديالكتيكية .

فالمثالية والمادية لهما اذن اصول متعارضة تماما . ونلاحظ عبر القرون صراعا بين هاتين الفلسفتين ، صراعا لا يزال مستمراً حتى ايامنا هذه ، صراعاً اكاديميا فقط .

هذا الصراع ، الذي يخترق تاريخ الانسانية ، هو الصراع بين العلم والجهل ، هو الصراع بين تيارين . احدهما يجذب الانسانية نحو الجهل ويثبتها فيه والآخر على عكسه ، يطمح الى تحرير الناس محلا العلم محل الجهل .

وقد ارتدى هذا الصراع في بعض الاحيان اشكالا خطرة ، كما هو الحال في زمن « محاكم التفتيش » حيث نستطيع ان نأخذ مثلا ، بين امثلة اخرى ، غاليلي . لقد اكد غاليلي ان الارض تدور . وهذه معرفة جديدة تناقض التوراة وتناقض ارسطو : فاذا كانت الارض تدور فمعنى ذلك انها ليست مركز العالم ، بل هي ببساطة نقطة في العالم ، وعندئذ علينا ان نوسع حدود افكارنا . ما العمل اذن امام هذا الاكتشاف لغاليلي.

لابقاء البشرية في الجهل اسسوا محكمة دينية وحكم على غاليلي بتقديم جزاء

مشرف[٧]. ذاك مثل من الصراع بين الجهل والعلم .

علينا اذن ان نحكم على الفلاسفة والعلماء في هذه الحقبة في ضوء موقعهم من صراع الجهل هذا ضد العلم ، ونستنتج انهم بدفاعهم عن العلم دافعوا عن المادية دون ان يدروا هم انفسهم ذلك . هكذا اعطى ديكارت بتعليلاته افكارا استطاعت ان تعمل على تقديم المادية .

يجب ان نلاحظ ان هذا الصراع لم يكن صراعا نظريا بسيطا عبر التاريخ . بل كان صراعا اجتماعيا وسياسيا . فالطبقات المسيطرة هي دائما بجانب الجهل في هذه المعركة . فالعلم هو ثوري ويساهم في تحرر الانسانية .

وحالة البورجوازية هي حالة نموذجية . ففي القرن الثامن عشر كانت البورجوازية خاضعة للاقطاع ، كانت في ذلك الوقت مع العلوم ، فقادت الصراع ضد الجهل واعطتنا الموسوعة[٨]. والبورجوازية هي الطبقة المسيطرة في القرن العشرين ، وهي مع الجهل في هذا الصراع بين العلم والجهل وبوحشية اكبر من السابق (انظروا الهتلرية) .

نحن نرى اذن ان المادية الماقبل الماركسية قد لعبت دورا كبيرا ، وكان لهذا الدور اهمية تاريخية كبيرة . وخلال هذا الصراع بين الجهل والعلم تطور تصور عام للعالم استطاع مواجهة الدين اي مواجهة الجهل . وبفضل تطور المادية ايضا وتتابع اعمالها ، تحققت الشروط الضرورية لتفتح المادية الديالكتيكية .

٦ ـ عيوب المادية الماقبل الماركسية :

لفهم تطور المادية ، ولرؤية عيوبها وثغراتها جيدا ، يجب ان لا ننسى لحظة واحدة ان المادية والعلم مرتبطان .

كانت المادية في البداية متقدمة على العلوم ، ولذلك لم تستطع هذه الفلسفة

٧ ـ حول محاكمة غاليلي راجع . Laberenne : l'origine des mondes (E.F.R.)

٨ ـ Voir pages choisies de l'encyclopedie « Les classiques du peuple », Editions Sociales.

تأكيد ذاتها دفعة واحدة . كان يجب ان تولد العلوم وتتطور للبرهان على ان المادية الديالكتيكية هي على حق ، ولكن ذلك تطلب اكثر من عشرين قرنا .

طوال هذه المرحلة الطويلة خضعت المادية لتأثير العلوم وبصورة خاصة لتأثير روح العلوم ، ولتأثير العلوم الجزئية الاكثر تطورا .

لذلك ، « فان مادية القرن المنصرم (اي القرن الثامن عشر) كانت قبل كل شيء مادية ميكانيكية ، لان الميكانيك ، ولا سيما علم الميكانيك المتعلق بالاجسام الصلبة (الارضية والسماوية) ميكانيك الجاذبية باختصار ، كان العلم الوحيد الذي وصل في ذلك الوقت ، من بين جميع العلوم الطبيعية ، الى بعض درجات الكمال . فالكيمياء ، كانت ما تزال في شكلها الطفولي الفلوجسطي[٩] . والبيولوجيا كانت ما تزال في القماط : العضوية النباتية والحيوانية لم تدرس الا في خطوطها الكبرى ، ولم تعلل الا باسباب ميكانيكية بحتة . والانسان ، برأي ماديي القرن الثامن عشر ، كان عبارة عن آلة ، كما كان الحيوان بنظر ديكارت »[١٠] .

هكذا كانت اذن المادية المنبثقة من تطور العلوم الطويل والبطيء بعد حقبة « شتوية للعصور الوسطى المسيحية » .

كان الخطأ الكبير في هذه الحقبة اعتبار العالم بمثابة آلة كبيرة، والحكم على كل شيء في ضوء قوانين هذا العلم الذي نسميه الميكانيك . فباعتبار الحركة مجرد حركة ميكانيكية كان يعتبر ان نفس الحركات يجب ان تعاد بصورة متواصلة . كأن يرى الجانب الميكانيكي للاشياء دون الجانب الحي . لذا نسمي هذه المادية «ميكانيكية».

لنأخذ مثلا على ذلك : كيف يشرح هؤلاء الماديون الفكر ؟ انهم يشرحونه كالآتي : « الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء » ! هذا امر تبسيطي نوعا

٩ ـ نظرية الفلوجسطين : هي نظرية مزيفة انتشرت في الكيمياء في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، واعتبرت ان الاحتراق يحدث بسبب وجود مادة خاصة في الاجسام هي الفلوجسطيون. (المترجمة)

١٠ ـ فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ـ ص ٢٦

ما ! ان مادية ماركس تغطي على العكس ، سلسلة من التوضيحات . افكارنا لا تتأتى فقط من الدماغ . علينا ان نرى لماذا نملك بعض الافكار وبعض القيم وليس غيرها، فنرى عندئذ ان المجتمع والبيئة . . تختار افكارنا . المادية الميكانيكية تعتبر الفكر مجرد ظاهرة ميكانيكية ، والحال انها اكثر من ذلك بكثير ! .

« فتطبيق اصول الميكانيك بهذا الشكل الحصري على الظاهرات التي هي من طبيعة كيماوية وعضوية ، حيث لا تزال قوانين الميكانيك تؤثر ، وحيث ابعدتها الى الصف الاخير قوانين اخرى ارفع ، هذا التطبيق انما يشكل نظرة ضيقة ، ولكن لا مفر منها في ذلك الوقت ، خاصة بالمادية الكلاسيكية الفرنسية »[11] .

هذا هو خطأ المادية الكبير في القرن الثامن عشر . نتج عن هذا الخطأ ان المادية كانت تجهل التاريخ بصورة عامة ، اي تجهل وجهة نظر التطور التاريخي للعملية : هذه المادية اعتبرت ان العالم لا يتطور وانه يعود في فترات منتظمة الى حالات مشابهة : ولم تتصور قط تطورا للانسان او للحيوانات

« اما النظرة الضيقة الخاصة الثانية لهذه المادية ، فتقوم في عجزها عن فهم العالم بوصفه حركة تطور ، بوصفه مادة تتطور تطورا تاريخيا متواصلا . وهذا ما كان يتفق ووضع العلوم الطبيعية في ذلك الوقت ، وطريقة التفكير الفلسفي الميتافيزيقية[12] ، أي المنافية للديالكتيك المرتبط بهذا الوضع .

ان الطبيعية في حركة دائمة : كان هذا معروفا في ذلك الحين ايضا . ولكن هذه الحركة ، حسب المفهوم المنتشر في ذلك العصر ، كانت تدور دائما ايضا في حلقة واحدة ، وعلى هذه الصورة ، بقيت من حيث الاساس ، في مكان واحد . انها ادت دائما الى النتائج نفسها »[13].

١١ ـ فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٢٦

١٢ ـ ميتافيزيقية : سنبدأ دراسة المنهج الميتافيزيقي في القسم التالي .

١٣ ـ فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٢٦ ـ ٢٧

ـ هو الخطأ الثاني للمادية الما قبل الماركسية .

الخطأ الثالث انها كانت تأملية جدا ، فلم تر بصورة كافية دور الفعل الانساني في العالم وفي المجتمع . مادية ماركس وانجلس تعلمنا انه ليس علينا تفسير العالم فقط بل تحويله . فالانسان هو عنصر فاعل يستطيع أن يحقق تغييرات في العالم .

ان عمل الشيوعيين الروس هو مثل حي لفعل قادر ليس فقط على تحضير الثورة وانجاحها ، بل وعلى اقامة الاشتراكية منذ ١٩١٨ وسط صعوبات هائلة .

هذا التصور لفعل الانسان لم تكن تعيه مادية ما قبل الماركسية . كان يظن في ذلك العصر ان الانسان هو نتاج الوسط (الاجتماعي) . بينما يعلمنا ماركس ان الوسط هو نتاج الانسان ، وان الانسان هو اذن نتاج نشاطه الخاص في بعض الظروف المعطاة بدءا . فهو وان خضع لتأثير الوسط ، يستطيع ان يغير الوسط والمجتمع ، وبالتالي ان يغير نفسه ايضا .

لقد كانت مادية القرن الثامن عشر اذن تأملية جدا ، لانها كانت تجهل التطور التاريخي لكل شيء ، وهذا كان لا مفر منه لان المعارف العلمية لم تكن متقدمة بما يكفي لتتصور العالم والاشياء بصورة مختلفة عن المنهج القديم في التفكير : الميتافيزيقيا .

للقراءة

ماركس وانجلس : « العائلة المقدسة »

ماركس : اطروحات حول فيورباخ .

ليخانوف : بحوث في تاريخ المادية (هولباخ ـ هلفيتيوس ـ ماركس)

القسم الثالث

دراسة الميتافيزيقيا

فصل وحيد

بم يتقوم المنهج الميتافيزيقي ؟

نحن نعلم ان اخطاء ماديي القرن الثامن عشر تتأتى من شكل محاكماتهم ، ومن منهجهم الخاص في البحث والذي سميناه « المنهج الميتافيزيقي » . فالمنهج الميتافيزيقي يعبر اذن عن تصور خاص للعالم ، وعلينا الملاحظة انه اذ نقابل المادية الما قبل الماركسية بالمادية الماركسية ، علينا ان نقابل المادية الميتافيزيقية بالمادية الديالكتيكية .

لذلك علينا الآن ان نتعلم ما هو هذا المنهج الميتافيزقي ، لنفحص فيما بعد ما هو عكس ذلك اي المنهج الديالكتيكي .

١ ـ سمات هذا المنهج :

ان ما سندرسه الآن هو هذا « المنهج القديم في البحث والتفكير التي يسميها

لنبدأ على الفور بملاحظة بسيطة . ما الذي يتراءى اكثر طبيعية لاكثر الناس: الحركة ام الجمود؟ ما الحالة العادية للاشياء بالنسبة لهم : التحرك ام السكون .

بصورة عامة يُظَنّ ان السكون وُجد قبل الحركة ، وان شيئا ما قد كان قبلاً في حالة سكون ، حتى استطاع ان يتحرك .

التوراة ايضا تخبرنا انه قبل الكون ، الذي خلقه الله ، وجدت الابدية الجامدة ، اي السكون .

هاكم كلمات نستعملها غالبا : سكون ، جمود ، وكذلك ، حركة وتغير . لكن الكلمتين الاخيرتين ليستا مترادفتين .

فالحركة بالمعنى الدقيق للكلمة هي النقلة . مثلا ان حجرا يقع وقطارا يسير هما في حركة .

التغير بالمعنى الحقيقي للكلمة : هو العبور من شكل الى آخر . مثلا : الشجرة التي تفقد اوراقها ، قد غيرت شكلها . كذلك هو العبور من حالة الى اخرى . مثلا : الهواء اصبح غير صالح للتنفس : هذا تغير .

اذن الحركة تعني تغيير المكان ، والتغيير يعني تغيير الشكل او الحالة . سنحاول احترام هذا التمييز لتجنب الالتباس (عندما سندرس الديالكتيك سنضطر لاعادة النظر في دلالة هذه الكلمات) .

لقد رأينا انه يظن بصورة عامة ، ان الحركة والتغير هما امران عاديان بدرجة اقل من السكون ، ومن المؤكد اننا نفضل اعتبار الاشياء ساكنة وبدون تغير .

مثلا : اشترينا زوجا من الاحذية الصفراء ، وبعد وقت معين ، وبعد اصلاحات متعددة (استبدال النعل ، الكعب ، الصاق قطع عديدة) نقول ايضا : « اريد ان احتذي حذائي الاصفر » ، بدون ان نأخذ في حسابنا انها ليست نفسها . بالنسبة لنا الحذاء هو دائما نفسه الحذاء الاصفر الذي اشتريناه

١ ـ فارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٩ .

في تلك المناسبة ودفعنا فيه ذاك الثمن . نحن لا نلاحظ ابدا التغير الذي طرأ على حذائنا ، هو ابدا نفسه ، هو هو . نهمل التغير ولا نرى الا الهوية كأن شيئا مهما لم يحصل البتة . وهذه هي :

أ ـ السمة الاولى للمذهب الميتافيزيقي ، مبدأ الهوية

يقوم على تفضيل الجمود على الحركة والهوية على التغير في مواجهة الاحداث .

من هذا التفضيل الذي يكون السمة الاولى لهذا المنهج ، ينتج تصور كامل للعالم . فيعتبر الكون كما لو كان متحجرا كما يقول انجلس . ويحصل الشيء نفسه بالنسبة للطبيعة وللمجتمع وللانسان . وهكذا يزعم غالبا : « لا جديد تحت الشمس » . هذا يعني انه لا يوجد اي تغيير منذ الازل ، الكون جامد وباق هو هو ، ويفهم بذلك ايضا رجوع دوري لنفس الاحداث . لقد خلق الله العالم بابداعه للاسماك والعصافير والثدييات الخ . . ومنذ ذلك الحين لم يتغير شيء ، لم يتحرك العالم . يقال ايضا « الناس هم دائما انفسهم » وكأن الناس لم يتغيروا منذ الازل .

هذه التعابير العادية هي انعكاس لهذا التصور الذي تجذر فينا بعمق ، في ذهننا وتستغل البورجوازية هذا الخطأ حتى النهاية .

عندما تنتقد الاشتراكية ، فان احدى الحجج التي تعطى بداهة هي ان الانسان اناني ومن الضروري تدخل قوة معينة لضبطه والا عمت الفوضى . هذه نتيجة للتصور الميتافيزيقي الذي يريد ان يملك الانسان طبيعة ثابتة لا يمكن ان تتغير .

من المؤكد انه لو كان بامكاننا ان نعيش فجأة في نظام شيوعي ، اي انه لو كان بامكاننا توزيع المنتجات فورا لكل حسب حاجاته ، وليس حسب عمله ، فسيكون هناك تدافع لاشباع النزوات ، ومجتمع كهذا لن يستطيع ان يصمد . ومع ذلك فهذا هو المجتمع الشيوعي وهذا هو ما هو عقلاني . ولكن ، ولاننا نملك تصورا ميتافيزيقيا متجذرا فينا ، نتمثل الانسان المستقبلي الذي سيعيش في مستقبل بعيد نسبيا كأنه هو هو إنسان اليوم.

وبالتالي فعندما نؤكد ان مجتمعا اشتراكيا او شيوعيا غير قابل للحياة لان الانسان اناني ، ننسى انه اذا تغير المجتمع ، سيتغير الانسان ايضا .

نسمع كل يوم انتقادات للاتحاد السوفياتي ، تبين لنا مصاعب الفهم عند اولئك الذين يصوغونها . هذا لانهم يملكون تصورا ميتافيزيقيا للعالم والاشياء .

وبين امثلة عديدة نستطيع ايرادها لنأخذ هذا المثل فقط : يقال لنا : « ان الشغيل في الاتحاد السوفياتي يقبض راتبا لا يساوي القيمة الكلية لما ينتج ، اذن هناك فائض قيمة ما ، اي اقتطاع ما من راتبه . اذن هو مسروق . في فرنسا العمال مستغلون ايضا ، ليس من فرق اذن بين شغيل سوفياتي وشغيل فرنسي » .

اين التصور الميتافيزيقي ، في هذا المثل ؟ انه يقوم في عدم اعتبار ان لدينا هنا نموذجين من المجتمعات ، وفي عدم اخذ الفروقات بين هذين المجتمعين في الحسبان . والاعتقاد انه في الوقت الذي يوجد فيه فائض قيمة هنا وهناك يعني ان الامور متماثلة بدون اعتبار للتبدلات الحاصلة في الاتحاد السوفياتي حيث الانسان والآلة لم يعد لهما نفس الدلالة الاقتصادية والاجتماعية كما في فرنسا . والحال ان الآلة في فرنسا توجد لتنتج في خدمة رب العمل والانسان وجد ليكون مستغلا . وفي الاتحاد السوفياتي وجدت الآلة لتنتج في خدمة الانسان والانسان ليستمتع بثمرة عمله. فائض القيمة في فرنسا يذهب الى رب العمل، في الاتحاد السوفياتي يذهب الى الدولة الاشتراكية اي للجماعة الخالية من المستغلين. وهكذا تغيرت الاشياء.

نرى اذن بعد هذا المثل ان الاخطاء في الرأي تتأتى عند المخلصين من نهج ميتافيزيقي في التفكير ، وبصورة خاصة من السمة الاولى لهذا النهج وهي سمة اساسية تقوم على عدم اعطاء التغير حقه في التقدير وتفضيل الجمود ، وبكلمة واحدة سمة تميل الى تأبيد الهوية فيما وراء التغير .

ولكن ما هي هذه الهوية ؟ شاهدنا مثلا بناء بيت انتهى في اول كانون الثاني ١٩٣٥ . وفي اول كانون الثاني ١٩٣٦ ، وفي كل السنوات التالية سنقول انه

لا يزال هو هو ، لانه لا يزال ذا طابقين ، وعشرين نافذة ، وبابين على الواجهة الخ . . لانه يبقى دائما هو نفسه ، لا يتغير ولا يختلف ابدا . اذن ان يكون هو هو هذا يعني ان يبقى ذاته ، وان لا يصير بيتا آخر . ومع ذلك فقد تغير هذا البيت ! وبنظرة اولية فقط ، بنظرة سطحية ، نرى ان البيت قد بقي هو نفسه . اما المهندس ، او البناء الذي يرى الاشياء عن قرب ، فانهما يدركان ان البيت لم يعد هو نفسه منذ الاسبوع الاول لبنائه . هنا حدث شق صغير ، وهنا حاد حجر ، وهناك ذهب اللون. . الخ . . اذن عندما نلاحظ الاشياء « بالاجمال » فقط ، تظهر هي هي . وفي التحليل والتفصيل تتغير دون توقف .

لكن ما هي النتائج العملية للسمة الاولى للمنهج الميتافيزيقي ؟

بما اننا نفضل رؤية الهوية في الاشياء ، اي رؤيتها باقية هي نفسها ، نقول مثلا : « الحياة هي الحياة ، والموت هو الموت » فنؤكد ان الحياة تبقى هي الحياة ، والموت يبقى نفسه هو الموت ، وهذا كل شيء .

ونحن بما اننا معتادون على اعتبار الاشياء في هويتها ، نفصلها عن بعضها . القول« ان الكرسي هو الكرسي » هو ملاحظة طبيعية ولكنه تركيز على الهوية ؛ وهذا يعني في الوقت نفسه : ان ما هو غير كرسي هو شيء آخر
فمن الطبيعي جدا ان نقول هذا لدرجة ان التركيز عليه يبدو طفوليا . وفي نفس الترتيب للافكار سنقول : « الحصان هو الحصان ، وما ليس الحصان هو شيء آخر» . نفصل جيدا اذن من جهة الكرسي ، ومن جهة اخرى الحصان ، ونفعل هكذا في كل شيء . نميز اذن فاصلين بصرامة الاشياء بعضها عن بعض ونصل هكذا الى تحويل العالم الى مجموعة من الاشياء المنفصلة وهذه هي :

ب ـ السمة الثانية للمنهج الميتافيزقي . عزل الاشياء

ما اتينا على ذكره يظهر طبيعيا بشكل يمكن ان نتساءل معه لماذا نقول هذا ؟ سنرى انه بالرغم من كل شيء كان ذلك ضروريا ، لان هذه الطريقة في التعليل ستقودنا الى رؤية الاشياء من زاوية معينة .

وسنحكم ايضا على السمة الثانية لهذا المنهج في نتائجه العملية .

في الحياة العادية ، اذا لاحظنا الحيوانات وعزلنا الكائنات عندما نعلل

بصددها ، لا نعود نرى ابدا ما هو مشترك بين الكائنات من اجناس مختلفة وانواع مختلفة . حصان هو حصان وبقرة هي بقرة ، ولا صلة بينهما البتة .

هذه وجهة نظر علم الحيوان القديم الذي يصنف الحيوانات بعزلها عن بعضها بطريقة واضحة ولا يرى بينها اية صلة . وهي احدى نتائج تطبيق المنهج الميتافيزيقي .

وكمثل آخر نستطيع ايراد هذه الواقعة : ان البورجوازية تريد من العلم ان يكون هو العلم ، ومن الفلسفة ان تبقى هي نفسها ، وكذلك السياسة ؛ وبطبيعة الحال لا شيء مشترك ولا صلة اطلاقاً بين الثلاثة .

والنتائج العملية لهذا التعليل هي ان عالما ما يجب ان يبقى عالما ، وليس له ان يقرن علمه بالفلسفة او بالسياسة . الشيء نفسه يكون بالنسبة للفيلسوف وللانسان في حزب سياسي .

عندما يعلل انسان حسن النية هكذا نستطيع القول انه يعلل كميتافيزيقي . لقد ذهب الكاتب الانكليزي ويلس الى الاتحاد السوفياتي منذ عدة سنوات ، وزار الكاتب الكبير المتوفي حاليا ، مكسيم غوركي . وعرض عليه انشاء ناد ادبي لا يتعاطى السياسة ، لان في ذهنه : ان الادب هو الادب ، والسياسة هي السياسة . ويظهر ان غوركي واصدقاءه ضحكوا منه وهذا ما أغاظه ، ذلك ان ويلس يرى ويتصور الكاتب يعيش خارج المجتمع ، في حين ان غوركي واصدقاءه يعرفون ان لا شيء هكذا في الحياة ، حيث جميع الاشياء مرتبطة حقيقة ـ شئنا ذلك ام ابينا .

في الممارسة العادية ، نحن نرغم انفسنا على التصنيف ، على عزل الاشياء ، على رؤيتها ودراستها في ذاتها . والذين ليسوا ماركسيين ينظرون الى الدولة عامة بعزلها عن المجتمع ، بكونها مستقلة عن شكل هذا المجتمع . ان التعليل على هذه الصورة ، وعزل الدولة عن المجتمع ، يعني عزلها عن علاقتها بالواقع .

الخطأ نفسه سيكون عندما نتكلم عن الانسان بفصله عن الناس الاخرين ، عن وسطه ، عن المجتمع . فاذا لاحظنا ايضا الآلة بنفسها ، معزولة عن

المجتمع الذي تنتج فيه ، سنرتكب هذا الخطأ في التفكير : « الآلة في باريس ، الآلة في موسكو ، فائض قيمة هنا وهناك ، لا فرق ، الشيء نفسه بصورة مطلقة » .

ومع ذلك فان هذا التعليل نقرأه بصورة متواسدة ، والذين يقرأونه ، يقبلونه . لان وجهة النظر العامة والمألوفة هي تقسيم الاشياء وعزلها . وهذه عادة مميزة للمنهج الميتافيزيقي .

ج ـ السمة الثالثة : تقسيمات ابدية لا تُعبر

بعد ان اعتبرنا الاشياء جامدة وغير متغيرة ، صنفناها ، وبوبناها خالقين بينها تقسيمات تنسينا العلاقات التي يمكن ان تكون بينها .

هذا الشكل من النظر وابداء الحكم يجرنا الى الاعتقاد ان هذه التقسيمات موجودة مرة والى الابد (الحصان هو حصان) وانها مطلقة وابدية ومتعذرة العبور . هذه هي السمة الثالثة للمنهج الميتافيزيقي .

ولكن علينا الانتباه عندما نتكلم على هذا المنهج ؛ لانه عندما نقول نحن الماركسيين ، ان هناك طبقتين في المجتمع الرأسمالي : البورجوازية والبروليتاريا ، فنحن نصنع تقسيما يمكن ان يظهر قريبا من وجهة النظر الميتافيزيقية . لكن ليس بمجرد ادخال التقسيمات فقط نكون ميتافيزيقيين . وانما في الطريقة ، في الشكل الذي نقيم به هذه الفروقات والعلاقات الموجودة بين هذه التقسيمات .

فعندما نقول ان في المجتمع طبقتين ، تظن البورجوازية فوراً ان هناك اغنياء وفقراء وستقول لنا بالطبع : « كان هناك دائما اغنياء وفقراء » .
« كان هناك دائما ، وسيكون هناك دائما » . ذاك شكل ميتافيزيقي في التعليل . نصنف نهائيا الاشياء المستقلة بعضها عن بعضها الآخر ونقيم بينها حواجز واسوارا متعذرة العبور .

يقسم المجتمع الى اغنياء وفقراء بدل ان يشار الى وجود البورجوازية والبروليتاريا : وحتى اذا قبلنا هذا التقسيم الاخير ، فسيعتبران خارج علاقاتهما المتبادلة اي خارج صراع الطبقات .

ما هي النتائج العملية لهذه السمة الثالثة التي تقيم الحواجز بين الاشياء بصورة نهائية ؟ هذا يعني انه ليس بين الحصان والبقرة صلة قرابة . الشيء نفسه بالنسبة لجميع العلوم ، ولكل ما يحيط بنا . وسنرى فيا بعد ما اذا كان ذلك صوابا . لكن يبقى علينا ان نتفحص نتائج هذه السمات الثلاث التي تكلمنا عنها وهذا سيكون :

د ـ السمة الرابعة : تعارض الاضداد .

ينتج عن كل ما رأيناه انه عندما نقول : « الحياة هي الحياة » و« الموت هو الموت » نؤكد ان لا شيء مشترك بين الموت والحياة . نصنفهما كلا على حدة فننظر الى كل من الحياة والموت بحد ذاته ، بدون ان نرى الى العلاقات التي يمكن ان توجد بينهما . في هذه الشروط انسان مات للتو، يجب اعتباره كشيء ميت ، لانه من المستحيل ان يكون حيا وميتا في الوقت نفسه ، لان الحياة والموت ينفي احدهما الآخر بصورة متبادلة .

وباعتبار الاشياء منعزلة ومختلفة بصورة نهائية بعضها عن البعض الاخر ، فاننا سنصل الى تعارضها واحدة مع الاخرى .

ها نحن في السمة الرابعة للمنهج الميتافيزيقي التي يعارض الاضداد واحدها بالآخر وتؤكد ان شيئين ضدين لا يمكنهما الوجود في الوقت نفسه .

في هذا المثل عن الموت والحياة ، لا يمكن بالفعل ان يوجد احتمال ثالث . علينا ان نختار بصورة مطلقة الواحدة او الاخرى من الاحتمالات التي ميزناها . ونعتبر ان احتمالا ثالثا سيكون تناقضا وان هذا التناقض هو خُلف وبالتالي فهو مستحيل .

السمة الرابعة للمنهج الميتافيزيقي هي اذن الهلع من التناقض .

والنتائج العملية لهذا التعليل ، هي انه عندما نتحدث عن الديمقراطية والديكتاتورية مثلا ، نرى ان وجهة النظر الميتافيزيقية تتطلب ان يختار المجتمع بين الاثنين : لان الديمقراطية هي الديمقراطية والديكتاتورية هي الديكتاتورية . الديمقراطية ليست الديكتاتورية . والديكتاتورية ليست الديمقراطية . علينا الاختيار والا فنحن في مواجهة التناقض والخلف والمستحيل.

الموقف الماركسي مختلف كليا :

نحن نظن ، على العكس من ذلك ، ان ديكتاتورية البروليتاريا مثلا هي ديكتاتورية الجماهير ، وفي الوقت نفسه هي الديمقراطية لجماهير المستَغلين .

ونعتقد ان الحياة ، حياة الكائنات الحية ، غير ممكنة بدون الصراع الابدي بين الخلايا والتي يموت بعضها ليحل مكانه بعضها الاخر بصورة متواصلة . وهكذا فالحياة تتضمن في ذاتها موتا . ونحن نعتقد ان الموت ايضا ليس شاملا ومنفصلا عن الحياة كما تظن الميتافيزيقيا ، لان الحياة لم تختف تماما عن جثة ما ، بما ان بعض الخلايا تتابع العيش لبعض الوقت وان حيوات اخرى تتولد من هذه الجثة .

٢ ـ مختصر مفيد :

نرى اذن ان السمات المختلفة للمنهج الميتافيزيقي ترغمنا على اعتبار الاشياء من زاوية معينة ، وتجرنا الى التعليل بشكل معين . ونلاحظ ان هذه الطريقة في التحليل تملك « منطقا » معينا سندرسه فيا بعد ، ونلاحظ ايضا ان ذلك ينطبق كثيرا على شكل للنظر والتفكير والدراسة والتحليل نصادفه عموما .

نبدأ ـ وهذا التعداد سيتيح لنا الاختصار ـ بـ :

١ ـ رؤية الاشياء في جمودها ، في هويتها .
٢ ـ فصل الاشياء بعضها عن بعض ، وفك ارتباطها بعلاقاتها المتبادلة .
٣ ـ اقامة تقسيمات ابدية بين الاشياء واسوار متعذرة على العبور
٤ ـ معارضة الاضداد بالتأكيد بان شيئين ضدين لا يمكن ان يوجدا في الوقت نفسه .

رأينا عندما تفحصنا النتائج العملية لكل سمة ان شيئا من ذلك لا ينطبق على الواقع .

هل ينطبق العالم على هذا التصور ؟ هل الاشياء جامدة وبدون تغير في الطبيعة ؟ نحن نلاحظ ان كل شيء يتغير ، ونحن نرى الحركة . اذن هذا

التصور غير متفق مع الاشياء نفسها . وبديهي ان الطبيعة هي على حق ، وان هذا التصور هو الخاطيء .

منذ البدء عرفنا الفلسفة انها تبغي إلى تفسير الكون، والانسان، والطبيعة الخ . . العلوم تدرس المشكلات بالمعنى الخاص ، والفلسفة كما قلنا هي دراسة المشكلات الاكثر عمومية ، تلاقيا مع العلوم وامتدادا لها .

والحال ان طريقة التفكير « الميتافيزيقية » القديمة التي تنطبق على جميع المشكلات هي ايضا تصور فلسفي يعتبر الكون والانسان والطبيعة بشكل خاص جدا

« والاشياء وانعكاساتها في الفكر والمفاهيم، بالنسبة للميتافيزيقي هي مواضيع دراسية منعزلة يجب ان تؤخذ في الاعتبار واحدة بعد الاخرى ، وواحدة بدون الاخرى ، هي ثابتة ، صلدة ، معطاة مرة والى الابد . لا يفكر الميتافيزيقي الا في متناقضات بدون حد وسط ، يقول نعم ، نعم، ولالا . وما يتعدى ذلك لا يساوي في نظره شيئا . بالنسبة له ، اما ان يوجد الشيء او لا يوجد. ولا يمكن للشيء ان يكون نفسه وغيره في ذات الوقت . الايجابي والسلبي ينفي احدهما الأخر بصورة مطلقة ، السبب والنتيجة يتعارضان تماماً ايضاً »[٢].

التصور الميتافيزيقي اذن يعتبر « الكون مجموعة من الاشياء المتحجرة » ولاستيعاب هذه الطريقة في التفكير استيعابا جيدا ، سندرس فيما بعد كيف نتصور الطبيعة ، والمجتمع والفكر .

٣ ـ التصور الميتافيزيقي للطبيعة :

ان الميتافيزيقيا تعتبر الطبيعة بمثابة مجموعة من الاشياء ثابتة نهائيا .

ولكن هناك طريقتين لاعتبار الاشياء كذلك .

الطريقة الاولى : تعتبر ان العالم جامد اطلاقا والحركة ليست سوى سراب حسي ، فاذا انتزعنا ترائي الحركة هذا ، فالطبيعة لا تتحرك ابدا .

٢ ـ فارن انجلس : انتي دوهرينغ ، ص ٢٧

وكنت المدرسة الايلية ، وهي مدرسة للفلاسفة اليونانين ، تدافع عن هذه النظرية . ان هذا التصور المبسط ، هو في تناقض شديد مع الواقع بحيث لا نجد في ايامنا هذه من يدعمه .

الطريقة الثانية لاعتبار الطبيعة مجموعة من الاشياء الثابتة ، هي اكثر تدقيقا من الاولى ، فلا يقال ان الطبيعة جامدة بل لا بأس ان تتحرك . لكن يؤكد انها تتحرك حركة آلية .

لقد اختفت الطريقة الاولى هنا . ولم تعد تنكر الحركة ، وهذا يبدو كأنه ليس تصورا ميتافيزيقيا . يسمى هذا التصور « ميكانيكياً »

لقد شكل هكذا التصور خطأ غالبا ما يرتكب ، كما نجده عند ماديي القرن السابع عشر والثامن عشر . وقد رأينا انهم لا يعتبرون الطبيعة جامدة ، ولكن في حركة . لكن هذه الحركة ، بالنسبة لهم ، هي مجرد تغير آلي ، هي نقلة .

يقبلون كل النظام الشمسي (الارض تدور حول الشمس) لكنهم يظنون ان هذه الحركة هي حركة آلية محضة ، اي مجرد تغيير في المكان ، وينظرون اليها من هذا الجانب فقط .

لكن الاشياء ليست بهذه البساطة . ان تدور الارض ، فهذه حركة آلية طبعا ، لكنها تستطيع وهي تدور ، ان تخضع لتأثيرات ، ان تبرد قليلا على سبيل المثال . فليس هناك اذن نقلة فقط ، بل هناك تغيرات اخرى كذلك .

ان ما يميز هذا التصور، المسمى ميكانيكياً. هو اذن انه يعتبر الحركة آلية فقط .

فاذا دارت الارض دون انقطاع ، ولم يحصل شيء زيادة على ذلك ، تغير الارض مكانها ، لكنها لا تتغير هي نفسها ، تبقى هي هي نفسها . ولا تفعل سوى ان تواصل دوراتها دائما وابدا قبلنا وبعدنا ، وهكذا تسير الامور جميعها كما لو ان شيئا لم يحدث . نحن نرى اذن ان التسليم بالحركة ، إنما مع جعلها حركة ميكانيكية محضة ، هو تصور ميتافيزيقي لان هذه الحركة بدون تاريخ .

مثلا ، ان الساعة ذات الاجهزة الكاملة والمصنوعة من معادن لا تتآكل ، ستسير الى الابد بدون ان تتغير في شيء ، والساعة لن يكون لها تاريخ . هذا التصور للكون نجده عند ديكارت بصورة ثابتة . فهو يحاول ان يحيل الى

الميكانيك جميع القوانين الفيزيائية والفيزيولوجية . ولم تكن لديه اية فكرة عن الكيمياء (انظر تفسيره لدوران الدم) وسيكون تصوره الميكانيكي هذا ، هو تصور ماديي القرن الثامن عشر .

(سوف نستثني ديدرو ، الذي كان اقل ميكانيكية والذي استشف في بعض كتاباته التصور الديالكتيكي) .

فالذي يميز ماديي القرن الثامن عشر هو انهم جعلوا من الطبيعة ميكانيكية ساعاتية .

ولو كان ذلك صحيحا ، لعادت الاشياء باستمرار الى النقطة نفسها بدون ان تترك اثرا ، ولبقيت الطبيعة هي هي نفسها ، وهذه هي السمة الاولى للمنهج الميتافيزيقي .

٤ ـ التصور الميتافيزيقي للمجتمع :

التصور الميتافيزيقي يريد ان لا يتغير شيء في المجتمع . ولكنه لا يعرض عادة كما هو . يتم الاعتراف بحدوث التغيرات كما في الانتاج مثلا ، عندما تنتج مواضيع تامة من مواد اولية ، في السياسة ، حيث تتوالى الحكومات بعضها اثر بعض ، يعترف الناس بهذا كله ، لكنهم يعتبرون ان النظام الرأسمالي نظام نهائي وابدي ، ويشبهونه ايضا بالآلة في بعض الاحيان .

وهكذا يتحدثون عن الآلة الاقتصادية التي تتعطل في بعض الاحيان ، ولكن يراد اصلاحها للمحافظة عليها . يراد الحفاظ على هذه الآلة لكي تستطيع ، كآلة اوتوماتيكية ، ان توزع للبعض العائدات وللآخرين البؤس .

ويجري الحديث ايضا عن الآلة السياسية ، التي هي النظام البرلماني البرجوازي ولا يطلب منها سوى شيء واحد : ان تعمل تارة الى اليمين وطورا الى اليسار ، لكي تحفظ للرأسمالية امتيازاتها .

ان اعتبار المجتمع على هذا النحو هو تصور ميكانيكي ، ميتافيزيقي .

فاذا كان بامكان هذا المجتمع ، الذي تعمل فيه جميع هذه الاجهزة ، ان يتابع

سيره بصورة متصلة ، فلن يترك اثرا ولا عقبا في التاريخ .

ثمة ايضا تصور ميكانيكي هام جدا ، صالح لكل الكون ، وخاصة بالنسبة للمجتمع ، وهو يقوم على فكرة السير المنتظم والرجوع الدوري للاحداث نفسها بصيغة : « التاريخ يعيد نفسه دائما » .

ويجب ان نلاحظ ان هذه التصورات هي شديد الانتشار. فهي لا تنكرَ فعلاً الحركة ولا التبدل، الذي نلاحظه ونجده في المجتمع ، ولكن تُزور الحركة نفسها بتحويلها الى مجرد ميكانيكية.

٥ ـ التصور الميتافيزيقي للفكر :

ما هو التصور المعمول به من حولنا ؟

نحن نعتقد ان الفكر الانساني كان ولا يزال سرمديا . ونعتقد انه ، وان تكن الاشياء قد تغيرت ، فان طريقة تفكيرنا هي هي طريقة الانسان الذي كان يعيش منذ قرن من الزمان ، مشاعرنا نعتبرها كأنها هي مشاعر اليونان نفسها ، نعتبر الطيبة والحب وكأنها وجدا دائما ، وهكذا نتكلم عن « الحب الخالد » . من الطبيعي جدا الاعتقاد ان المشاعر الانسانية لم تتغير ابدا .

هذا ما يدفع الى القول والكتابة ان مجتمعا ما لا يمكن ان يوجد الا على اساس الغنى الفردي والاناني . ولذلك ايضا ترانا غالبا ما نسمع القول : ان « رغبات الانسان هي دائما نفسها » .

نفكر غالبا هكذا . وغالبا ما ندع التصور الميتافيزيقي يدخل في حركة الفكر كما في جميع الاشياء الاخرى. ذلك لان هذا المنهج موجود في اساس تربيتنا.

« هذه الطريقة في التفكير تظهر محتملة جدا لنا للوهلة الاولى ، لانها هي ما ندعوها بالحس المشترك »[3] .

ينتج عن ذلك ان هذه الطريقة في النظر ، هذه الطريقة في التفكير الميتافيزيقي ليست فقط تصورا للعالم ، لكنها ايضا طريقة في التفكير .

٣ ـ انجلس انتي دوهرينغ ، ص ٢٨ .

على انه ، اذا كان من السهل ، نسبيا ، التخلص من التعليلات الفلسفية فان من الصعب علينا ، على عكس ذلك ، ان نتحلل من منهج التفكير الميتافيزيقي . . وعلينا ان نقوم بتدقيق هذا الموضوع : نسمي الطريقة التي نرى فيها الكون : تصورا ، والطريقة التي نحاول بها التفسير: منهجا.

مثلا : أ ـ التغيرات التي نراها في المجتمع هي تغيرات ظاهرية فقط ، تجدد ما كان موجودا سابقا . ذلك هو « تصور » .

ب ـ عندما نبحث في تاريخ المجتمع ، في ما حدث سابقا لنستنتج ان « لا جديد تحت الشمس » ، ذلك هو « المنهج » .

ونلاحظ ان التصور يلهم المنهج ويحدده . ومن البديهي طبعا ان المنهج ما ان يستلهم التصور حتى يعود ليفعل فيه بدوره ، موجها التصور وقائدا له .

رأينا ما هو التصور الميتافيزيقي ، وسنرى الان ما هو منهجه في البحث : انه يسمى المنطق .

٦ ـ ما المنطق ؟

يقال عن « المنطق » انه فن التفكير الجيد . فالتفكير بصورة مطابقة للحقيقة هو التفكير وفقا لقواعد المنطق .

ما هي القواعد ؟ هناك ثلاث قواعد رئيسية كبيرة هي :

١ ـ مبدأ الهوية : هذا يعني ، كما رأينا سابقا ، القاعدة التي تريد ان يبقى الشيء هو هو نفسه ولا يتغير (الحصان هو الحصان) .

٢ ـ مبدأ عدم التناقض : الشيء لا يمكن ان يكون هو نفسه ونقيضه في الوقت نفسه . يجب الاختيار (الحياة لا يمكن أن تكون الحياة والموت) .

٣ ـ مبدأ الثالث المرفوع ـ او طرد الحالة الثالثة ، هذا يعني انه بين احتمالين متناقضين لا مكان لثالث . يجب الاختيار بين الموت والحياة ولا وجود لاحتمال ثالث .

اذن ان نكون منطقيين ، يعني ان نفكر جيدا . وان نفكر جيدا يعني ان لا

ننسى تطبيق هذه القواعد الثلاث .

نتعرف هنا على المبادىء التي درسناها ، والتي تتأتى من التصور الميتافيزيقي .

المنطق والميتافيزيقيا هما بالنتيجة مرتبطان ارتباطا وثيقا ، المنطق هو اداة ، هو منهج للتعليل يعمل على تصنيف كل شيء بشكل محدد تماما ، ويُلزم بالتالي برؤية الاشياء على أنها هي هي نفسها ، ويضعنا بعد ذلك امام الزامية الخيار والقول : نعم ام لا؟ وبالنتيجة يطرد ، بين حالتي الموت والحياة مثلا، الاحتمال الثالث .

فعندما نقول :

« جميع الناس فانون ، هذا الرفيق هو انسان ، اذن هذا الرفيق فان » لدينا ما يسمى بالقياس (هذا هو الشكل النموذجي للتعليل المنطقي) فنحن بتعليلنا هكذا ، حددنا مكان الرفيق ، فحققنا تصنيفا .

نميل ، ذهنيا عندما نصادف انسانا ، او شيئا ما ، نميل الى القول : اين يجب تصنيفه ؟ فذهننا لا يطرح على نفسه الا هذه المشكلة الوحيدة . نرى الاشياء كدوائر ، او كعلب مختلفة الابعاد ، وهمنا هو ادخال هذه الدوائر او هذه العلب احداها في الاخرى ضمن ترتيب معين .

في مثلنا ، نحدد اولا دائرة كبيرة تحوي كل الفانين ، ثم دائرة اصغر تحوي كل الناس ، ثم بعد ذلك دائرة تحوي فقط هذا الرفيق .

اذا اردنا تصنيفها ، سنقوم بذلك وفقا « لمنطق » معين بادخال الدوائر بعضها في الآخر .

التصور الميتافيزيقي اذن مكون من المنطق والقياس . القياس هو مجموعة من ثلاث جمل ، الاثنتان الاوليان تسميان المقدمات ، اي « الموفدة قبلا » ، والثالثة هي النتيجة .

مثل آخر، «في الاتحاد السوفياتي قبل الدستور الاخير، كانت ديكتاتورية البروليتاريا . الديكتاتورية هي الديكتاتورية. وفي الاتحاد السوفياتي هي

الديكتاتورية . اذن لم يكن هناك من فرق البتة بين الاتحاد السوفياتي وايطاليا وللمانيا بلدان الديكتاتورية».

لا ينظر هنا لاجل من،وعلى من تزاول الديكتاتورية ، كذلك عندما تمتدح الديمقراطية البورجوازية ، لا يقال لصالح من تزاول هذه الديمقراطية .

هكذا نصل الى طرح المشكلات ، ورؤية الاشياء والعالم الاجتماعي كجزء من الدوائر المنفصلة ، والى ادخال الدوائر بعضها في الآخر .

من المؤكد ان هذه الاسئلة هي اسئلة نظرية لكنها تحمل معها اسلوبا في التصرف عمليا . وهكذا نستطيع ايراد هذا المثل المؤسف عن المانيا ١٩١٩ ، حيث الاشتراكية الديمقراطية قتلت ديكتاتورية البروليتاريا حتى تحافظ على الديمقراطية ، دون ان تدرك انها بتصرفها هذا تركت الرأسمالية تستمر واعطت الفرصة للنازية .

رؤية الاشياء ودراستها منعزلة عن بعضها هي ما فعله علم الحيوان وعلم الاحياء ، حتى اللحظة التي شاهد فيها التطور الحاصل عند الحيوانات والنباتات وفهمه . في السابق صنفوا جميع الحيوانات معتقدين ان الاشياء كانت كما هي عليه الآن منذ الازل .

« وبالفعل . . . كان علم الطبيعة حتى نهاية القرن الاخير ، بصورة خاصة علم التراكم ، علم الاشياء الجاهزة »[٤] .

ولكن علينا حتى ننتهي ان نعطي :

٧ ـ شرح كلمة « ميتافيزيقا »

في الفلسفة قسم مهم يسمى الميتافيزيقا . ولكن ليس لها هذه الاهمية الا في الفلسفة البورجوازية ، ما دامت تهتم بالله والنفس . كل شيء فيها سرمدي . الله سرمدي ، وغير متغير ابدا ، باق هو هو نفسه . النفس ايضا . كذلك الخير والشر الخ . . . كل هذا محدد بوضوح . نهائيا وسرمديا .

في هذا القسم من الفلسفة الذي نسميه الميتافيزيقا ، نرى الاشياء اذن

٤ - قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٩ .

كمجموع ثابت ، ويتم التعليل بالمتعارض : يعارض الذهن بالمادة، والخير بالشر الخ . . . اي نعلل بمعارضة الاضداد فيما بينها .

نسمي هذه الطريقة في التعليل وفي التفكير ، نسمي هذا التصور : « ميتافيزيقا» لانها تعالج الاشياء والافكار الموجودة في ما وراء الفيزياء ، كالله والطبيعة والنفس والشر الخ . .

والميتافيزيقيا تأتي من اليونانية ميتاMeta والتي تعني « ما بعد » ومن « فيزيقا » اي علم ظاهرات العالم . اذن الميتافيزيقا هي ما يهتم بالاشياء الواقعة ما بعد العالم

ونسمي هذا التصور ميتافيزيقيا بسبب حادث تاريخي ايضا . فارسطو الذي كتب اول كتاب في المنطق (الذي ما زلنا نستعمله نحن) ارسطو هذا كتب كثيرا . وبعد موته رتب اتباعه كتاباته ، فصنعوا فهرسا وبعد كتاب له عنوانه « فيزيقا » وجدوا كتابا بدون عنوان يعالج اشياء الذهن ، فصنفوه ودعوه « ما بعد الفيزيقا » ، في اليونانية ميتافيزيقا .

لنركز ، في الخلاصة ، على الرابط الموجود بين الالفاظ التي درسناها .

الميتافيزيقيا الميكانيكية والمنطق . هذه الفنون الثلاثة تحضر مجتمعة دائما . وتستدعي احداها الاخرى ، فهي تؤلف سيستاما ولا يمكن فهم احداها إلا بالاخرى .

القسم الرابع

دراسة الديالكتيك

الفصل الأول

مقدمة لدراسة الديالكتيك

١ ـ احتياطات تمهيدية :

عندما يدور الكلام على الديالكتيك ، فانما يتم ذلك غالبا بغموض ، ويقدم كشيء معقد . فعن جهل به يتم الكلام عليه كيفما اتفق . وهذا مما يؤسف له ، ومما يدعو لارتكاب اخطاء يجب تجنبها .

ان لفظة ديالكتيك في أصلها اللغوي تعني ببساطة ، فن المناقشة ، وهكذا نسمع غالبا ان الانسان الذي يناقش طويلا ، ويتوسع ، ويحدث جيدا : هو انسان ديالكتيكي !

لن ندرس كلمة الديالكتيك بهذا المعنى . فقد اكتسبت دلالة خاصة من وجهة النظر الفلسفية .

الديالكتيك ، بمعناه الفلسفي ، وعلى عكس ما يظن ، هو بمتناول الجميع لانه شيء واضح-جداً وليس فيه اسرار .

ولكن بالرغم من ان الديالكتيك يمكن ان يفهمه جميع الناس فله مع ذلك صعوباته . ولنر كيف يجب علينا فهمه .

بعض الاشغال اليدوية بسيط ، وبعضها الآخر اكثر تعقيدا . ان نصنع

اكياسا للتعبئة ، مثلا ، هذا عمل بسيط . أما تركيب الالآت اللاسلكيـة ، فيمثل على العكـس عملا يتطلب كثيرا من المهارة ، والدقة ، وليونـة الاصابع .

اليدان والأصابع هي ، بالنسبة لنا ، ادوات عمل . لكن الفكـر ايضا هو اداة عمل . واذا كانت اصابعنا لا تعمل دائما عملا دقيقا ، فكـذلك الامر بالنسبة لدماغنا .

ففي بدء تأريخ العمل البشري ، لم يحسن الانسان الا الاعمال غير المتقنة . ولم تتح له فرصة تحقيق اعمال اكثر دقة الا مع تقدم العلوم .

هذا ما حدث تماما في تاريخ الفكر. الميتافيزيقا هي هذا المنهج من التفكير غير المؤهل ، كما هي اصابعنا ، الا الحركات غير متقنة (كمسمرة الصناديق او كفتح جوارير الميتافيزيقـا) .

يختلف الديالكتيـك عن هذا المنهج لانه يتيـح دقة اكبر . فليس هو سوى منهج في التفكير ذي دقة كبرى .

ان تطور الفكر كتطور العمل اليدوي نفسه . نفس التاريخ للاثنين ، ولا وجود لاي لغز ، فكل شيء واضح في هذا التطور .

الصعوبات التي نصادفها تأتي من كوننا ، حتى الخامسة والعشريـن من العمر ، نسمر الصناديق فقط ، وفجأة يضعوننا امام آلات لاسلكية لنركبها . ومن المؤكـد انه سيكـون لدينا صعوبات كثيرة . وستكـون ايـدينا ثقيلة ، واصابعنا قليلة المهارة . ولن نصل الى تليين انفسنا وتحقيق هذا العمل الا قليلا قليلا . وما كان كثير الصعوبة في البداية يظهر لنا اكثر سهولة بعد ذلك .

وكذلك بالنسبة للديالكتيك . نحن مرتبكـون ومثقلون بالمنهج القديـم في التفكير الميتافيزيقي ، وعلينا ان نحرز ليـونة المنهج الديالكتيكـي ودقته لكننا نرى ايضا ان ليس ثمة من اسرار وليس ثمة من تعقيد مستعص .

٢ ـ مم يتولد المنهج الديالكتيك ؟

رأينا ان الميتافيزيقيا تعتبر ان العالم مجموعة من الاشياء المتحجرة ، وانه على

العكس ، اذا نظرنا الى الطبيعة رأينا كل شيء يتحرك ، وكل شيء يتغير . اننا نلاحظ الشيء نفسه بالنسبة للفكر . ينتج عن هذا الاستنتاج عدم تطابق بين الميتافيزيقيا والواقع . لذلك ومن اجل ان نحدد بشكل بسيط ، ونعطي فكرة مختصرة ، نستطيع القول : الذي يقول « ميتافيزيقا » يقول « جمود » والذي يقول « ديالكتيك » يقول « حركة » .

فالحركة والتغير الموجودان في كل ما يحيط بنا هما في اساس الديالكتيك .

« حين ننظر ونتأمل في الطبيعة ، في مداها ، او في تاريخ الجنس البشري او في نشاطنا الخاص ، فاننا نشاهد اول ما نشاهد تشابكـاً لامتناهيـاً للعلاقات وردود الأفعال ، وللمبادلات والتركيبات ، تشاكباً لا يظل فيه شيء ثابتاً على حاله ، او في مكانه او مثلما كان من قبل ، بل كل شيء يتحرك ، ويتبدل ، ويخلق ويفنى »[1] .

نرى بموجب هذا النص الواضح جدا لانجلس ، انه من وجهة نظر الديالتكيك ، كل شيء يتغير، لا يبقى شيء حيث هو، ولا يستمر على ما هو عليه ، وبالنتيجة فان وجهة النظر هذه متفقة تماما مع الواقع . لا شيء يمكث في المكـان الذي يشغله ما دام الذي يظهر لنا جامدا ، يتحرك ، يتحرك مع حركـة الارض حول الشمس ، وفي حركـة الشمس حول نفسها . في الميتافيزيقيا ، مبدأ الهوية يريد ان يبقى الشيء هو نفسه . وسنرى ، على العكس ، ان لا شيء يبقى على ما هو عليه .

لدينا انطباع باننا نبقى دائما كما نحن ومع ذلك يقول لنا انجلس : « المتماثل مختلف » نظن اننا مماثلون لانفسنا في حين اننا قد تغيرنا . كنا اطفالا واصبحنا رجالا ، وهذا الرجل لا يبقى هو نفسه ابدا من الناحية الفيزيائية : انه يشيخ كل يوم .

ليست الحركة اذن تراءٍ خادع كما ذهب اليه الايليون بل الجمود هو التراثي ، ما دام كل شيء يتحرك في الواقع ، ويتغير.

١ ـ انجلس : انتي دوهرنغ : ص ٢٦

التاريخ ايضا يثبت لنا ان الاشياء لا تبقى على ما هي عليه . فليس المجتمع جامدا في اية لحظة . ان اول مجتمع عرفته العصور القديمه ، هو مجتمع الرق ، بعد ذلك تلاه المجتمع الاقطاعي ، ثم المجتمع الرأسمالي . ودراسة هذه المجتمعات تظهر لنا بصورة متواصلة ولا شعورية ، ان العناصر التي اتاحت ولادة مجتمع جديد تمت داخل تلك المجتمعات نفسها . وهكذا يتغير المجتمع الرأسمالي كل يوم ، وقد زال من الوجود في الاتحاد السوفياتي ، لأن اي مجتمع لا يبقى جامدا . المجتمع الاشتراكي المبني في الاتحاد السوفياتي ، هو ايضا مصيره الزوال . انه يتغير بشكل مرئي ولذلك لا يفهم الميتافيزيون ما يجري هناك . فيتابعون الحكم على مجتمع تغير كليا انطلاقاً من مشاعر امرىء لا يزال خاضعا للقمع الرأسمالي .

مشاعرنا ايضا تتغير ، وهذا ما لا نفهمه جيدا . فنحن نرى ان ما كان مجرد تعاطف قد اصبح حبا ، ثم تحول في بعض الاحيان الى كره .

وما نراه في كل مكان ، في الطبيعة وفي التاريخ وفي الفكر هو التغير والحركة . بهذه الملاحظة يبدأ الديالكتيك .

لقد دهش اليونان لكون التغير والحركة يصادفان في كل مكان . وقد رأينا ان هيراقليطس الذي سمي «ابا المادية» هو اول من اعطانا تصورا جدليا للعالم ، اي انه وصف العالم بانه متحرك وليس متحجرا . ان وجهة نظر هيراقليطس يمكن ان تصبح منهجا .

لكن هذا المنهج الديالكتيكي لم يستطع تأكيد ذاته الا بعد ذلك بوقت طويل ، ويجب علينا ان ننظر لماذا بقي الديالكتيك خاضعا للتصور الميتافيزيقي مدة طويلة .

٣ ـ لماذا تغلب التصور الميتافيزيقي على الديالكتيك طويلا ؟

رأينا ان التصور الديالكتيكي ولد باكرا في التاريخ ، لكن قصور معارف الانسان اتاح نمو التصور الميتافيزيقي . وجعله يتقدم على الديالكتيك .

نستطيع ان نقيم هنا موازاة بين المثالية التي تولدت من الجهل الكبير للناس وبين التصور الميتافيزيقي المتولد من قصور المعرفة بالديالكتيك .

لماذا كان ذلك ممكناً ؟ وكيف كان ذلك ؟

لقد ابتدأ الناس دراسة الطبيعة في حالة من الجهل كاملة . ولدراسة الظاهرات التي لاحظوها ، ابتدأوا بتصنيفها . لكن ، عن شكل تصنيفها ، نتجت عادة ذهنية . وبتقسيمها الى فئات ، وفصل هذه الفئات بعضها عن بعض ، تعود ذهننا ان يقيم انفصالات كهذه . ونعود لنجد هنا السمات الاولى للمنهج الميتافيزيقي . واذن فقد خرجت الميتافيزيقيا من نقص في تطور العلوم . ومنذ ١٥٠ عاما كانت العلوم تدرس مفصولة بعضها عن بعض . فقد كانت الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا تدرس ولم يكن يرى بينها اية صلة . وقد استمر تطبيق هذا المنهج داخل العلوم : الفيزياء تدرس الصوت والحرارة ، والمغناطيس والكهرباء الخ . . وكان يظن انه بين مختلف الظاهرات هذه لا توجد اية صلة ، فدرس كل منها في فصول منفصلة .

نتعرف هنا على الميزة الثانية للميتافيزيقيا التي تؤدي الى تجاهل الصلات بين الاشياء ، وان لا شيء مشترك بينها .

كذلك من السهل تصور الاشياء في حالة السكون اكثر منها في حالة الحركة . لنأخذ مثلا على ذلك التصوير : نرى انّنا نحاول تثبيت الاشياء في جمودها اولا (هذا هو التصوير) ، ثم بعد ذلك في حركتها فقط (هذه هي السينما) اذن ! ان التصوير والسينما هما مثل لتطور العلوم والذهن الانساني .

نحن ندرس الاشياء في سكونها قبل ان ندرسها في حركتها .

ولماذا الامر كذلك ؟ لاننا لم نكن نعلم . وللتعلم سلكنا الطريق الاسهل ، والحال ان الاشياء الجامدة هي اسهل للفهم والدرس . ومن المؤكد ان دراسة الاشياء في حالة السكون هي لحظة ضرورية في الفكر الديالكتيكي ـ لكنها لحظة غير كافية تجزيئية ويجب ان تدمج في دراسة الاشياء المتغيرة .

ونجد حالة الذهن هذه في البيولوجيا ، مثلا في دراسة علم الحيوان والنبات . ولاننا لا نعرف الحيوانات جيدا ، صنفناها اولا حسب السلالة وحسب الانواع معتقدين ان لا شيء مشترك بينها ، وان الامر كان كذلك دائما (السمة الثالثة للميتافيزيقيا) من هنا تأتت النظرية المسماة « الثبوتية » (التي

تؤكد عكس « النظرية التطورية » ، ان الانواع الحيوانية كانت دائما على ما هي عليه، وانها لم تتطور ابدا) والتي هي بالتالي نظرية ميتافيزيقية تتأتى من جهل الناس.

٤ ـ لماذا كانت مادية القرن الثامن عشر ميتافيزيقية ؟

نحن نعلم ان الميكانيك لعب دورا كبيرا في مادية القرن الثامن عشر . وان هذه المادية سميت غالبا « المادية الميكانيكية » . لماذا كان الامر كذلك ؟ لان التصور المادي مرتبط بتطور جميع العلوم ولان الميكانيك كان اول ما تطور بينها جميعا . في اللغة العادية ، الميكانيك هي دراسة الماكنات (الآلات) . وهو في اللغة العلمية ، دراسة الحركة بوصفها نقلة . واذا كان العلم الذي تطور اولا هو الميكانيك، فذلك لان الحركة الآلية هي الحركة الاكثر بساطة . فدراسة حركة تفاحة يؤ رجحها الهواء على شجرة التفاح ، اسهل بكثير من دراسة التغير الذي يطرأ على التفاحة التي تنضج. فالسهولة التي نستطيع ان ندرس بها تأثير الهواء على التفاحة اكبر من السهولة التي ندرس بها عملية نضوجها. لكن هذه الدراسة هي دراسة «جزئية» وتفتح بالتالي الباب للميتافيزيقا.

رغم ان اليونان لاحظوا جيدا ان كل شيء متحرك الا انهم لم يستطيعوا الاستفادة من هذه الملاحظة ، لان معرفتهم كانت غير كافية . كانوا يشاهدون الاشياء والظاهرات ، فيصنفون ويكتفون بدراسة النقلة ، من هنا يؤ دي الميكانيك ونقص المعارف في العلوم الى التصور الميتافيزيقي .

نحن نعلم ان المادية مرتكزة على العلوم ، وان العلم في القرن الثامن عشر كان خاضعا للذهنية الميتافيزيقية . وان المكيانيك كان الاكثر تطورا من جميع العلوم في تلك الحقبة.

لذلك سيقول انجلس انه لا مفر من ان تكون مادية القرن الثامن عشر مادية ميتافيزيقية وميكانيكية. لان العلوم كانت كذلك .

نقول اذن ان هذه المادية الميتافيزيقية والميكانيكية هي مادية ، لانها تجيب عن السؤ ال الاساسي في الفلسفة بان العامل الاول هو المادة . ولكنها كانت ميتافيزيقية لأنها اعتبرت الكون مجموعة من الاشياء المتحجرة والآلية ، ولانها

درست كل شيء ورأته من خلال الميكانيك .

وسيأتي اليوم الذي سيُتوصل فيه ، وبتراكم الابحاث ، الى الملاحظة ان العلوم ليست جامدة وانه اصبح مستحيلا معالجة الواحدة او الاخرى دون ان نعود الى الاخريات . فدراسة الهضم مثلا ، والتي هي دراسة بيولوجية ، تصبح مستحيلة بدون الكيمياء . ففي القرن التاسع عشر سيلاحظ اذن ان العلوم مرتبطة بعضها ببعض ، وسينجم عن ذلك تراجع في الذهنية الميتافيزيقية في العلوم، لاننا نملك معرفة اكثر عمقا في الطبيعة. فحتى ذلك الحين درست الظاهرات الفيزيائية بصورة منفصلة، وها نحن مرغمون على الملاحظة ان هذه الظاهرات كانت من الطبيعة نفسها. وهكذا فالكهرباء والمغناطيس التي كانت تدرس بصورة منفصلة ، جمعت في علم وحيد اليوم، هو الكهرطيسية (كهربائية مغنطيسية).

فبدراسة ظاهرات الصوت والحرارة ، لوحظ كذلك ان الاثنين نجما عن ظاهرة طبيعية واحدة .

فالضرب بالمطرقة يحدث صوتا ، ويولد حرارة . الحركة هي التي تولد الحرارة . ونحن نعلم ان الصوت هو ارتجاجات في الهواء ، والارتجاجات هي ايضا من الحركة . هاتان اذن ظاهرتان من طبيعة واحدة .

وفي البيولوجيا ، توصلوا اثناء التصنيف المتزايد الدقة الى ايجاد انواع لا نستطيع تصنيفها نباتية او حيوانية . فليس هناك من فصل فجائي بين النباتات والحيوانات . وبالمتابعة الدائمة للدراسات توصلوا الى استنتاج ان الحيوانات لم تكن في الماضي على ما هي عليه . فالوقائع ادانت « الثبوتية » والذهنية الميتافيزيقية .

لقد حدث هذا التغير الذي رأيناه ، والذي أتاح للمادية ان تصبح ديالكتيكية خلال القرن التاسع عشر . فالديالكتيك هو ذهنية العلوم التي ، بتطورها ، هجرت التصور الميتافيزيقي . وقد استطاعت المادية ان تتحول ، لان العلوم تغيرت . فالمادية الميتافيزيقية توافق العلوم الميتافيزيقية ، وتوافق العلوم الجديدة مادية جديدة هي المادية الديالكتيكية .

٥ ـ كيف ولدت المادية الديالكتيكية : هيجل وماركس

اذا سئلنا كيف جرى هذا التحول من المادية الميتافيزيقية الى المادية الديالكتيكية ، نجيب عامة قائلين :

١ ـ كان هناك المادية الميتافيزيقية ، مادية القرن الثامن عشر .
٢ ـ العلوم تغيرت .
٣ ـ تدخل ماركس وانجلس ، فقسما المادية الميتافيزيقية الى اثنتين : اهملوا الميتافيزيقيا ، واستبقوا المادية ، مضيفين اليها الديالكتيك .

واذا كنا نميل لتقديم الاشياء هكذا ، فذلك يتم بتأثير من المنهج الميتافيزيقي الذي يرغب في تبسيط الاشياء لنصنع منها رسما بيانيا . وعلى العكس يجب ان يكون حاضرا في ذهننا وبصورة متواصلة : ان احداث الواقع يجب ان لا ترسم بيانيا . فالاحداث اكثر تعقيدا مما تظهر لنا ومما نظن . وهكذا ، فان التحول من المادية الميتافيزيقية الى المادية الديالكتيكية لم يكن بهذه البساطة .

لقد تطور الديالكتيك ، بالواقع ، على يد فيلسوف مثالي الماني ، هو هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) الذي عرف كيف يفهم التغير المحدث في العلوم . فقد لاحظ ـ باستعادته لفكرة هيراقليطس القديمة وساعده في ذلك تقدم العلوم ـ لاحظ ان كل شيء في الكون هو حركة وتغير ، وان لا شيء معزول البتة ، بل ان كل شيء مرتبط بكل شيء ، وهكذا خلق الديالكتيك . فبفضل هيجل نتحدث اليوم عن حركة العالم الديالكتيكية وما فهمه هيجل اولا هو حركة الفكر ودعاها طبعا الديالكتيك .

لكن هيجل مثالي، اي انه يعطي الاهمية الاولى للروح ، وبالتالي يصنع لنفسه تصورا خاصا للحركة وللتغير. فيظن ان تغيرات الروح هي التي تحدث التغيرات في المادة . وأن الكون هو الفكرة وقد صارت مادية . وقبل الكون هناك اولا الروح الذي يكتشف الكون ، وبايجاز يلاحظ ان الروح والكون هما في تغير ابدي ، ولكنه يستخلص من هذا ان التغيرات في الروح هي التي تحدد التغيرات في المادة .

مثلا : المخترع لديه فكرة ، هو يحقق فكرته ، وهذه الفكرة المجسدة هي التي تخلق تغيرات في المادة .

هيجل هو اذن ديالكتيكي لكنه يخضع الديالكتيك للمثالية .

ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) وانجلس (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) من اتباع هيجل، ولكنهم اتباعه الماديون ° وبالتالي يعطون الاهمية الاولى للمادة، يعتقدان ان ديالكتيك هيغل يعطي اثباتات صحيحة ولكن بشكل مقلوب . يقول انجلس في هذا الموضوع : مع هيجل كان الديالكتيك يقف على رأسه ، وتوجب اعادة وضعه على رجليه . أحال ماركس وانجلس اذن الى الواقع المادي ، السبب الاولي لحركة الفكر هذه ، التي حددها هيجل ، وسمياه ديالكتك مستعيرين من هيغل اللفظة نفسها .

فهما يعتقدان ان هيغل على حق في القول ان الفكر والكون هما في تغير دائم ، ولكنه اخطأ بتأكيده ان التغيرات في الافكار هي التي تحدد التغيرات في الاشياء . على عكس ذلك ، فان الاشياء هي التي تعطينا الافكار ، وانما تتعدل الافكار ، لان الاشياء تتعدل .

في الزمن الماضي ، كانوا يسافرون في العربات اليوم نسافر بواسطة السكك الحديدية ولم توجد وسيلة النقل هذه ، لاننا نملك فكرة السفر في السكة الحديدية . ان افكارنا تعدلت لان الاشياء تعدلت .

علينا اذن ان نتجنب القول : « ان ماركس وانجلس كانا يملكان المادية الناجمة عن المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر من جهة اولى ، ومن جهة اخرى يملكان ديالكتيك هيجل ، وبالتالي لم يبق لهما الا ربط احداهما بالاخرى » .

ذاك تصور مبسط تخطيطي ، ينسى ان الظاهرات هي اكثر تعقيدا ، إنه تصور ميتافيزيقي .

سيأخذ ماركس وانجلس الديالكتيك من هيجل بالطبع ، لكنهما سيحولانه ، وسيفعلان الامر نفسه بالمادية ليعطيانا المادية الديالكتيكية .

الفصل الثاني

قوانين الديالكتيك

القانون الاول

التغير الديالكتيكي

١ ـ ماذا نعني بالحركة الديالكتيكية .
٢ ـ « ليس من شيء نهائي ، مطلق ، مقدس بالنسبة للديالكتيك » (انجلس)
٣ ـ السيرورة .

١ ـ ماذا نعني بالحركة الديالكتيكية :

قانون الديالكتيك الاول يبدأ بملاحظة ان « لا شيء يبقى حيث هو ، ولا شيء يظل على ما هو » فمن يقول « ديالكتيك » ، يقول حركة وتغير . وبالتالي عندما يدور الكلام على تبني وجهة النظر الديالكتيكية ، هذا يعني تبني وجهة نظر الحركة والتغير : فعندما نريد دراسة الاشياء وفقا للديالكتيك ، سندرسها في حركاتها وفي تغيرها .

هذه تفاحة . ثمة وسيلتان لدراساتها : من وجهة النظر الميتافيزيقية من جهة ، ومن جهة اخرى من وجهة نظر الديالكتيك .

في الحالة الاولى سنصف هذه الثمرة ، نصف لونها وشكلها . وسنعدد خصائصها ، سنتكلم عن طعمها الخ . . ثم نستطيع مقارنة التفاحة مع الاجاصة ، رؤية تشابهها والفروق بينهما ، ونستنتج اخيرا ان التفاحة هي

التفاحة والاجاصة هي الاجاصة . هكذا درست الاشياء في الماضي ، وتشهد على ذلك كتب عديدة .

اذا اردنا دراسة التفاحة من وجهة نظر الديالكتيك فسيكون ذلك من وجهة نظر الحركة : ليس حركة التفاحة عندما تتدحرج وتنتقل ، ولكن في حركة تطورها عندئذ نلاحظ ان التفاحة الناضجة لم تكن دائما على ما هي عليه . لقد كانت تفاحة خضراء من قبل ، وكانت برعما قبل ان تكون زهرة ، وهكذا نصعد الى حالة شجرة التفاح في زمن الربيع . التفاحة لم تكن اذن دائما تفاحة ، التفاحة لها تاريخ ، وكذلك لن تبقى كما هي . اذا وقعت ستتعفن وتتحلل ، وستتحرر البذور التي ستعطي اذا سار كل شيء على ما يرام ، نبتة ، ثم شجرة . اذن لم تكن التفاحة دائما على ما هي عليه ولن تبقى ابدا كما هي .

هذا ما يسمى بدراسة الاشياء من وجهة نظر الحركة . الدراسة من وجهة نظر الماضي والمستقبل . وبدراستنا هكذا ، لا نرى التفاحة الحاضرة الا مرحلة انتقالية بين ما كانت عليه (الماضي) وما ستصبح عليه (المستقبل) .
لوضع هذا الشكل من النظر في المكان المناسب ، سنأخذ مثلين ايضا : الارض والمجتمع .

بتبنينا لوجهة النظر الميتافيزيقية نصف شكل الارض بكل تفاصيله . سنلاحظ ان البحار موجودة على سطحه ، كذلك اليابسة والبحار والجبال ، وسندرس طبيعة التربة . ثم سيكون بمقدورنا مقارنة الارض مع الكواكب الاخرى ، او مع القمر ، ونستخلص اخيرا ، الارض هي الارض .

بينما بدراستنا تاريخ الارض من وجهة نظر الديالكتيك ، سنرى انها لم تكن دائما على ما هي عليه ، وانها خضعت لتحولات وانها بالتالي ستخضع من جديد لتحولات اخرى في المستقبل . يجب اذن ان نعتبر اليوم ان حالة الارض الحالية ليست سوى مرحلة انتقالية بين التغيرات الماضية والتغيرات المستقبلية . مرحلة انتقالية تحصل فيها تغيرات غير مرئية بالرغم من كونها على درجة اكبر بكثير من التغيرات التي تحصل في نضوج التفاحة .

لنر الآن مثل المجتمع الذي يثير اهتمام الماركسيين بصورة خاصة .

لنطبق دائما منهجينا الاثنين : من وجهة نظر الميتافيزيقيا، سيقال لنا كان هناك دائما اغنياء وفقراء . وسنلاحظ وجود مؤسسات مصرفية كبيرة ومصانع ضخمة . سنعطي وصفا مفصلا للمجتمع الرأسمالي الذي سيشبه بالمجتمعات الماضية (الاقطاعيــة والرقّية) باحثين عن وجوه الشبه ووجوه الاختلاف وسيقال لنا : المجتمع الرأسمالي هو ما هو عليه .

من وجهة نظر الديالكتيك ، سنعلم ان المجتمع الرأسمالي لم يكن دائما ما هو عليــه . واذا لاحظنا مجتمعات اخرى عاشت زمنا في المــاضي ، فذلك لنستنتج منها ان المجتمع الرأسمالي ككـل المجتمعات ليس نهائيـا ولا يملك اساسا مقدسا ، وليس هو بالنسبة لنا ، على العكس ، سوى واقع مؤقت ، سوى انتقال بين الماضي والحاضر .

نـرى ، بهـذه الامثلــة القليلــة ، ان اعتبـار الاشياء مـن وجهـة نظر الديالكتيك ، هو اعتبار كل شيء مؤقتا ، كشيء له تاريخ في الماضي ويجب ان يكون له تاريخ في المستقبل ، له بداية ويجب ان يكون له نهاية .

٢ ـ « ليس من شيء نهائي ، مطلق ، مقدس بالنسبة للديالكتيك . . »

ليس ثمة من شيء نهائي ، مطلق ، مقدس ، بالنسبة للديالكتيك . يظهر الديالكتيك تهافت كل شيء والتهافت في كل شيء.ليس ثمة من شيء سوى السيرورة المستمرّة للصيرورة والانتقال[1]

هذا تعريف يشير الى ما رأينا وما سندرس :

« ليس من شيء نهائي بالنسبة للديالكتيك » هذا يعني ان كل شيء بالنسبة للديالكتيك له ماض وسيكـون له مستقبل ، وان الشيء بالتالي لا يوجد مرة واحدة والى الابد ، وان ما هو عليـه اليوم ليس بنهائي . (امثلة التفاحة ، الارض والمجتمع) .

فليـس من سلطة في العالم او في ما وراء العالم ، تستطيع بالنسبة

١ ـ قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ـ ص ١٠

للديالكتيك تثبيت الاشياء في حالة نهائية . اذن « لا شيء مطلقاً » (« مطلق » تعني : الذي لا يخضع لاي شرط ، اذن كلي ، خالد ، كامل) .

«لا شيء مقدساً » هذا لا يعني ان الديالكتيك يحتقر كل شيء . كلا ! . فالشيء المقدس هو شيء نعتبره ثابتا ولا يجب لمسه او مناقشته بل احترامه فقط. المجتمع الرأسمالي مثلا -هو« مجتمع مقدس ».يقول الديالكتيك بأن لا شيء يفلت من الحركة ، من التغير ، من تحولات التاريخ .

« تهافت » تأتي من المتهافت اي الذي يقع ، شيء متهافت هو شيء شاخ ويجب ان يختفي . الديالكتيك يظهر لنا ان المتهافت لم يعد لوجوده من سبب «

وان كل شيء معد للزوال . من هو شاب يصبح هرما ، وما هو في حياة اليوم يموت غداً ، ولا شيء يوجد بالنسبة للديالكتيك « الا السيرورة المستمرة للصيرورة والانتقال » .

اذن ان نتبنى وجهة نظر الديالكتيـك ، هو ان نعتبر ان لا شيء خالداً عدا التغير . وان نعتبر ان ليس من شيء خاص يستطيع ان يكـون خالدا الا « الصيرورة » .

ولكن ما هي « الصيرورة » التي تكلّم عنها انجلس في تعريفه ؟

رأينا ان للتفاحة تاريخا . لنأخذ الآن ، على سبيل المثال ، قلما ؛ هذا القلم له ايضا تاريخه .

هذا القلم الذي تأكل اليوم كان جديدا ، الخشب الذي صنع منه خرج من لوح خشب ، وهذا اللوح خرج من شجرة . نرى اذن ان لكل من التفاحة والقلم تاريخه ، وان لا هذا ولا ذاك كان دائما على ما هو عليه الآن . ولكن هل من فرق بين هذين التاريخين ؟ طبعا ! .

التفاحة الخضراء اصبحت ناضجة . هل كانت تستطيع ، وهي خضراء ، وفيما اذا كان كل شيء على ما يرام ، هل كانت تستطيع ان لا تنضج ؟ كلا . يجب ان تنضج ، كما انه يجب ان تتعفن عندما تقع على الارض ، وان تحرر بذورها .

بينما الشجرة التي انبثق منها القلم يمكن ان تصير لوحا ، وهذا اللوح يمكن ان لا يصير قلما ، والقلم نفسه يمكن ان يبقى تاما ، وان لا يبرى .
نلاحظ اذن فرقا بين هذين التاريخين . بالنسبة للتفاحة ، التفاحة الخضراء، هي التي اصبحت ناضجة ، اذا لم يحدث شيء غير طبيعي ، والزهرة هي التي اصبحت تفاحة اذن فيما لو توفر طور ما يتبعه بالضرورة طور آخر، لا مفر منه (اذا لم يوقف التطور اي شيء آخر) .

في تاريخ القلم ، على العكس ، الشجرة يمكنها ان لا تصير لوحا ، وان لا يصير اللوح قلما ، وان لا يبرى القلم . اذن فيما لو توفر طور ما ، يمكن ان لا يتبعه الطور الاخر . واذا مر تاريخ القلم بهذه الأطوار فان ذلك كان بفعل تدخل خارجي ـ تدخل الانسان .

في تاريخ التفاحة ، نجد اطوارا تتتالى ، الطور الثاني ينجم عن الاول الخ . تبعاً « للصيرورة » التي يتكلم عنها انجلس . في تاريخ القلم ، الأطوار تتجاور بدون ان ينجم احدها عن الآخر . اما التفاحة فهي تتبع سيرورة طبيعية .

٣ ـ السيرورة

(كلمة مشتقة من اللاتينية والتي تعني : سير الى الامام ، او فعل التقدم ، او الرقي)

لماذا اصبحت التفاحة الخضراء ناضجة ؟ بسبب ما تحتوي . بسبب الترابط الداخلي الذي يدفع التفاحة الى النضوج ، ولانها كانت تفاحة قبل ان تكون ناضجة فهي لا تستطيع الا ان تنضج .
عندما نتفحص الزهرة التي ستصير تفاحة ، ثم التفاحة الخضراء التي ستصير ناضجة نلاحظ ان هذا التسلسل الداخلي الذي يدفع التفاحة في تطورها ، يعمل تحت وطأة القوى الداخلية المسماة الدينامية الذاتية . هذا يعني ، قوى تتأتى من الكائن ذاته .

عندما كان القلم لوحا من خشب ، وجب تدخل الانسان لجعله قلما ، لان اللوح لا يمكنه ابدا ان يتحول من ذاته الى قلم . فلم يكن هناك قوى داخلية

دينامية ذاتية ، لم يكن هناك من سيرورة . فالذي يقول اذن : ديالكتيك ، لا يقول فقط حركة بل ايضا دينامية ذاتية .

هكذا نرى ان الحركة الديالكتيكية تتضمن السيرورة والدينامية الذاتية التي هي الاساس فيها ، لان ليست كل حركة ديالكتيكية . وليس كل تغير ديالكتيكيا. فاذا اخذنا برغوتا لندرسه من وجهة نظر الديالكتيك ، سنقول انه لم يكن دائما على ما هو عليه ، ولن يكون على ما هو عليه ، فاذا سحقناه ، سيكون هناك طبعا تغير بالنسبة له ، لكن هل سيكون هذا التغير ديالكتيكيا؟ كلا . فبدوننا لن يسحق ، هذا التغير اذن ليس ديالكتيكيا وانما ميكانيكي .

علينا اذن ان ننتبه جيدا عندما نتكلم عن التغير الديالكتيكي ، نحن نعتقد انه اذا استمرت الارض في الوجود ، سيحل مكان المجتمع الرأسمالي المجتمع الاشتراكي ثم الشيوعي ، سيكون ذلك تغيرا ديالكتيكيا . لكن اذا اختفت الارض ، سيختفي المجتمع الرأسمالي ليس بتغير دينامي ذاتي ولكن بتغير ميكانيكي .

بترتيب آخر للافكار نقول : ان هناك انضباطا ميكانيكياً عندما لا يكون هذا الانضباط طبيعي ، ونقول ان الانضباط دينامي ذاتي عندما يكون موافقا عليه بحرية ، اي عندما يتأتى من وسطه الطبيعي . ان انضباطا ميكانيكياً يكون مفروضا من الخارج هو انضباط آت من الزعماء المختلفين عمّن يحكمونهم . (نفهم هكذا كيف ان الانضباط غير الميكانيكي ، الانضباط الدينامي الذاتي ليس بمتناول جميع التنظيمات !)

علينا ان نتجنب اذن استخدام الديالكتيك بشكل ميكانيكي . وهذا ميل يتأتى لنا من عادتنا في التفكير الميتافيزيقي . فلا يجب الترديد كالببغاء ان الاشياء لم تكن دائما كما هي . عندما يقول ديالكتيكي هذا عليه ان يبحث في الوقائع ما كانت عليه الاشياء قبلاً . لان قولا كهذا ليس نهاية التعليل ، وانما بداية الدراسات لاكتشاف ما كانت عليه الاشياء بدقة متناهية .

لقد حقق ماركس وانجلس ولينين دراسات طويلة ودقيقة في المجتمع الرأسمالي وما كان عليه قبلهم . فلاحظوا التفاصيل البسيطة جدا ، ليدونوا

التغيرات الديالكتيكيـة . لقد حقق لينين دراسات دقيقة وراجع احصاءات عديـدة ، وذلك من اجل ان يصف وينتقد التغيرات في المجتمع الرأسمالي ويحلل المرحلة الامبريالية .

فعندما نتكلم على الدينامية الذاتية ، علينا ان لا نجعل منها جملة ادبية ، علينا ان لا نستعمل هذه الكلمة الا بدراية والى اولئك الذين يفهمونها تماماً .

اخيرا بعد ان رأينا ، بدراستنا لشيء ما ، ما هي تغيراته الدينامية الذاتية ، وبعد ان قلنا ما هو التغير الذي لاحظناه ، يجب ان ندرس ونبحث من ايـن يتأتى كونه ديناميا ذاتيا .

لذلك فان الديالكتيك والابحاث والعلوم مرتبطة بصورة دقيقة .

فالديالكتيك ليس وسيلة لشرح الاشياء ومعرفتها دون دراستها ، ولكنه وسيلة للدرس الجيد ولتحقيق مشاهدات قيمة بالبحث عن البداية والنهاية للاشياء ، من ابن تتأتى والى اين تسير .

الفصل الثالث

القانون الثاني : الفعل المتبادل

١ ـ ترابط السيرورات
٢ ـ الاكتشافات الكبيرة في القرن التاسع عشر
أ ـ اكتشاف الخلية الحية ونموها .
ب ـ اكتشاف تحول الطاقة
ج ـ اكتشاف التطور عند الانسان والحيوانات
٣ ـ التطور التاريخي او التطور الحلزوني
٤ ـ خلاصة .

١ ـ ترابط السيرورات :

رأينا في معرض قصة التفاحة ، ما هي السيرورة ، فلنعد الى هذا المثل بحثنا من ايـن اتت التفاحة ، وكـان علينا في ابحاثنا ان نعود صعدا حتى الشجرة . لكن مشكلة البحث تطرح نفسها ايضا بالنسبة للشجرة . فدراسة التفاحة تقودنا الى دراسة اصول الشجرة ومصائرها . من اين تأتي الشجرة ؟ من التفاحة . تأتي من تفاحة سقطت ، وتعفنت لتولد نبتة ، وهذا يقودنا لدراسة التربة والظروف التي استطاعت ان تعطي فيها البذور نبتة ، وتأثيرات الهواء والشمس الخ . . وهكـذا انطلاقا من دراسة التفاحة ، قادتنا هذه الدراسة الى فحص التربة عابرين من سيرورة التفاحة الى سيرورة الشجرة ، وهذه ترتبط بدورها مع سيرورة الارض . لدينا ما يسمى : « ترابط السيرورات » . وهذا سيتيح لنا صيـاغة هذا القانون الثاني للديالكتيـك ودراسته : قانون الفعل المتبادل . ولنأخذ مثلا على ترابط السيرورات ، بعد

مثل التفاحة ، مثل الجامعة العمالية في باريس .

اذا درسنا هذه المدرسة من وجهة نظر الديالكتيك ، سنبحث من اين تأتي ، وسيكون لدينا جواب في اول الامر : في خريف ١٩٣٢ ، قرر جمع من الرفاق تأسيس جامعة عمالية في باريس لدراسة الماركسية .

ولكن كيف تكونت لدى هذه اللجنة من الرفاق فكرة تدريس الماركسية ؟ طبعا لان الماركسية موجودة . ولكن مم تأتى الماركسية اذن ؟

نحن نرى ان البحث عن ترابط السيرورات يجرنا الى دراسة دقيقة جدا وكاملة . اكثر من ذلك : ببحثنا من اين تأتي الماركسية ، نتوصل للملاحظة ان هذه العقيدة هي وعي البروليتاريا ، ونرى (اذا كنا مع الماركسية او ضدها) ان البروليتاريا موجودة اذن . وهكذا سنطرح اذن من جديد السؤال : من اين تأتي البروليتاريا ؟

نحن نعلم انها تأتي من نظام اقتصادي ، الرأسمالية . ونعلم ان انقسام المجتمع الى طبقات وصراع الطبقات ، لم يتولد كما يدعي خصومنا عن الماركسية ، بل على العكس ، الماركسية لاحظت وجود صراع الطبقات هذا واستمدت قوتها من البروليتاريا الموجودة .

من سيرورة الى سيرورة اذن ، نصل لتفحص شروط وجود الرأسمالية . لدينا هكذا ترابط سيرورات يبين لنا ان كل شيء يؤثر على كل شيء . هذا هو قانون الفعل المتبادل .

وكخلاصة لهذين المثلين ، مثل التفاحة ومثل الجامعة العمالية في باريس لنر كيف كان يتصرف ميتافيزيقي ما .

في مثل التفاحة ، لم يكن يستطيع الا ان يفكر « من اين تأتي التفاحة ؟» وكان سيرضى بالجواب : « التفاحة تأتي من الشجرة » . ولم يكن سيفتش ابعد من ذلك .

بالنسبة للجامعة العمالية ، كان سيرضى بالقول عن اصلها ، بانها اسست بواسطة جماعة من الناس تريد « افساد الشعب الفرنسي » او هذيانات اخرى .

لكن الديالكتيكي يرى جميع ترابطات السيرورات التي تفضي من جهة الى التفاحة ، ومن جهة اخرى الى الجامعة العمالية . ويربط الواقعة الخاصة والتفصيل بالكل .

يربط التفاحة بالشجرة ، ويعود صعدا الى ابعد من ذلك ، حتى الطبيعة بمجملها . التفاحة ليست فقط ثمرة شجرة التفاح ، ولكنها ايضا ثمرة الطبيعة باسرها .

الجامعة العمالية ليست فقط « ثمرة » البروليتاريا ، ولكن ايضا « ثمرة » المجتمع الرأسمالي .

نرى اذن ان الديالكتيكي سيرى العالم كمجموعة من السيرورات ، على عكس الميتافيزيقي الذي يتصور العالم كمجموعة من الاشياء المتحجرة . واذا كانت وجهة نظر الديالكتيكي صحيحة بالنسبة للعلوم وللطبيعة ، فهي ايضا صحيحة بالنسبة للمجتمع .

« ان الطريقة القديمة في البحث والتفكير التي يسميها هيجل « ميتافيزيقا » والتي قامت بصورة رئيسية بدراسة الاشياء المعتبرة جاهزة ، منتهية ، ثابتة والتي ما زالت بقاياها راسخة في العقول بثبات ، قد كان لها في زمانها تبرير تاريخي كبير »[1] .

نتيجة لذلك درست الاشياء وكذلك المجتمع ، في هذه الحقبة ، كمجموعة من « الاشياء المعطاة الثابتة » اشياء لا تتغير فحسب ، انما هي ، وخاصة في المجتمع ليست معدة للاختفاء .

لقد اشار انجلس الى هذه الاهمية الرئيسية للديالكتيك :

« ان الفكرة الكبرى الاساسية ـ القائلة ان العالم لا يتكون من اشياء جاهزة منجزة ، بل يتكون من مجموعة سيرورات ، حيث الاشياء ، التي تبدو ثابتة ، وكذلك انعكاسها في الدماغ ، اي الافكار ، تتغير على الدوام ، تنشأ وتزول ، وحيث التطور سيشق في آخر المطاف طريقا لنفسه رغم جميع

١ ـ انجلس : لودفيغ فيورباخ ـ ص ٤٩

الاعراض الظاهرة ورغم الخطوات المؤقتة الى الوراء »[٢]

فيجب ان لا نعتبر المجتمع الرأسمالي ، هو الآخر ، كمجموعة من الاشياء المتحجرة ، بل على العكس يجب ان يدرس ايضاً كمجموعة من السيرورات .

لقد فهم الميتافيزيقيون ان المجتمع الرأسمالي لم يكن دائما موجودا ، وقالوا ان له تاريخا ، ولكنهم ظنوا انه بظهوره ، انتهى تطور المجتمع وان المجتمع سيبقى من الآن فصاعدا « ثابتاً » . اعتبروا جميع الاشياء منجزة وليست كبداية لسيرورة جديدة . فقصة خلق العالم بواسطة الله هي تفسير للعالم كمجموعة من الاشياء المنجزة . لقد حقق الله مهمة ناجزة في كل يوم . فصنع النباتات والحيوانات والانسان ، دفعة واحدة : من هنا نظرية الثبوتية .

الديالكتيكي يحاكم بشكل مضاد . هو لا يعتبر الاشياء « كأشياء ثابتة » لكن في « حركة » . لا شيء منجز البتة بالنسبة له ، الشيء هو دائما نهاية سيرورة وبداية سيرورة اخرى ، في طريق التحول والنمو . لذلك نحن متأكدون من تحول المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي . لا شيء منجز بصورة نهائية . المجتمع الرأسمالي هو نهاية سيرورة وسيتبعه المجتمع الاشتراكي ثم المجتمع الشيوعي ، وهكذا . فالتطور موجود وسيوجد بصورة متواصلة . لكن يجب الانتباه هنا الى عدم اعتبار الديالكتيك كشيء قدري بحيث يمكن ان نستنتج : « بما انكم متأكدون جدا من التغيير الذي ترغبون فيه ، فلماذا تناضلون؟ » . لأنه كما قال ماركس : « لتوليد المجتمع الاشتراكي يلزم مولد » ، من هنا ضرورة الثورة . والنضال العملي .

فالاشياء ليست بهذه البساطة يجب ان لا ننسى دور الناس الذين يستطيعون تعجيل او تأخير هذا التحول (سنرى هذه المسألة في الفصل الخامس من هذا القسم عندما سنتكلم عن المادية التاريخية) .

ما نلاحظه في الوقت الحاضر ، هو ترابط السيرورات في جميع الاشياء ، هذا الترابط الذي يحدث بالقوة الداخلية للاشياء (الدينامية الذاتية) ذلك لانه ـ

٢ ـ قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٨

ونحن نصر على هذا ـ لا شيء منجزاً بالنسبة للديالكتيكي . .

يجب اعتبار تطور الاشياء وكأنها لن تبلغ المشهد النهائي ابدا . ففي نهاية كل مسرحية في العالم يبتديء المشهد الاول لمسرحية اخرى . وبكلمة اصح ، هذا المشهد الاول ابتدأ مع آخر مشهد للمسرحية السابقة . .

٢ ـ الاكتشافات الكبيرة في القرن التاسع عشر :

ان الاكتشافات التي حققت في القرن التاسع عشر ، وخاصة الاكتشافات الثلاثة الكبيرة في هذه الحقبة ، والتي اشار اليها انجلس في كتابه لودفيغ فيورباخ[٣] ، ان هذه الاكتشافات ، كما نعلم ، هي التي حددت التخلي عن الذهنية الميتافيزيقية ، وهي التي اجبرت العلماء ، ثم ماركس وانجلس على اعتبار الاشياء في حركتها الديالكتيكية .

أ ـ اكتشاف الخلية الحية ونموها[٤] .

قبل هذا الاكتشاف اتخذت « الثبوتية » كأساس للتعليل . فاعتبرت الانواع كأنها غريبة عن بعضها . ثم ميز بوضوح بين المملكة الحيوانية من جهة ، والمملكة النباتية من جهة اخرى .

ثم حصل الاكتشاف الذي اتاح تحديد هذه الفكرة عن « التطور » ، الفكرة التي كان قد استشفها مفكرو القرن الثامن عشر وعلماؤه ، والتي اتاحت لنا ان نفهم ان الحياة مصنوعة من تتالي الموت والولادة ، وان كل كائن حي هو تجمع من الخلايا ، هذه الملاحظة لم تسمح ببقاء اي حاجز بين الحيوانات والنباتات وطردت هكذا التصور الميتافيزيقي .

٣ - انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٠

٤ - شوان وشلايدن هما اللذان اقاما الاتصال بين المملكتين الكبيرتين للطبيعة الحية وذلك باكتشافهما للخلية العضوية « الوحدة التي ينمو فيها بالتكاثر والتحايز كل الجسم النباتي والحيواني» .

ب ـ اكتشاف تحول الطاقة

ظن العلم قديما ان الصوت والحرارة والضوء مثلا ، هي غريبة عن بعضها بصورة كاملة . لكن اكتشف ان هذه الظاهرات الاخرى تستطيع ان تتحول احداها في الاخرى ، وان هناك سيرورات في المادة الجامدة كما في الطبيعة الحية . هذا الكشف هو ايضا ضربة موجهة للذهنية الميتافيزيقية .

ج ـ اكتشاف التطور عند الانسان والحيوان

يقول انجلس ان داروين يبين ان جميع منتجات الطبيعة هي نقطة وصول لسيرورة طويلة من تطور الاجنة الوحيدة الخلية في الاصل : وكل شيء هو نتاج سيرورة طويلة اصلها في الخلية .

ويستنتج انجلس انه بفضل هذه الاكتشافات الثلاثة الكبرى نستطيع تتبع ترابط جميع الظاهرات في الطبيعة وليس ذلك في مختلف الميادين فحسب ، بل ايضا بين مختلف الميادين .

فالعلوم هي التي اتاحت اذن اعلان قانون الفعل المتبادل .

ليس من قطع بين الممالك الثلاث . النباتية والحيوانية والمعدنية . بل سيرورات فقط . كل شيء يترابط وهذا صحيح بالنسبة للمجتمع . فمختلف المجتمعات التي مرت في تاريخ الناس يجب ان تعتبر كتتابع لترابط سيرورات ، احداها تخرج بالضرورة عن التي سبقتها .

يجب ان نحفظ اذن : ان العلم والطبيعة والمجتمع ، يجب ان ينظر اليها كترابط سيرورات ، وان المحرك الذي يعمل لنمو هذا الترابط هو الدينامية الذاتية .

٣ ـ النمو التاريخي او النمو الحلزوني

اذا تفحصنا عن كثب السيرورة التي بدأنا بمعرفتها ، نرى ان التفاحة هي نتيجة ترابط للسيرورات . من اين تأتي التفاحة ؟ تأتي من الشجرة . من اين تأتي الشجرة ؟ من التفاحة . يمكن الظن اذن ان لدينا حلقة مفرغة ندور فيها لنعود دائما الى نفس النقطة . شجرة تفاحة وتفاحة شجرة . كذلك اذا اخذنا

مثل البيضة والدجاجة . من اين تأتي البيضة ؟ من الدجاجة . من اين تأتي الدجاجة ؟ من البيضة .

اذا اعتبرنا الاشياء هكذا ، لن يكون هناك سيرورة ، لكن حلقة ، وهذا المظهر اعطى فكرة « العود الابدي » . اي اننا سنعود دائما الى النقطة نفسها ، نقطة الانطلاق .

لكن لنر بدقة كيف تطرح المشكلة .

١ ـ هذه تفاحة .
٢ ـ التفاحة بتحللها . تولد شجرة او اشجارا .
٣ ـ ليس كل شجرة تعطي تفاحة ، بل تفاحا .

اذن لا نعود ابدا الى نقطة الانطلاق نفسها . نعود الى التفاحة ولكن على صعيد آخر .

كذلك اذا انطلقنا من الشجرة ، سيكون لدينا :

١ ـ شجرة تعطي .
٢ ـ تفاحا . وهذا التفاح سيعطي .
٣ ـ اشجارا .

هنا ايضا ، نعود الى الشجرة ، ولكن على صعيد آخر ، فوجهة النظر اتسعت .

ليس لدينا اذن حلقة كما تميل المظاهر لجعلنا نظن ذلك ، ولكن هناك سيرورة تطور سنسميه التطور التاريخي . التاريخ يظهر ان الوقت لا يمر بدون ان يترك اثرا . الزمن يمر لكن التطورات نفسها لا تعود . فالعالم يكون تطورا تاريخيا وكذلك الطبيعة والمجتمع ، تطورا نسميه في اللغة الفلسفية « حلزونيا » .

تستخدم هذه الصورة لتثبيت الافكار . انها إستعارة لتوضيح هذه الواقعة . ان الاشياء تتطور وفقا لسيرورة دائرية ، لكنها لا تعود ابدا الى نقطة الانطلاق، بل تعود قليلا الى اعلى، وعلى صعيد آخر ، وهكذا دواليك مما يعطي شكلا حلزونيا صاعدا.

اذن العالم يتطور تطورا تاريخيا « حلزونيا » وكذلك الطبيعة والمجتمع والذي يحرك هذا التطور هو ـ ويجب ان لا ننسى هذا ـ الدينامية الذاتية .

٤ ـ خلاصة :

درسنا في الفصول الاولى في الديالكتيك القانونين الاولين : قانون التغير ، وقانون الفعل المتبادل . وقد كان ذلك ضروريا لنستطيع التصدي لدراسة قانون التناقض . لان هذا القانون هو الذي سيتيح لنا فهم القوة التي تحرك « التغير الديالكتيكي » ، الدينامية الذاتية .

في الفصل الاول الخاص بدراسة الديالكتيك ، رأينا لماذا خضعت هذه النظرية للتصور الميتافيزيقي وقتا طويلا . ولماذا كانت مادية القرن الثامن عشر ميتافيزيقية . والآن نفهم بصورة أفضل ، وبعد ان رأينا بسرعة الاكتشافات الثلاثة الكبرى للقرن التاسع عشر ، والتي اتاحت تطور المادية لتصبح ديالكتيكية ، نفهم الآن لماذا كان ضروريا ان يعبر تاريخ الفلسفة المادية الحقبات الثلاث الكبرى التي نعرفها :

١ ـ مادية العصور القديمة (نظرية الذرات) .
٢ ـ مادية القرن الثامن عشر ميكانيكية وميتافيزيقية . لنصل اخيرا الى ،
٣ ـ المادية الديالكتيكية .

كنا قد اكدنا ان المادية تولدت من العلوم وارتبطت بها . نستطيع بعد هذه الفصول الثلاثة رؤية كم كان ذلك صحيحا . لقد رأينا في دراستنا للحركة وللتغير الديالكتيكي ، ثم في دراستنا لقانون الفعل المتبادل ، ان جميع تعليلاتنا مرتكزة على العلوم .

واليوم ، حيث الدراسات العلمية هي متخصصة حتى النهاية ، وحيث العلماء (الذين يجهلون الديالكتيك بصورة عامة) لا يستطيعون في بعض الاحيان فهم اهمية اكتشافاتهم الخاصة بالنسبة لمجمل العلوم ، يأتي دور الفلسفة . التي مهمتها ، كما قلنا ، اعطاء تفسير للعالم وللمشكلات الاكثر عمومية . وتلك مهمة المادية الديالكتيكية بصورة خاصة، وهي ان نجمع كل الاكتشافات الخاصة بكل علم من العلوم لتحقق توليفا ، وتعطي بهذا التوليف نظرية تجعلنا اكثر فاكثر «اسياد الطبيعة ومالكيها» كما يقول ديكارت»

الفصل الرابع

القانون الثالث ـ التناقض

١ ـ الحياة والموت .
٢ ـ الاشياء تتحول الى ضدها .
٣ ـ اثبات ، نفي ، ونفي النفي .
٤ ـ تلخيص .
٥ ـ وحدة الاضداد .
٦ ـ اخطاء يجب تجنبها .
٧ ـ النتائج العملية للديالكتيك .

رأينا ان الديالكتيك يعتبر الاشياء وكأنها في تغير دائم ، وفي تطور مستمر ، وبكلمة واحدة خاضعة لحركة ديالكتيكية (القانون الاول) .

هذه الحركة الديالكتيكية ممكنة لان كل شيء ليس ، في اللحظة التي ندرسه فيها ، سوى حصيلة لترابط السيرورات ، اي ترابط الاطوار التي يخرج بعضها عن بعض . وبدفعنا لدراستنا الى الامام ، رأينا ان ترابط السيرورة هذا يتطور حتما مع الوقت الى حركة تتقدم « بالرغم من الرجوع المؤقت » الى الخلف .

وقد دعونا هذا التطور « تطورا تاريخيا » او « حلزونيا » ونعلم ان هذا التطور يولّد ذاته بفضل الدينامية الذاتية .

ولكن ما هي قوانين الدينامية الذاتية الآن ؟ وما هي القوانين التي تتيح

للاطوار ان يخرج الواحد من الآخر ؟ هذا ما يسمى بـ « قوانين الحركة الديالكتيكية ».

ان الديالكتيك يعلمنا ان الاشياء ليست خالدة، وان للاشياء بداية ومرحلة نضوج وشيخوخة، وتنتهي بنهاية، هي الموت .

جميع الاشياء تمر في هذه الاطوار : ولادة ، نضج ، شيخوخة ، نهاية ، لماذا الامر كذلك ؟ لماذا ليست الاشياء خالدة ؟

هذا سؤال قديم شغفت به البشرية دوما . لماذا يجب ان نموت ؟ هذه الحتمية لم تفهم ، والناس ، عبر التاريخ ، حلموا بالحياة الابدية وحلموا بالوسائل التي تغير حالة الامر الواقع هذه ، فاخترعوا في العصور الوسطى الادوية السحرية (اكسير الشباب او اكسير الحياة).

لماذا اذن من ولد ملزم بالموت ؟ هذا قانون كبير للديالكتيك ، ولفهمه جيدا علينا ان نواجهه بالميتافيزيقيا .

١ ـ الحياة والموت :

من وجهة نظر الميتافيزيقا تعتبر الاشياء بشكل منعزل ، في حد ذاتها ، ولان الميتافيزيقيا تدرس الاشياء بهذا الشكل ، فهي تنظر اليها بشكل احادي الجانب اي من جانب واحد فقط . ولذلك نستطيع القول عن هؤلاء الذين يرون الاشياء من جانب واحد انهم ميتافيزيقيون . بايجاز ، عندما يتفحص ميتافيزيقي ما الظاهرة التي نسميها الحياة ، يقوم بعمله بدون ان يربط هذه الظاهرة بظاهرة اخرى . فهو يرى الحياة ، لاجل الحياة . وفي ذاتها . بشكل احادي الجانب ويراها من جانب واحد . واذا تفحص الموت سيفعل الشيء نفسه ، وسيطبق نظرته الاحادية الجانب وسيستنتج قائلا : الحياة هي الحياة ، والموت هو الموت . وبين الاثنين لا شيء مشتركاً فلا نستطيع ان نكون احياء وامواتا في الوقت ذاته ، لانهما شيئان متعارضان ومتضادان بشكل كامل .

رؤية الاشياء هكذا ، هي رؤيتها بشكل سطحي . فاذا تفحصناها عن كثب ، نرى اننا لا نستطيع معارضتها الواحدة بالاخرى ، ولا نستطيع فصلها هكذا بعنف ، بما ان التجربة والواقع يظهران لنا ان الموت يكمل الحياة وانه

يتأتى من الحي .

وهل تستطيع الحياة ان تخرج من الموت ؟ نعم . لأن عناصر الجسد الميت ستتحول لتولد حياة اخرى وستتحول لتستخدم اسمدة في الارض التي ستصبح اكثر خصوبة مثلا . فالموت ، في كثير من الحالات ، سيساعد الحياة ، وسيتيح لها ان تولد ، والحياة غير ممكنة ، حتى في الاجسام الحية نفسها، لولا التجدد الدائم للخلايا التي تموت بخلايا اخرى تتولد[1] .

تتحول الحياة والموت اذن بصورة دائمة احداهما في الاخرى ونلاحظ في كل الاشياء ثبات هذا القانون الكبير : الاشياء تتحول الى ضدها في كل مكان .

٢ ـ الاشياء تتحول الى ضدها :

الميتافيزيقيون يقابلون الاضداد ، لكن الواقع يبين لنا ان الاضداد تتحول واحدها في الآخر ، وان الاشياء لا تبقى هي ذاتها ، بل تتحول الى اضدادها .

فاذا تفحصنا الحقيقة والخطأ ، ظننا ان لا شيء مشترك بينهما ، الحقيقة هي الحقيقة ، وخطأ ما هو خطأ . هذه هي النظرية الاحادية الجانب ، التي بموجبها صحيح اننا لا نصادف اية تناقضات في الاشياء ما دمنا نأخذها في حالة السكون وبوصفها عديمة الحياة ، كلا على حدة ، متجاورة ومتعاقبة . واننا لنجد هنا بعض الخصائص التي هي مشتركة جزئياً ، ومتفاوتة جزئياً ، وربما متناقضة ، لكنها تكون في هذه الحالة موزعة بين اشياء متعددة ، وبالتالي فهي لا تنطوي بحد ذاتها على اي تناقض ، واننا لنستطيع ضمن حدود هذا المجال من المشاهدة ان نتدبر امورنا على اساس النمط العادي ، الميتافيزيائي في التفكير. بيد ان الوضع يختلف تماما حالما نأخذ الاشياء في حركتها، في تبدلها، في فعلها المتبادل بعضها في بعض. عندئذ تنخرط حالاً في التناقضات (قارن: انجلس: انتي دوهرنغ ص ١٤٤).

ومع ذلك اذا قلنا : « هاك انها تمطر !» يحصل في بعض الاحيان اننا لا ننهي

١ ـ انجلس : انتي دوهرينغ، ص ١٤٤

كلامنا حتى تكون قد توقفت عن المطر . هذه الجملة صحيحة عندما بدأناها ثم تحولت الى خطأ . (اليونان كانوا قد لاحظوا ذلك في السابق وقالوا : حتى لا نخطيء يجب ان لا نقول شيئا).

كذلك لنأخذ مثل التفاحة من جديد . نرى تفاحة ناضجة على الارض فنقول « هذه تفاحة ناضجة » . ومع ذلك هي على الارض منذ بعض الوقت وقد ابتدأت بالتحلل بشكل اصبحت معه الحقيقة خطأ .

وتعطينا العلوم ايضا امثلة عديدة عن قوانين كانت معتبرة « حقيقة » خلال سنوات عديدة ، وظهرت « أخطاء » ، بعد التقدم العلمي .

نرى اذن ان الحقيقة تتحول الى خطأ . ولكن هل يتحول الخطأ الى حقيقة ؟ في بداية الحضارة ، تصور الناس ، خاصة في مصر ، حروبا بين الآلهة ليفسروا طلوع الشمس وغروبها . هذا خطأ بمقدار ما نقول ان الآلهة يدفعون الشمس او يجرونها لجعلها تتحرك . لكن العلم يوضح اسباب هذا التعليل جزئيا بقوله انه هناك بالفعل قوى (فيزيائية محضة على كل حال) تحرك الشمس . فنرى اذن ان الخطأ ليس متعارضا مع الحقيقة بوضوح .

فاذا كانت الاشياء تتحول الى اضدادها ، فكيف يكون ذلك ممكنا ؟ كيف تتحول الحياة الى الموت؟

فاذا لم يكن هناك الا الحياة ، الحياة مئة في المئة ، فهي لا تستطيع ابدا ان تكون الموت ، واذا كان الموت نفسه تماما ، الموت مئة في المئة ، سيكون من المستحيل ان يتحول احدهما في الاخر. ولكن هناك ، موت في الحياة وايضا حياة في الموت .

واذا نظرنا الى ذلك عن كثب ، سنرى ان الكائن الحي مركب من خلايا ، وان هذه الخلايا متجددة دائما ، تختفي وتعود لتظهر في المكان نفسه . فهي تعيش وتموت في الكائن الحي بصورة مستمرة حيث يوجد في هذا الكائن اذن شيء من الموت وشيء من الحياة .

نعرف ايضا ان لحية الميت تتابع النمو ، كذلك الاظافر والشعر . هذه الظاهرات المميزة بوضوح تبرهن ان الحياة تستمر في الموت .

في الاتحاد السوفياتي ، يحفظون في ظروف خاصة دم جثة يستخدم في عملية نقل الدم : وهكذا بدم ميت نعيد صنع حي . نستطيع القول بالتالي انه في احشاء الموت توجد الحياة .

« الحياة هي ايضا تناقض » موجود في الاشياء والظاهرات نفسها « تناقض يطرح ويحل بصورة مستمرة : وعندما يتوقف التناقض ، تتوقف الحياة ايضا ويحل الموت[2] .

فلا تتحول الاشياء اذن احدها في الآخر فقط ، بل ان شيئا ما لا يكون ذاته فحسب ، بل شيئا آخر ايضا ، يكون هو ضده ، لان كل شيء يتضمن ضده .

فكل شيء يتضمن نفسه وضده في آن واحد .

فاذا مثلنا الشيء بدائرة ، سنحصل على قوة تدفع هذا الشيء نحو الحياة دافعة من المركز نحو الخارج مثلا (دفع). لكن سيكون لدينا ايضا قوى تدفع هذا الشيء في الاتجاه المعاكس ، قوى الموت دافعة من الخارج نحو المركز (ضغط).

هكذا،في داخل كل شيء، تتجاور القوى المتعارضة والمتناحرة .

ماذا يحدث بين هذه القوى ؟ تتصارع . وبالنتيجة ليس الشيء متحركا بقوة فاعلة باتجاه واحد ، ولكن كل شيء متحرك حقيقة بقوتين في اتجاهات متعاكسة . نحو اثبات الاشياء ونحو نفيها ، نحو الحياة ، ونحو الموت . وماذا يعني اثبات الاشياء ونفيها ؟

في الحياة قوى تساند الحياة ، وتميل نحو اثباتها ، كما ان في الاجسام الحية قوى تميل نحو نفي الحياة . في جميع الاشياء قوى تميل نحو الاثبات واخرى نحو النفي وبين وبين النفي والاثبات يوجد التناقض.

تلاحظ الديالكتيك اذن التغير ، ولكن لماذا تتغير الاشياء ؟ لانها ليست منسجمة مع نفسها ، لان هناك صراعا بين القوى ، بين المتناحرات

٢ - فارن انجلس انتي دوهرنغ : ص ١٤٥

الداخلية ، لان هناك تناقضا . هذا هو القانون الثالث للديالكتيك . الاشياء تتغير لانها تتضمن التناقض في ذاتها .

(اذا كنا مرغمين في بعض الاحيان على استعمال كلمات يقل فيها التعقيد او يكثر (كديالكتيك ودينامية ذاتية الخ) ، او الفاظ تظهر كأنها مناقضة للمنطق التقليدي عسيرة الفهم ، فليس لاننا نحب تعقيد الاشياء حبا بالتعقيد وتقليد البورجوازية في هذا[3] كلا . لكن هذه الدراسة بالرغم من كونها اولية تريد ان تكون كاملة قدر الامكان ، فنسمح بعد ذلك بقراءة الاعمال الفلسفية لماركس وانجلس ولينين التي تستعمل هذه الالفاظ ، تسمح بقراءتها بسهولة . وبما اننا ، في جميع الاحوال نريد استخدام لغة فلسفية غير مستعملة فنحن مهتمون بجعلها مفهومة للجميع في اطار هذه الدراسة) .

٣ ـ اثبات ، نفي ، ونفي النفي :

علينا ان نميز هنا بين ما يسمى بالمناقضة الكلامية الذي تعني انه عندما يقال لكم « نعم » تقولون « لا » والتناقض الذي رأيناه للتو والذي دعوناه التناقض الديكالكتيكي، أعني التناقض في الوقائع وفي الاشياء.

عندما نتكلم عن التناقض الموجود في قلب المجتمع الرأسمالي ، فهذا لا يعني ان بعضهم يقول نعم وبعضهم يقول لا بصدد بعض النظريات ، هذا يعني ان هناك تناقضا في الوقائع ، وان هناك قوى واقعية تتحارب : قوة تميل الى اثبات نفسها اولا ، وهذه هي الطبقة البورجوازية ، التي تطمح الى صيانة ذاتها ، ثم قوة اجتماعية ثانية تطمح إلى نفي الطبقة البورجوازية ، هي البروليتاريا . التناقض اذن هو في الوقائع، لان البورجوازية لا تستطيع ان توجد بدون ان تخلق ضدها، اي البرولتياريا . وكما يقول ماركس: «ان البورجوازية تنتج قبل كل شيء حفاري قبرها»[4].

لمنع هذا ، على البورجوازية ان تتراجع عن كونها ذاتها ، وهذا سيكون

٣ ـ راجع مقال موبلان في La Vie Ouvrière No du 14 oct 1937

٤ ـ كارل ماركس وفريدريك انجلس : بيان الحزب الشيوعي ـ دار التقدم ص ٥٦

حلفا . وبالتالي باثبات ذاتها تخلق البورجوازية نفيها الخاص بها .

لنأخذ مثلا البيضة التي باضتها دجاجة وحضنتها : نلاحظ ان النطفة الموجودة في البيضة تتطور تحت تأثير حرارة معينة وفي شروط معينة . هذه النطفة بتطورها ستعطي صوصا . وهكذا فان هذه النطفة هي سلفا نفي سابق للبيضة . نرى جيدا ان في البيضة قوتين : تلك التي تميل ان تبقى بيضة ، وتلك التي تميل ان تصبح صوصا . البيضة اذن في تنافر مع ذاتها . وكل الاشياء هي في تنافر مع ذاتها .

قد يظهر هذا الامر صعبا على الفهم ، لاننا معتادون على طريقة التعليل الميتافيزيقي. ولذلك علينا ان نبذل جهدا لنتعود من جديد على رؤية الاشياء في واقعها .

شيء ما يبدأ بكونه اثباتا يخرج من نفي . فالصوص هو اثبات يخرج من نفي البيضة . هذا طور من أطوار السيرورة ، لكن الدجاجة ستكون بدورها تحول الصوص ، وفي قلب هذا التحول سيكون هناك تناقض بين القوى التي تصارع حتى يصبح الصوص دجاجة ، والقوى التي تصارع حتى يبقى الصوص صوصا . فالدجاجة ستكون اذن نفي الصوص الذي خرج لتوه من نفي البيضة .

الدجاجة هي اذن نفي النفي ، وهذا هو السير العام لاطوار الديكالكتيك .

١ ـ اثبات ونقول ايضا الاطروحة .
٢ ـ نفي او الاطروحة النقيض .
٣ ـ نفي النفي او التوليف .

هذه الكلمات الثلاث تختصر التطور الديالكتيكي ، وسنستخدمها لنتمثل ترابط الاطوار ، ونشير الى ان كل طور هوتدمير للطور السابق .

فالتدمير هو نفي ، الصوص هو نفي البيضة ، لانه بولادته يدمر البيضة . سنبلة القمح كذلك هي نفي لحبة القمح . الحبة ستنبت في الارض ، هذا النبات هو نفي لحبة القمح التي ستعطي النبتة وهذه النبتة بدورها ستزدهر وتعطي سنبلة ، والسنبلة ستكون نفياً للنبتة او نفي النفي .

نرى اذن أن النفي الذي تكلم عنه الديالكتيك هو شكل مختصر للكلام عن التدمير . هناك نفي لما اختفى ، لما يدمر .

١ ـ الاقطاعية كانت نفيا للرقية .
٢ ـ الرأسمالية هي نفي للاقطاعية .
٣ ـ الاشتراكية هي نفي الرأسمالية .

كما ميزنا بالنسبة للتناقض بين مناقضة كلامية ، وتناقض منطقي ، يجب ان نفهم ما هو النفي الكلامي ، الذي يقول : « لا » والنفي الديكالكتيكي الذي يعني « التدمير » .

ولكن اذا كان النفي يعني تدميرا ، فلا يقصد بذلك اي تدمير كان ، ولكن يقصد بذلك التدمير الديالكتيكي ، وهكذا عندما نسحق البرغوث ، لا يموت بتدمير داخلي ، بنفي ديالكتيكي ، تدميره ليس نتيجة لاطوار دينامية ذاتية ، بل، هو نتيجة تغير ميكانيكي محض .

فالتدمير هو نفي اذا كان فقط نتيجة لاثبات او اذا انبثق منه ، وهكذا : البيضة المحضونة هي اثبات لما عليه البيضة وهي تتضمن نفيها . تصبح صوصا فتخرق القشرة وتدمرها ، هذا الصوص هو رمز للتدمير او لنفي البيضة .

نرى في الصوص قوتين متخاصمتين : « صوص » و« دجاجة » ، خلال تطور السيرورة الدجاجة تبيض البيض ومن هنا نفي النفي . ومن هذه البيضات ينطلق اذن ترابط جديد للسيرورات .

كذلك نحن نرى اثباتا بالنسبة للقمح ، ثم نفي ، ونفي للنفي .

وسنعطي مثلاً آخر على ذلك ، الفلسفة المادية .

في البدء ، نجد المادية بدائية وعفوية ، وبما انها جاهلة ، فهي تخلق نفيها الخاص اي المثالية . لكن المثالية التي تنفي المادية القديمة ستنفيها المادية الحديثة او المادية الديالكتيكية ، لان الفلسفة تتطور وستحدث هذه الفلسفة مع العلوم تدمير المثالية ، اذن هنا ايضا لدينا اثبات ونفي ، ونفي للنفي .

نلاحظ ايضا نفس الامر في تطور المجتمع .

نلاحظ في بدء التاريخ وجود مجتمع من الشيوعية البدائية ، مجتمع بلا طبقات قائم على الملكية المشتركة للارض . لكن هذا الشكل من الملكية يصير عائقاً لتطور الانتاج ، ويخلق بذلك بالذات نفيه الخاص : المجتمع الطبقي القائم على الملكية الخاصة وعلى استغلال الانسان للانسان . لكن هذا المجتمع يحمل ايضا في ذاته ، نفيه الخاص ، إلان التطور في وسائل الانتاج يجر معه ضرورة نفي انقسام المجتمع الى طبقات ونفي الملكية الخاصة . ونعود هكذا الى نقطة الانطلاق : ضرورة المجتمع الشيوعي ولكن على صعيد آخر ؛ في البدء كان لدينا نقص في المنتجات ، اليوم لدينا قدرة على الانتاج مرتفعة جدا .

لنلاحظ في هذا الموضوع انه ، بالنسبة لجميع الامثلة التي اعطيناها ، نعود فعلا الى نقطة الانطلاق ولكن على صعيد آخر (تطور حلزوني) صعيد اعلى .

نرى اذن ان التناقض هو قانون ديالكتيكي كبير . وان التطور هو صراع قوى متناحرة . وان الاشياء لا يتحول فقط احدها الى الآخر، بل كل شيء يتحول الى ضده . وان الاشياء متنافرة مع ذاتها ، لان صراعا بين القوى المتعارضة موجود في داخلها ، ولانها تحوي تناقضا داخليا .

ملاحظة :

علينا ان ننتبه الى هذا الامر : ان الاثبات والنفي ونفي النفي ليست سوى تعابير مختصرة لازمنة التطور الديكالكتيكي ، وانه لا يجب علينا ان نجوب العالم لنجد هذه الاطوار في كل مكان . لأننا لن نجدها جميعها دائما ، فنجد في بعض الاحيان الاولى فقط او الثانية ، لان التطور لم ينته بعد . اذن لا ننشد رؤية هذه التغيرات كما هي بصورة آلية في جميع الاشياء . لنحفظ خاصة ان التناقض هو القانون الكبير للديالكتيك . وهذا هو الاساسي .

٤ ـ تلخيص :

سبق ان علمنا ان الديالكتيك هو منهج في التفكير وفي التعليل والتحليل يتيح الملاحظة جيدا ، ويتيح الدراسة جيدا ، لانه يرغمنا على البحث عن مصدر كل شيء ووصف تاريخه .

طبعا ، كان للمنهج القديم في التفكير ، كما رأينا ضرورته في زمنه . لكن الدراسة في ضوء المنهج الديالكتيكي ،هي ولنعد ذلك، ملاحظة ان جميع الاشياء التي هي في ظاهرها فقط ثابتة ، ليست سوى ترابط للسيرورات حيث لكل شيء بداية ونهاية ، وحيث في كل شيء :

«يشق التطور في آخر المطاف طريقا لنفسه رغم جميع الاعراض الظاهرة ورغم الخطوات المؤقتة الى وراء[٥] » .

وحده الديالكتيك يتيح لنا فهم نمو الاشياء وتطورها ، وحده يتيح لنا فهم تدمير الاشياء القديمة وولادة الاشياء الجديدة . وحده فقط يفهمنا جميع التطورات في تحولاتها ، فيعرفنا بها ككل مكون من اضداد . فالنمو الطبيعي للاشياء والتطور بالنسبة للتصور الديكالكتيكي هو صراع دائم للقوى وللمبادىء المتعارضة .

فاذا كان القانون الاول بالنسبة للديالكتيك هو ملاحظة الحركة والتغير : « لا شيء يبقى كما هو ، ولا شيء يبقى حيثما هو » (انجلس) فإننا نعلم الان ان تفسير هذا القانون يكمن في كون الاشياء تتغير ليس فقط بتحولها بعضها في البعض الاخر ، ولكن بتحولها الى اضدادها ، فالتناقض هو اذن قانون ديالكتيكي كبير .

درسنا ما هو التناقض من وجهة نظر الديالكتيك ، ولكن علينا ان نصر عليه لنقدم بعض الايضاحات ، ونشير الى بعض الاغلاط التي يجب تجنبها .

من المؤكد انه علينا ان نعتاد هذا التأكيد ، المنسجم مع الحقيقة : علينا ان نعتاد تحول الاشياء الى اضدادها ، طبعا هذا الامر يصدم الفهم ، يثير دهشتنا ، لاننا معتادون على التفكير بالمنهج الميتافيزيقي القديم . لكننا رأينا لماذا الامر كذلك ، ورأينا بشكل مفصل ، وبواسطة الامثلة ان ذلك هو كذلك في الواقع ، ورأينا لماذا تتحول الاشياء الى اضدادها .

لذلك نستطيع القول والتأكيد انه اذا تحولت الاشياء وتغيرت وتطورت

٥ ـ انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٨

فذلك لانها في تناقض مع ذاتها ، ولانها تحمل نقيضها في ذاتها ، ولانها تحوي في ذاتها وحدة الاضداد .

٥ ـ وحدة الاضداد :

كل شيء هو وحدة اضداد .

ان تأكيد شيء كهذا يظهر خلفا لاول وهلة . « فالشيء وضده لا يملكان اي شيء مشتركاً» ، هكذا يُظَنُّ عموما . ولكن بالنسبة للديالكتيك، كل شيء هو ذاته وضده في الآن نفسه ، كل شيء هو وحدة اضداد ، وعلينا ان نشرح ذلك جيدا .

وحدة الاضداد ، بالنسبة للميتافيزيقي ، هي ضرب من المستحيل . فالاشياء مصنوعة من القماش نفسه بتن[illegible] له ، وهي منسجمة مع ذاتها . وها نحن نؤكد العكس ، فندرك ان الاشياء مصنوعة من قماشين ـ ذاتها واضدادها ـ وان فيها قوتين تتحاربان لان الاشياء ليست منسجمة مع ذاتها وتناقض ذاتها .

اذا اخذنا مثل الجهل والعلم اي المعرفة ، نعلم انه من وجهة نظر الميتافيزيقيا هذان شيئان متعارضان كليا ومتضادان . فالجاهل ليس بعالم ، والعالم ليس بجاهل .

ومع ذلك اذا نظرنا الى الوقائع ، نرى انها لا تفسح مجالا لتعارض صلب كهذا ، نرى ان الجهل كان مخيما في اول الامر ، ثم قدم العلم ، وثبت هنا ان الشيء تحول الى ضده : فتحول الجهل الى علم .

ليس من جهل بدون علم ، وليس من جهل مئة في المئة . فالفرد ، مهما يكن جاهلا ، يستطيع التعرف على مواد غذائية ، فليس هناك جهل مطلق . هناك دائما حصة للعلم في الجهل . فالعلم موجود قبل ذلك كنطفة في الجهل ، فالتأكيد اذن ، ان ضد الشيء في الشيء ذاته ، هو صحيح .

لننظر الآن الى العلم ، هل من الممكن وجود العلم مئة في المئة ؟ كلا ، نحن نجهل دائما شيئا ما : فلقد قال لينين : « موضوع المعرفة لا ينضب » ، هذا

يعني ان هناك حاجة للتعلم دائما . لا وجود للعلم المطلق . فكل معرفة وكل علم يتضمن قسما من الجهل[٦] .

ان ما يوجد في الواقع ، هو جهل نسبي ، وعلم نسبي ، خليط من العلم والجهل .

اذن لا نلاحظ تحول الاشياء الى اضدادها في هذا المثل بل وجود الاضداد او وحدة الاضداد في الاشياء نفسها .

نستطيع اخذ الامثلة التي رايناها سابقا من جديد : الحياة والموت ، الصواب والخطأ ، وسنلاحظ وجود وحدة الاضداد في هذه الحالة او تلك ، كما في كل الاشياء ، اي ان كل شيء يحتوي نفسه وضده في آن واحد . ولذلك سيقول انجلس :

« اذا تمسكنا دائما في البحث بوجهة النظر هذه ، فأن طلب الحلول الحاسمة والحقائق الخالدة يفقد ، بالنسبة لنا ، كل معنى الى الابد ، ونحن لا ننسى ابدا ان كل معارفنا المكتسبة محدودة بالضرورة ، وتحددها الظروف التي نكتسبها فيها ومع ذلك لم يبق الآن من الممكن ان تثير في نفوسنا فائق الاحترام تلك التناقضات المستعصية على الميتافيزيقيا القديمة التي لا تزال مع ذلك واسعة الانتشار حتى الآن ، كالتناقضات بين الحقيقة والخطأ ، بين الخير والشر ، بين التشابه والاختلاف ، بين الضرورة والعرض ، ونعلم ان لهذه التناقضات قيمة نسبية فقط ، اي ان ما هو معترف به في الوقت الحاضر كحقيقة ، له جانبه الخاطىء المختفي الآن ولكنه يظهر مع الزمن ، والمثل بالمثل ، فان ما هو معترف به الآن كخطأ ، له جانبه الحقيقي الذي بسببه كان من الممكن اعتباره سابقاً كحقيقة »[٧] .

هذا النص لانجلس يظهر لنا جيدا كيف يجب ان نفهم الديالكتيك والمعنى الحقيقي لوحدة الاضداد .

٦ ـ قصة العلوم هي قصة ابعاد الخطأ بصورة تدريجية اي استبداله بخطأ جديد لكنه اقل خلفا (انجلس) .

٧ ـ انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٤٨ ـ ٤٩

٦ ـ اخطاء يجب تجنبها :

يجب ان نفسر جيدا هذا القانون الكبير للديالكتيك الذي هو التناقض حتى لا نخلق سوء فهم للموضوع .

اولا ، يجب ان لا يفهم بشكل آلي ، فلا يظن ان ثمة الحقيقة بالاضافة الى الغلط ، الخطأ بالاضافة الى الصواب ، موجودة في كل معرفة .

اذا طبقنا هذا القانون على هذا الشكل ، سندعم اولئك الذين يقولون انه في كل الأراء ، هناك جزء من الخطأ مع جزء من الصواب وانه : « اذا انتزعنا ما هو خطأ يبقى ما هو صواب، ما هو جيد » . يقال ذلك في بعض الاوساط التي تدعي الماركسية ، حيث يظن ان الماركسية على حق في اظهارها ، المصانع والتروستات والبنوك التي تسيطر على الحياة الاقتصادية في الرأسمالية ، وانها على حق في القول ان هذه الحياة الاقتصادية تسير بشكل سيء ، لكنهم يضيفون ان ما هو خطأ في الماركسية هو صراع الطبقات : فلنترك جانبا نظرية صراع الطبقات وسيكون لدينا مذهب جيد . يقال ايضا ان الماركسية صحيحة وحقيقة اذا طبقت على دراسة المجتمع . لكن لماذا نخلطها بالديالكتيك ؟ هذا هو الجانب الخاطىء لننتزع الديالكتيك ولنحتفظ بباقي الماركسية بوصفه صواباً .

هذه تفسيرات ميكانيكية لوحدة الاضداد .

لنر ايضا مثلا آخر : ظن برودون ، بعد ان اخذ علما بنظرية الاضداد ، ان في كل شيء جانبا سيئا وجانبا حسنا . كما ان في المجتمع البورجوازية والبروليتاريا بصورة ثابتة : كان يقول : لننتزع ما هو سيء : البروليتاريا ، وهكذا اقام سيستامه عن الفروض التي يجب ان تخلق الملكية المجزأة : اي السماح للبروليتاريا بان تصبح مالكة ، بهذا الشكل لن يكون هناك الا البورجوازية ، وسيصبح المجتمع جيدا .

ومع ذلك نحن نعرف جيدا انه لا وجود للبروليتاريا بدون برجوازية ، وان البورجوازية لا توجد الا بها : هذان ضدان لا ينفصلان . وحدة الاضداد هذه هي داخلية ، حقيقية : هي وحدة لا تنفصم . فلا يكفي اذن ، للقضاء على الاضداد ان نقتطع هذا او ذاك . ففي مجتمع قائم على استغلال الانسان

للانسان ، توجد طبقتان متناحرتان بصورة الزامية : اسياد وعبيد في العصور القديمة ، اشراف واقنان في القرون الوسطى ، بورجوازية وبروليتاريا اليوم .

وللقضاء على المجتمع الرأسمالي ، ولتحقيق مجتمع بدون طبقات ، علينا القضاء على البورجوازيةوالبروليتاريا ، حتى نسمح للناس الاحرار ان يخلقوا مجتمعا اكثر تطورا من الناحية المادية والعقلية ، للسير نحو الشيوعية في شكلها الاسمى ، وليس لخلق شرعية « مساواتية في البؤس » كما يدعي خصومنا .

فعلينا اذن الانتباه . عندما نفسر او نطبق وحدة الاضدادعلى دراسة ما او على مثل ما ، نفي النفي مثلا ، علينا ان نتجنب تطبيقه الآلي او ايجاده في كل مكان . كذلك ايجاد وحدة الاضداد دائما وفي كل مكان . لان معارفنا محدودة جدا بصورة عامة ، ومن الممكن ان يؤدي بنا ذلك الى مآزق كثيرة .

المهم هو هذا المبدأ : الديالكتيك وقوانينه ترغمنا على دراسة الاشياء لاكتشاف تطورها ولاكتشاف القوى ، اي الاضداد التي تحدد هذا التطور . علينا اذن دراسة وحدة الاضداد المتضمنة في الاشياء . الوحدة هذه تعني القول : ان اى اثبات ليس بمطلق لانه يتضمن قسماً من النفي في ذاته . وهذا هو الاساس : الاشياء تتحول لانها تتضمن نفيها الخاص . فالنفي هو « المحول » والاشياء لا تتحول اذا لم تكن موجودة . وبما ان الاشياء تتحول في الواقع ، فيجب ان تتضمن مبدأ محولا . ولاننا نرى الاشياء تتطورنستطيع ان نؤكد وجوده مسبقا ، لكننا لا نستطيع اكتشاف هذا المبدأ بدون دراسة الشيء ذاته بصورة دقيقة ، لانه لا يملك المظهر نفسه في جميع الاشياء .

٧ ـ النتائج العملية للديالكتيك :

يرغمنا الديالكتيك عمليا اذن على اعتبار الاشياء ليس فقط من جانب واحد ، بل من جانبين : عدم اعتبار الحقيقة ابدا بدون الخطأ ، ولا العلم بدون الجهل . فخطأ الميتافيزيقيا الاكبر هو اعتبار جانب واحد للاشياء ، والحكم بشكل احادي الجانب . واذا ارتكبنا كثيرا من الاخطاء فذلك دائما بمقدار رؤيتنا للاشياء ، من جانب واحد ، ولاننا نقوم غالبا بتعليلات احادية الجانب .

واذا اكدت الفلسفة المثالية ان العالم لا يوجد الا في افكار الناس ، فيجب الاعتراف ان هناك اشياء لا توجد بالفعل الا في فكرنا . ذلك صحيح ، لكن المثالية ، هي الاحادية الجانب ، ولا ترى سوى هذا المظهر . لا ترى سوى الانسان الذي يختلق اشياء لا وجود لها في الواقع ، وتستنتج ان لا شيء خارج افكارنا : ان المثالية على حق في الاشارة لهذه الملكة في الانسان ، ولكنها لا ترى سواها ما دامت لا تطبق معيار الممارسة ابدا .

كذلك تخطىء الميتافيزيقيا لانها لا ترى الا جانبا واحدا للمشكلات . ترى الكون كميكانيك . هل الميكانيك موجود ؟ هل يلعب دورا كبيرا ؟ نعم ، المادية الميتافيزيقية على حق اذن في قول ذلك ، ولكن الخطأ في رؤية الحركة الميكانيكية فقط .

وبطبيعة الحال ، نحن ننزع لرؤية جانب واحد للاشياء وللناس . اذا حكمنا على رفيق ، فاننا لا نرى تقريبا الا جانبه الحسن او جانبه السيء . يجب ان نرى الجانبين ، وبدون ذلك ، لن نتمكن من ان يكون لدينا كادرات في التنظيمات . في الممارسة السياسية يؤدي منهج الحكم الاحادي الجانب الى التزمت . واذا صادفنا خصما ينتمي لتنظيم رجعي ، فسنحكم عليه في ضوء الحكم على رؤسائه ، ومن الممكن ان يكون بكل بساطة مستخدما ساخطا ومتذمرا يجب ان لا نحكم عليه وكأنه رب عمل فاشي كبير . نستطيع تطبيق هذه المحاكمة على ارباب العمل ونفهم انه ، اذ يظهرون سيئين لنا فذلك غالبا لانهم خاضعون ، هم انفسهم ، لبنية المجتمع ، وانه من الممكن ان يصبحوا مختلفين في ظروف اجتماعية اخرى .

اذا كنا نفكر في وحدة الاضداد ، فنحن سنعتبر الاشياء بمظاهرها المتعددة . فنرى ان هذا الرجعي ، هو رجعي من جهة ، وهو عامل من جهة اخرى وان لديه تناقضا . سنبحث وسنجد لماذا انتسب الى هذا التنظيم ، وسنبحث في الوقت نفسه لماذا كان عليه ان لا ينتسب ، وعندئذ سنحكم وسنناقش هذا بشكل اقل تزمتا .

يجب علينا اذن ، وفقا للديالكتيك ، اعتبار الاشياء من جميع الزوايا التي نستطيع تمييزها .

ولكي نوجز ، سنقول ، كنتيجة نظرية : الاشياء تتغير لانها تتضمن تناقضا داخليا (ذواتها واضدادها) الاضداد في نزاع . والتغيرات ستنشأ من هذه النزاعات ، فالتغير هو حل للنزاع .

الرأسمالية تحوي هذا التناقض الداخلي ، هذا النزاع بين البروليتاريا والبورجوازية ، التغير يفسر بهذا النزاع ، وتحول المجتمع الراسمالي الى مجتمع شيوعي هو القضاء على النزاع .

هناك تغير وحركة حيث يوجد تناقض . فالتناقض هو نفي الاثبات ، وعندما نحصل على الحد الثالث اي نفي النفي يظهر الحل ، لان سبب التناقض سيكون في هذه اللحظة مبعدا او متجاوزا .

نستطيع القول اذن : انه ، وان درست العلوم ، الكيمياء والفيزياء والبيولوجيا ، قوانين التغير الخاصة بها ، فان الديالكتيك يدرس قوانين التغير التي هي اكثر عمومية . انجلس يقول :

« ليس الديالكتيك شيئا آخر سوى علم القوانين العامة للحركة وللتطور في الطبيعة وفي المجتمع البشري وفي الفكر[8] » .

للقراءة

- انجلس : انتي دوهرنغ : « الجدلية - انكار الانكار » : ص ١٥٥
- لينين : كارل ماركس ومذهبه . المختارات بالعربية . دار التقدم .

٨ - قارن انجلس : انتي دوهرنغ ص ١٦٩ .

الفصل الخامس

القانون الرابع
تحول الكمية الى كيفية او قانون التقدم بالقفز

يبقى علينا الآن ، وقبل مباشرة مشكلة تطبيق الديالكتيك على التاريخ ، دراسة القانون الاخير للديالكتيك .

سيكون ذلك سهلا بالدراسات التي سبق وحققناها ، حيث راينا ما هو نفي النفي ، وماذا نعني بوحدة الاضداد .

كالمعتاد سنتوصل الامثلة .

١ - اصلاحات ام ثورة ؟

يقال ، عند الكلام على المجتمع : هل نعمد الى الاصلاحات ام نحقق الثورة ؟ ونحن نناقش لمعرفة هذا الامر ، هل نتوصل لتحويل المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي باصلاحات متتابعة ام بتحول سريع : الثورة .

امام هذه المشكلة ، لنتذكر من جديد ما درسناه سابقا : كل تحول هو نتيجة صراع القوى المتعارضة . فاذا تطور شيء ، فذلك لانه يتضمن ضده في ذاته

ما دام كل شيء هو وحدة الاضداد . نلاحظ صراع الاضداد ، وتحول الشيء الى ضده . لكن كيف يتم هذا التحول ؟ هذه هي المشكلة الجديدة التي تطرح نفسها .

يمكن الظن ان هذا التحول يتم قليلا قليلا ، بمجموعة من التحولات الصغيرة وان التفاحة الخضراء تتحول الى تفاحة ناضجة بتأثير مجموعة من التغيرات المتدرجة .

كثير من الناس يظنون ان المجتمع يتحول قليلا قليلا ، وان نتيجة مجموعة هذه التحولات الصغيرة سيكون تحول المجتمع الرأسمالي الى مجتمع اشتراكي . هذه التحولات الصغيرة هي الاصلاحات ، ومجموعها سيكون مجموع التغيرات الصغيرة المتدرجة التي ستعطينا مجتمعا جديدا .

هذه هي النظرية المسماة « الاصلاحية » . ويسمى انصار هذه النظريات الاصلاحيين ، ليس لانهم يطلبون الاصلاحات ، بل لانهم يعتقدون ان الاصلاحات تكفي ، وانه بتراكمها يجب ان تحول المجتمع بصورة لا شعورية .

لننظر ما اذا كان ذلك صحيحاً :

أ ـ التدليل السياسي :

اذا نظرنا الى الوقائع ، اي الى ما حدث في البلدان الاخرى ، سنرى انه اينما جربت هذه الطريقة لم تنجح . لقد نجح تحويل المجتمع الرأسمالي ـ تدميره ـ في بلد وحيد : الاتحاد السوفياتي . ونلاحظ ان ذلك لم يتم بمجموعة من الاصلاحات بل بالثورة .

ب ـ التدليل التاريخي :

هل صحيح ، بصورة عامة ، ان الاشياء تتحول بتغيرات صغيرة ، باصلاحات ؟ لننظر دائما الى الوقائع : اذا تفحصنا التغيرات التاريخية ، سنرى انها لا تحدث بلا نهاية ، وانها ليست متصلة . ويحين الوقت الذي يحدث فيه التغير بقفزة فجائية بدل التغيرات الصغيرة .

فالاحداث المهمة ، التي نلاحظها في تاريخ المجتمعات ، هي تغيرات فجائية هي ثورات .

حتى الذين لا يلمون بالديالكتيك يدركون في ايامنا ، ان تغيرات عنيفة حدثت في التاريخ . ومع ذلك كان يعتقد ، حتى القرن السابع عشر ، ان « الطبيعة لا تحقق قفزات » ولا تحقق وثبات ؛ لم يكن يراد رؤية التغيرات السريعة في اتصال التغيرات . لكن العلم تدخل وبين ، بالوقائع ، ان تغيرات تتحقق فجأة . فثورة ١٧٨٩ فتحت الاعين بصورة أفضل ، كانت بذاتها مثلا بديهياً على القطع الواضح مع الماضي . وتوصلنا الى ملاحظة ان المراحل الفاصلة للتاريخ كانت وما تزال اضطرابات مهمة وسريعة وفورية . فروابط الصداقة التي كانت بين هذه الدولة او تلك اصبحت اكثر برودة ومتوترة ، تسممت هذه الروابط وارتدت طابع العدوانية . ودفعة واحدة كانت الحرب كقطع فجائي في استمرارية الاحداث . في المانيا ايضا بعد الحرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كان هناك صعود متدرج للفاشية . وذات يوم تسلم هتلر السلطة : فدخلت المانيا مرحلة تاريخية جديدة .

الذين لا ينكرون اليوم هذه التغيرات السريعة يدعون انها أعراض لان العرض شيء يحدث وكان من الممكن ان لا يحدث .

هكذا تفسر الثورات في تاريخ المجتمعات بانها أعراض .

يشرحون مثلا فيما يختص بتاريخ فرنسا ان سقوط لويس السادس عشر وحدوث الثورة الفرنسية بان لويس السادس عشر كان انسانا ضعيفا ، مخنثا ، « ولو كان رجلا قوياً لما حصلت الثورة » . ونقرأ ايضا انه ، لو لم يمدد فترة طعامه في فارين ، لما كانوا اعتقلوه ، ولكان تغير مجرى التاريخ . يقال اذن الثورة الفرنسية هي عرض .

لكن الديالكتيك يعترف ان الثورة حتمية . هناك تغيرات متصلة ولكنها بتراكمها ، تنتهي باحداث تغيرات سريعة .

ج ـ التدليل العلمي :

لنأخذ مثل الماء . ولننطلق من درجة الصفر ونرفع درجة الحرارة صعودا من ١ إلى ٢ الى ٣ حتى ٩٨ درجة ، التغير هنا متصل . ولكن هل يمكن متابعة ذلك الى ما لا نهاية؟ نذهب حتى ٩٩ درجة ولكن في الدرجة ١٠٠ لدينا تغير سريع : الماء يتحول الى بخار .

اذا نزلنا بصورة عكسية من ٩٩ درجة الى ١ ، سنحصل من جديد على تغير متصل ولكننا لن نستطيع النزول الى ما لا نهاية ، لانه في درجة الصفر يتحول الماء الى ثلج .

من ١ الى ٩٩ درجة يبقى الماء دائماً ماءً ، ولا تتغير الا حرارته . هذا ما نسميه تغيرا كمياً ، انه التغير الذي يجيب عن السؤال : «كم؟» أي «كم الحرارة في المياه؟» . فعندما يتحول الماء الى ثلج او الى بخار فاننا نحصل على تغير نوعي ، تغير في الكيفية . فهذا ليس بماء . لقد اصبح ثلجا او بخارا .

فعندما لم تتغير طبيعة الشيء ، كان لدينا تغير كمي (في المياه لدينا تغير في درجة الحرارة وليس في الطبيعة) . وعندما تغيرت طبيعة الشيء ، واصبح شيئاً آخر ، صار التغير نوعيا .

نرى اذن ان تطور الاشياء لا يمكن ان يكون كميا الى ما لا نهاية : فالاشياء بتحولها ، تخضع في نهاية الامر لتغير نوعي . فتتحول الكمية الى كيفية . هذا قانون عام . ولكن علينا ان لا نكتفي ، كالعادة ، بهذه الصيغة المجردة فقط .

سنجد في كتاب انجلس ـ انتي دوهرنغ ، في فصل «ديالكتيك ، الكمية والكيفية» سنجد في هذا الكتاب عددا كبيرا من الامثلة التي ستفهمنا انه في كل شيء كما في علوم الطبيعة ، تتبرهن صحة القانون الذي بموجبه :

« عند درجة معينة من التغير الكمي يحدث فجأة تحول كيفي»[١]

١ ـ قارن انجلس : انتي دوهرنغ : ص ١٥٠

ها كم مثلا جديدا ، ذكره هـ . فالون في الجزء السابع من الموسوعة الفرنسية (حيث يحيل على انجلس) : ان الطاقة العصبية المتراكمة عند طفل ما تحدث الضحك ، لكن اذا تواصل تعاظمها ، تحول الضحك الى ازمة من الدموع ، وهكذا يتهيج الاطفال ، ويضحكون بقوة كبيرة فينتهون بالبكاء .

سنعطي مثلا اخيرا نعرفه جيدا : مثل الرجل الذي يقدم ترشيحه لنيابة ما . فاذا وجب ٤٥٠٠ صوت للحصول على الاكثرية المطلقة ، فلا يفوز المرشح بـ ٤٤٩٩ صوتا فيبقى كما هو ويبقى مرشحا . صوت واحد يزيد ويؤدي التغير الكمي هذا الى تغير كيفي ، ما دام المرشح قد أصبح نائبا .

ان هذا القانون يحمل لنا حل المشكلة : اصلاح أم ثورة .

الاصلاحيون يقولون : «تريدون اشياء مستحيلة لا تحصل الا عرضا ، انتم طوباويون» . لكننا بواسطة هذا القانون نرى جيدا من هم الذين يحملون باشياء مستحيلة! فدراسة ظاهرات الطبيعة والعلم تظهر لنا ان التغيرات ليست مستمرة الى ما لا نهاية ، بل ان التغير يصبح سريعا في وقت معين ، ولسنا نحن الذين نؤكد ذلك بل العلم والطبيعة والواقع !

هكذا نستطيع التساؤل : ما هو الدور الذي نلعبه نحن في هذه التغيرات السريعة ؟

سنجيب على هذا السؤال وسنوسع هذه المشكلة بتطبيق الديالكتيك على التاريخ . ها نحن وصلنا الى قسم مشهور جدا من المادية الديالكتيكية : المادية التاريخية .

٢ ـ المادية التاريخية :

ما هي المادية التاريخية ؟ بعد ان عرفنا الان ما هو الديالكتيك ، (نقول) ان المادية التاريخية هي تطبيق هذا المنهج على تاريخ المجتمعات الانسانية .

ولفهم ذلك جيدا يجب تحديد ، ما هو التاريخ . فالذي يقول تاريخ يقول تغير ، وتغير في المجتمع . وللمجتمع تاريخ يتغير عبره باستمرار ، نحن نرى

فيه وقوع احداث مهمة . فتطرح هذه المشكلة عند ذلك : بما ان المجتمعات تتغير في التاريخ . فما الذي يفسر هذه التغيرات ؟

أ ـ كيف نفسر التاريخ ؟

هكذا يتساءلون : « لاية اسباب يجب ان تعود الحرب ؟ فالناس يجب ان يتمكنوا من العيش بسلام ! »

سنقدم اجوبة مادية على هذه الاسئلة .

فالحرب ، كما فسرها ، احد احبار الكنيسة ، هي عقاب من الله ! هذا جواب مثالي ، لانه يفسر الاحداث بالله ، هذا تفسير للتاريخ بواسطة الروح ، هنا الروح هي التي تخلق التاريخ وتصنعه .

الكلام عن العناية الالهية هو ايضا جواب مثالي . فهتلر هو الذي يقول لنا في « كفاحي » ، ان التاريخ هو عمل العناية الالهية ، ويشكر العناية الالهية لجعلها مكان ولادته على الحدود النمساوية .

لكن جعل الله ، او العناية الالهية ، مسؤولة عن التاريخ هي نظرية مناسبة : فالناس لا تستطيع شيئا وبالتالي لا نستطيع شيئا ضد الحرب ، فيجب ان نتركهم يعملون !

هل نستطيع ، من وجهة نظر علمية ، دعم نظرية كهذه ؟ هل نستطيع ايجاد تبرير لها في الوقائع ؟ كلا .

ان اول تأكيد مادي في هذا النقاش هو ان التاريخ ليس من صنع الله ، بل من صنع البشر . هكذا يستطيع الناس التأثير في التاريخ ويتمكنون من الحؤول دون الحرب .

ب ـ التاريخ من صنع الناس :

« وايا كان سير التاريخ ، فان الناس يصنعونه على النحو التالي : كل فرد يقصد اهدافه الموضوعة عن وعي وادراك ، اما مجموع هذه الكثرة من المساعي التي تعمل في اتجاهات مختلفة ، وتأثيراتها المتنوعة في العالم الخارجي ، فهذا

هو التاريخ بالضبط . وهكذا تنحصر المسألة بالتالي في ما تريده الكثرة من الافراد . ان الارادة يحددها الهوى او التفكير . ولكن الحوافز التي بدورها تحدد مباشرة الهوى او التفكير لعلى انواع مختلفة . . من جهة ثانية تظهر مسألة جديدة . . ما هي الاسباب التاريخية التي تتخذ شكل هذه الحوافز في رؤوس العاملين ؟» . . [٢].

ان هذا النص لانجلس ، يعلمنا بان الناس يتصرفون وفقا لارادتهم ولكن هذه الارادة ليست دائما في نفس الاتجاه ! فما الذي يحدد افعال الناس ويحققها اذن ؟ لماذا لا تسير ارادتهم في نفس الاتجاه ؟

بعض المثاليين يوافقون على القول ان افعال الناس هي التي تصنع التاريخ وان هذا الفعل ينتج عن ارادتهم . فالارادة هي التي تحدد الفعل ، وافكارنا او شعورنا هي التي تحدد ارادتنا . سيكون لدينا اذن السيرورة التالية : فكرة ـ ارادة ـ فعل . ولتفسير الفعل ، سنتبع الوجهة المعاسكة في البحث عن الفكرة كسبب حاسم .

ولكننا سنحدد على الفور وبدقة ، ان فعل كبار الناس ، وفعل المذاهب ليس مرفوضا ، لكنه بحاجة للشرح . ولا تشرحه السيرورة : فكرة ـ ارادة ـ فعل . هكذا يدعي البعض . ان ديدرو والموسوعيين في القرن الثامن عشر ، بنشرهم لنظرية حقوق الانسان ، اغروا ارادة الناس وكسبوها ، فقام هؤلاء ، بالتالي ، وحققوا الثورة . كذلك في الاتحاد السوفياتي انتشرت افكار لينين وتصرف الناس وفقا لهذه الافكار . يستنتج من ذلك انه لو لم توجد الافكار الثورية لما كانت هناك ثورة . ان وجهة النظر هذه ، هي التي تدعي ان افكار الزعماء الكبار هي القوى المحركة للتاريخ . وان هؤلاء الزعماء هم الذين يصنعون التاريخ . انتم تعرفون عبارة «العمل الفرنسي Action Française [٣]» : «٤٠ ملكا صنعوا فرنسا» . يمكن الاضافة : ملوكا لم يملكوا مع ذلك كثيرا من «الافكار»

٢ ـ قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٤ ـ ٥٥

٣ ـ Action Française هي حركة سياسية فرنسية خلال فترة الجمهورية الثالثة بزعامة شارل موران رليون دوديه . من اهدافها بعث الملكية في فرنسا (المترجمة) .

ما هي وجهة النظر المادية في هذه المسألة ؟

رأينا ان كثيرا من النقاط المشتركة جمعت بين المادية الحديثة ومادية القرن الثامن عشر . ولكن المادية القديمة كانت ذات نظرية مثالية في التاريخ .

ان هذه النظرية المثالية التي رأيناها والتي كانت اما مثالية صريحة او مستترة بمادية غير متسقة ، والتي تبدو كشرح للتاريخ ، هذه النظرية لا تشرح شيئا . إذْ ما الذي يحُدث الفعل؟ يقول انجلس؟

«ان مادية الماضي كانت تقدر كل شيء تبعا لدوافع الفعل، وتقسم الناس الذين يؤثرون في التاريخ الى أناس اشراف واناس نصابين ، وكانت تجد الاشراف ، كقاعدة، مخدوعين والنصابين ظافرين . وقد نتج عن ذلك بالنسبة لها ان التاريخ يحتوي على قدر قليل جدا من العبر . اما بالنسبة لنا نحن فينتج ان المادية القديمة تخون نفسها في ميدان التاريخ؛ اذ انها تعتبر القوى الحافزة العاملة فيه هي الاسباب الاخيرة للاحداث، بدلا من ان تبحث فيما يكمن وراءها وما هي القوى الحافزة لهذه القوى الحافزة»[4] .

الارادة ، الافكار ، كما يدعون . ولكن لماذا كان لدى ماديي القرن الثامن عشر هذه الافكار بالتحديد ؟ فلو حاولوا عرض الماركسية ، لما اصغى لهم الناس ، لان الناس لم تكن تستطيع الفهم في هذه الحقبة . فلا يكفي العمل على اعطاء الافكار ، يجب ان تكون هذه الافكار مفهومة ايضا ، وبالتالي هناك فترات محددة لقبول الافكار وكذلك لخلقها .

لقد قلنا دائما ان للافكار اهمية كبرى ، لكن علينا ان نرى من اين تأتي هذه الافكار .

علينا اذن ان نبحث عن الاسباب التي تعطينا هذه الافكار ، وما هي في التحليل الاخير القوى المحركة للتاريخ .

٤ ـ انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٥

للقراءة

(١) انجلس : انتي دوهرنغ : الفصل الثاني عشر : الجدلية : الكمية والكيفية . ص ١٤٣

(٢) لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي . ٣٢١ ـ (بالنسبة للديالكتيك)

(٣) انجلس : لودفيغ فيورباخ : الفصل الرابع . المادية الديالكتيكية ص ٤٥ وما بعدها .

القسم الخامس

المادية التاريخية

الفصل الأول

القوى المحركة للتاريخ

ما ان نطرح هذا السؤال : « مم تتأتى افكارنا » ؟ حتى نرى انه علينا السير الى أبعد في ابحاثنا . فاذا عللنا ، كما يعلل ماديو القرن الثامن عشر ، الذين يظنون ان « الدماغ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء » ، فاننا سنجيب عن هذا السؤال بان الطبيعة تنتج الذهن ، وان افكارنا هي بالتالي انتاج للطبيعة ، انها نتاج للدماغ .

سنقول اذن : ان التاريخ صنع بفعل الناس المسيرين بارادتهم ، وهذه الارادة هي تعبير عن افكارهم المتأتية ، هي نفسها ،عن الدماغ ، ولكن لنتنبه !

١ ـ خطأ يجب تجنبه :

اذا فسرنا الثورة الكبرى بانها نتيجة لتطبيق الافكار المولدة في دماغ الفلاسفة ، فان هذا التفسير سيكون تفسيرا محدودا وغير كاف ، وسيكون تطبيقا سيئا للمادية .

لان ما يجب ملاحظته هو : لماذا استعادت الجماهير هذه الافكار التي طرحها

مفكرو هذه الحقبة . ولماذا لم يكن ديدرو هو الوحيد الذي تصورها ، وما هي الاسباب التي دفعت اكثرية ساحقة من الادمغة ، منذ القرن السادس عشر ، الى صياغة الافكار نفسها ؟

ألان هذه الادمغة كان لها فجأة ، الوزن نفسه والتلافيف عينها ؟ كلا . فهناك تغير في الافكار دون ان يحدث تغير في الجمجمة .

هذا التفسير للافكار بواسطة الدماغ ، يظهر وكأنه تفسير مادي . ولكن الكلام عن الدماغ ، عند ديدرو ، هو في الواقع الكلام عن افكار الدماغ عنده : اذن هذه نظرية مادية مغلوطة ومفرطة نرى فيها تولد الميل المثالي مع الافكار .

لنعُدْ الى الترابط : التاريخ ـ الفعل ـ الارادة ـ الافكار . الافكار لها معنى ومحتوى : الطبقة العاملة مثلا ، تناضل لقلب الرأسمالية . هذا ما فكر به العمال المناضلون . هم يفكرون لانهم يملكون دماغا طبعا ، فالدماغ اذن شرط ضروري للتفكير ، لكنه ليس شرطا كافياً . الدماغ يشرح الواقعة المادية التي هي امتلاك الافكار ، لكنه لا يشرح لماذا نملك هذه الافكار وليس تلك .

« فكل ما يحرك الناس ينبغي ان يمر بالضرورة بادمغتهم ، ولكن الشكل الذي يأخذه في هذه الادمغة يتعلق ، لدرجة كبيرة جدا ، بالظروف ». [1]

كيف نستطيع اذن ان نشرح محتوى افكارنا ، اي كيف تأتينا فكرة قلب الرأسمالية ؟

٢ ـ « الوجود الاجتماعي » والوعي :

نحن نعلم ان افكارنا هي انعكاس للاشياء ، كذلك فان الاهداف التي تحتويها افكارنا هي ايضا انعكاس للاشياء . ولكن لاية اشياء ؟

للاجابة عن هذا السؤال ، يجب ان ننظر الى المكان الذي يعيش فيه الناس ، واين تظهر افكارهم . فنلاحظ ان الناس يعيشون في مجتمع رأسمالي ، وان

١ ـ قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٦ .

افكارهم تظهر في هذا المجتمع وتتأتى لهم منه .

« فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم بل ، على العكس ، ان وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم ».

ان ما يسميه ماركس « وجودهم » في هذا التعريف ، هم الناس ، نحن . والوعي هو ما تفكر به ، ما نريد .

يقال بصورة عامة . اننا نناضل لاجل مثال مترسخ فينا ، وينتج عن ذلك ان وعينا هو الذي يحدد وجودنا ، نحن نفعل الشيء لاننا نفكر به ، ونريده .

ان الكلام على هذا النحو هو خطأ كبير ، لان وجودنا الاجتماعي هو الذي ، في الحقيقة ، يحدد وعينا .

« كائن » بروليتاري يفكر كبروليتاري و « كائن » بورجوازي يفكر كبورجوازي (سنرى بعد ذلك لماذا الامر ليس كذلك دائما) ولكن بصورة عامة .

« في القصور يفكرون غير ما يفكرون في الاكواخ ».

٣ ـ نظريات مثالية

يؤكد المثاليون ان بروليتاريا ما ، او بورجوازيا ما ، هما هذا او ذاك ، لانهما يفكران كهذا او ذاك .

نحن نقول ، على عكس ذلك ، انهما اذا فكرا كبروليتاريين او كبورجوازيين ، فذلك لكونهما هذا او ذاك . فالبروليتاري يملك وعي الطبقة البروليتارية لكونه بروليتاريا .

ان ما يجب ملاحظته جيدا ، هو ان النظرية المثالية تتضمن نتيجة عملية . يقولون اذا كنا بورجوازيين ، فذلك يعني اننا نفكر كبورجوازيين ، اذن حتى لا نكون بورجوازيين ، يكفي ان نغير شكل التفكير الذي هو موضوع الخلاف ، فيكفي لايقاف الاستغلال البورجوازي ان نقوم بعملية اقناع لرب العمل . هذه نظرية دافع عنها الاشتراكيون المسيحيون ، وهي ايضا نظرية

مؤسسي الاشتراكية الطوباوية .

لكنها ايضا نظرية الفاشيين الذين ناضلوا ضد الرأسمالية ليس للقضاء عليها ولكن لجعلها اكثر « عقلانية » ! . يقال ، عندما يفهم ارباب العمل انهم يستغلون العمال فسوف يكفون عن ذلك . هذه نظرية مثالية تماما واخطارها مرئية .

٤ ـ « الوجود الاجتماعي » والظروف المعيشية :

يحدثنا ماركس عن « الوجود الاجتماعي » . فماذا يعني بذلك ؟

« الوجود الاجتماعي » محدد بالظروف المعيشية المادية التي يعيشها الناس في المجتمع .

فليس وعي الناس هو الذي يحدد ظروف معيشتهم المادية ، بل ان ظروفهم المادية هي التي تحدد وعيهم .

ما هي الظروف المعيشية المادية ؟ . هناك فقراء واغنياء في المجتمع ، تختلف طريقة تفكيرهم ، وافكارهم حول الموضوع نفســه افكار مختلفة ، فركوب المترو بالنسبة لفقير ، لعاطل عن العمل ، هو بذخ ، ولكنه بالنسبة للغني الذي كان يملك سيارة هو انحدار .

افكار الفقير عن المترو ، هل يملكها لانه فقير او لانه يركب المترو ؟ لانه فقير . وكونه فقيرا هو ظرفه المعيشي .

اذن يجب ان ننظر ، لماذا هناك اغنياء وفقراء ، حتى نستطيع تفسير الظروف المعيشية للناس .

مجموعة من الناس تشغل في عملية الانتاج الاقتصادية مركزا مماثلا (اي انها تملك في النظام الرأسمالي وسائل الانتاج ـ او بالعكس تعمل بوسائل انتاج لا تملكها) وتتمتع بالتالي بظروف معيشية مادية متماثلة الى حد ما . هذه المجموعة تكون طبقة . لكن معنى الطبقة لا يقتصر على معنى الغنى والفقر . فربما تمكن البروليتارى ان يجنى من الربح اكثر مما يجنيه البورجوازى ولن يكون اقل بروليتارية ، لانه متعلق برب العمل ، ولان حياته غير مؤمنة او غير مستقلة .

فالظروف المعيشية المادية لا تتكون فقط من المال المكتسب ، ولكن من الوظيفة الاجتماعية . وهكذا نحصل على الترابط الآتي :

ان الناس يصنعون تاريخهم بفعلهم وفقا لارادتهم ، التي هي تعبير عن افكارهم . هذه الافكار تتأتى من ظروفهم المعيشية المادية اي من انتمائهم الى طبقة ما .

٥ ـ الصراع الطبقي محرك التاريخ :

يتصرف الناس بشكل معين لانهم يملكون افكارا معينة . هذه الافكار تنجم عن ظروفهم المعيشية المادية . لانهم ينتمون الى هذه الطبقة او تلك . وهذا لا يعني وجود طبقتين فقط في المجتمع : فهناك عدد من الطبقات ، اثنتان منها تتصارعـان ، بصورة رئيسية : البورجوازية والبروليتاريا .

اذن الطبقات توجد تحت الافكار .

والمجتمع ينقسم الى طبقات تتصارع كل منها مع الاخـرى ، وهـكذا اذا تفحصنا افكار الناس نلاحظ ان هذه الافكار هي في تنازع ، وتحتها نجد الطبقات المتنازعة ايضا .

وبالتـالى فالقـوى المحركة للتـاريخ اى التي تفسر التـاريخ هي الصراع الطبقي .

فاذا ضربنا مثلا ، العجز الدائم في الموازنـة ، رأينا ان هناك حلين : الاول يقوم على متابعة ما يسمى بالارثوذكسـية المالية : اقتصاد ، قروض ، ضرائب جديدة الخ . . : والحل الآخر يقوم على تغريم الاغنياء .

ونحن نلاحظ صراعا سياسيا حول هذه الافكار ، وبصورة عامة « نأسف » لعدم استطاعتنا الاتفاق على هذا الموضوع ، ولكن الماركـسي يريد ان يفهـم ويبحـث ماذا يوجـد تحـت الصراع السياسي . فيكتشف عندئـذ الصراع الاجتماعي اي الصراع الطبقي . صراع بين أنصار الحل الاول (الرأسماليين) وأنصار تغريم الاغنياء (الطبقات الوسطى والبروليتاريا) .

« على هذا النحو ، ثبت ، بالنسبة للتاريخ الحديث على الاقل ،ان كل صراع سياسي هو صراع طبقي ، وان كل صراع تخوضه الطبقات من اجل تحررها ، رغم شكله الذي هو بالضرورة سياسي - لان كل صراع طبقي هو صراع سياسي - هو في نهاية المطاف صراع من اجل التحرر الاقتصادي »[٢]

علينا اذن ان نضيف حلقة الى الترابط الذي نعرفه لتفسير التاريخ ، لدينا الفعل - الارادة - الافكار - وتحتها توجد الطبقات ، ووراء الطبقات يوجد الاقتصاد .

الصراع الطبقي اذن هو الذي يفسر التاريخ ، ولكن الاقتصاد هو الذي يحدد الطبقات .

فاذا اردنا تفسير واقعة تاريخية ، علينا فحص الافكار المتصارعة ، والبحث عن الطبقات تحت الافكار واخيرا تحديد النمط الاقتصادي الذي يميز الطبقات .

يمكننا التساؤل ايضا عم تتأتى الطبقات والنمط الاقتصادي (ولا يخاف الديالكتيكون من طرح هذه التساؤلات المتتابعة ، لانهم يعرفون انه يجب ايجاد مصدر لكل شيء) . وهذا ما سندرسه بالتفصيل في الفصل القادم . ولكننا نستطيع القول منذ الآن :

لمعرفة عم تتأتى الطبقات ، يجب ان ندرس تاريخ المجتمع ، وسنرى عندئذ ان الطبقات الموجودة لم تكن دائما هي نفسها . في اليونان : العبيد والاسياد في العصور الوسطى : الاسياد والاقنان . وبعد ذلك ، واختصارا لهذا التعداد : البورجوازية والبروليتاريا .

يقوم على متابعة ما يسمى بالارثوذكسية المالية : اقتصاد ، قروض ، ضرائب جديدة الخ . . : والحل الآخر يقوم على تغريم الاغنياء .

ونحن نلاحظ صراعا سياسيا حول هذه الافكار ، وبصورة عامة « نأسف » تبقى ، نمط الانتاج والتكنيك) .

٢ - قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ ص ٥٩

كذلك : ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعي ص ٥٢ وما بعدها .

لننظر الآن في هذا النص لانجلس :

« ان البورجوازية وكذلك البروليتاريا نشأتا بسبب التغيرات في العلاقات الاقتصادية ، او بعبارة ادق ، بسبب التغيرات في نمط الانتاج . فالانتقال اولا من نظام الانتاج الحرفي الى المانيفاكتورة وثم من المانيفاكتورة الى الصناعة الكبيرة ، الى الانتاج الميكانيكي باستخدام البخار ، هو الذي طور هاتين الطبقتين »[٣] .

نرى في نهاية التحليل ، ان القوى المحركة للتاريخ تعطي لنا حسب الترابط الآتي :

أ - التاريخ هو من صنع البشر .
ب - الفعل ، الذي يصنع التاريخ ، يتحدد بارادتهم .
ج - هذه الارادة هي تعبير عن افكارهم .
د - هذه الافكار هي انعكاس للظروف الاجتماعية التي يعيشونها .
هـ - الظروف الاجتماعية هي التي تحدد الطبقات وتحدد صراعها .
و - الطبقات هي نفسها محددة بالظروف الاقتصادية .

ولتحديد الاشكال والظروف التي يجري فيها هذا الترابط ، نقول :

١ - ان الافكار تجد تعبيرها في الحياة على العصيد السياسي .
٢ - الصراع الطبقي الذي يوجد خلف صراع الافكار يجد تعبيره على الصعيد الاجتماعي
٣ - الظروف الاقتصادية (المحددة بحالة التكنولوجيا) تجد تعبيرها على الصعيد الاقتصادي .

للقراءة

Karl Marx: Préface de la contribution à la critique de L'économie Politique

- ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعي .

٣ - قارن انجلس : لودفيغ فيورباخ : ص ٥٨

الفصل الثاني

مم تتاتى الطبقات والظروف الاقتصادية ؟

رأينا ان القوى المحركة للتاريخ هي ، في نهاية التحليل ، الطبقات وصراعها المحدد بالظروف الاقتصادية .

ذلك حسب الترابط الآتي : يملك الناس افكارا تدفعهم الى العمل ، هذه الافكار تتولد عن الظروف المعيشية المادية التي يعيشون فيها . هذه الظروف المعيشية المادية يحددها الموقع الاجتماعي الذي يشغلونه في المجتمع ، اي الطبقة التي ينتمون اليها . وتتحدد الطبقات نفسها بالظروف الاقتصادية التي يتطور فيها المجتمع .

ولكن علينا عندها ، ان نرى ما الذي يحدد الظروف الاقتصادية والطبقات التي تخلقها . وهذا ما سندرسه .

١ ـ اول تقسيم كبير للعمل :

بدراسة تطور المجتمع ، واعتبار الوقائع في الماضي ، نلاحظ اولا ان انقسام

المجتمع الى طبقات لم يكن دائما موجودا : يريد الديالكتيك ان نبحث عن اصل الاشياء ، لكننا نلاحظ عدم وجود الطبقات في الماضي البعيد ، ففي كتابه : « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » يقول لنا انجلس :

« في جميع أطوار المجتمع الدنيا ، كان الانتاج ، من حيث الاساس جماعيا لم يكن ثمة من طبقة ، فئة شغيلة ثم فئة اخرى. كما ان استملاك المنتجات التي اوجدها الناس كان جماعياً . تلك هي الشيوعية البدائية » .[1]

يشارك جميع الناس في الانتاج ، ادوات العمل الفردية كانت ملكية خاصة . لكن ما يستعمل جماعيا تملكه الجماعة . ولم يكن تقسيم العمل موجودا في هذه المرحلة الدنيا الا بين الجنسين . الرجل يصطاد الحيوانات والاسماك الخ . . المرأة تعتني بالبيت وليس من فوائد شخصية او « خاصة » تجنى من وراء ذلك .

لكن الناس لم يبقوا في هذا الطور ، وسيكون اول تغير في حياة الناس هو تقسيم العمل في المجتمع .

« لكن تقسيم العمل يتغلغل ببطء في عملية الانتاج »[2]

هذه الواقعة الاولى حدثت حيث وجد الناس ،

«حيوانات يمكن تدجينها ومن ثم تربيتها بعد تدجينها . . ان بعضا من اكثر القبائل تقدما . . . قد جعلوا من تدجين المواشي اولا ، ومن تربيتها ورعايتها فيما بعد ، الفرع الرئيسي من نشاطهم . وانفصلت قبائل الرعاة عن بقية البرابرة وكان ذلك اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل»[3] .

لدينا اذن ، كنمط اول للانتاج : الصيد البري والصيد البحري ، والنمط الثاني : تربية المواشي التي ولدت قبائل الرعاة .

هذا هو اول تقسيم كبير للعمل والذي هو في اساس ،

١ ـ فارن انجلس : « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » ـ دار التقدم ـ ص ٢٣٠
٢ ـ انجلس : المرجع نفسه . ص ٢٣٠
٣ ـ انجلس : المرجع نفسه . ص ٢١٠

٢ ـ اول انقسام للمجتمع الى طبقات :

« ان نمو الانتاج في جميع الفروع ـ تربية المواشي ، الزراعة ، الحرف المنزلية ـ قد منح قوة عمل الانسان القدرة على انتاج كمية من المنتوجات تزيد عما يحتاج اليه للعيش والبقاء ، وزاد في الوقت نفسه كمية العمل الذي يترتب على كل من اعضاء العشيرة او المشاعة البيتية ، او العائلة المنفردة ان يبذله يوميا . وظهرت الحاجة الى استعمال قوة عمل جديدة . فقدمت الحروب هذه القوة : فقد طفقوا يحولون اسرى الحرب الى عبيد . وبانماء انتاجية العمل ، وبالتالي الثروة ، وبتوسيع ميدان النشاط الانتاجي ، ادى اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل ، في مجمل الظروف التاريخية المعنية ، الى نشوء العبودية بصورة محتمة . ومن اول تقسيم اجتماعي كبير للعمل نجم اول انقسام كبير للمجتمع الى طبقتين : الاسياد والعبيد ، المستغلون والمستغلون »(٤) .

وصلنا الآن الى عتبة الحضارة ، وهي تنفتح بخطوة جديدة الى الامام في تقسيم العمل . ففي الطور الادنى ، كان الناس لا ينتجون الا من اجل تلبية حاجاتهم الشخصية مباشرة . وكانت عمليات التبادل نادرة جدا ، ولم تكن تشمل غير الفوائض المتبقية صدفة . وفي الطور الاوسط من البربرية ، نجد ان الماشية صارت عند الشعوب الرعاة ، ملكية . . وهذا يعني توفر الظروف لاجل التبادل المنظم(٥)

لدينا اذن في تلك اللحظة طبقتان في المجتمع : اسياد وعبيد . ثم يكمل المجتمع حياته ويخضع لتطورات جديده . فسوف تتولد طبقة جديدة وتكبر .

٣ ـ ثاني تقسيم كبير للعمل :

« وتنامت الثروة بسرعة ، ولكن بوصفها ثروة افراد ، واجتذت الحياكة ومعالجة المعادن والحرف الاخرى تنفصل وتنعزل اكثر فأكثر عن بعضها ، واخذ الانتاج يزداد تنوعا واتقانا اكثر فأكثر . وعلاوة على الحبوب والبقول والفواكه ، بدأت الزراعة تعطي الآن الزيت والخمور . . وهذا النشاط المتنوع

٤ ـ فارن انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة . ص ٢١٢ ـ ٢١٣
٥ ـ فارن انجلس : المرجع نفسه ص ٢١٨

الوجوه لم يبق من الممكن ان يمارسه شخص بمفرده ، فحدث التقسيم الكبير الثاني للعمل ، فقد انفصلت الحرفة عن الزراعة . ان نمو الانتاج المستمر ومعه انتاجية العمل قد رفع قوة عمل الانسان . واذا العبودية التي كانت في الطور السابق قد ظهرت للتو وحسب . . تصبح الآن جزءا مكونا اساسياً من النظام الاجتماعي . ولم يبق العبيد مجرد معاونين ، بل شرعوا يسوقونهم الى العمل بالعشرات . . ومع انقسام الانتاج الى فرعين رئيسيين كبيرين ، هما الزراعة والحرفة ، يظهر الانتاج من اجل التبادل مباشرة ، اي الانتاج البضاعي ، ومعه نظهر التجارة . . »(٦)

٤ ـ ثاني انقسام للمجتمع الى طبقات :

وهكذا ، فان اول تقسيم كبير للعمل يزيد قيمة قوة عمل الانسان ويخلق زيادة في الثروة ، التي تزيد بدورها في قيمة العمل وترغم على ثاني تقسيم للعمل : الحرف والزراعة . في هذا الوقت نرى ان الزيادة المتواصلة للانتاج والزيادة المتواصلة لقيمة قوة عمل الانسان بشكل متواز ، تجعل « ضروريا » وجود العبيد ، وتخلق الانتاج البضاعي ومعه الطبقة الثالثة ، اي التجار .

لدينا الآن ، انقسام ثلاثي للعمل في المجتمع ، وثلاث طبقات :

الزراعيون والحرفيون والتجار . ونرى لاول مرة ظهور طبقة لا تشارك في الانتاج وتسيطر على الطبقتين الاخريين . هذه الطبقة هي طبقة التجار .

« وفي الطور الاعلى للبربرية يجري تقسيم جديد للعمل بين الزراعة والحرفة ، ويجري بالتالي انتاج قسم متزايد ابدا من منتوجات العمل لاجل التبادل مباشرة ويحدث بالتالي ايضا تحويل التبادل بين مختلف المنتجين الى ضرورة حياتية بالنسبة للمجتمع وتوطد الحضارة وتعزز جميع اشكال تقسيم العمل هذه التي نشأت قبلها ، ولا سيما بتشديد التناحر بين المدينة والقرية . . وتضيف اليها تقسيما ثالثا للعمل تختص به وحدها وتتسم باهمية حاسمة : فهي تخلق طبقة لا تتعاطى الانتاج ، بل مبادلة البضائع فقط ، هي طبقة التجار .

٦ ـ فارن انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة . ص ٢١٥ ـ ٢١٦

هذه الطبقة تصبح الوسيط بين المنتجين . . وتزعم انها انفع طبقات السكان . . تجني بسرعة الثروات الطائلة وما يرافقها من نفوذ في المجتمع . . وتخضع لنفسها اكثر فأكثر الانتاج ، الى ان تصنع بنفسها في آخر المطاف منتوجا خاصا بها ونعني به الازمات التجارية الدورية» [٧]

نرى اذن هذا الترابط الذي ينطلق من الشيوعية البدائية ويؤدي بنا الى الرأسمالية :

أ ـ الشيوعية البدائية .
ب ـ انقسام الى قبائل متوحشة وقبائل رعاة (اول تقسيم للعمل : اسياد ـ عبيد) .
ج ـ انقسام الى زراعيين وحرفيين (ثاني تقسيم للعمل)
د ـ ولادة طبقة التجار (ثالث تقسيم للعمل) وهو الذي
هـ ـ يولد الازمات التجارية الدورية (الرأسمالية)

وندرك الآن مم تتأتى الطبقات ويبقى ان ندرس :

٥ ـ ما الذي يحدد الظروف الاقتصادية ؟

يجب اولا تصفح مختلف المجتمعات التي سبقتنا بصورة موجزة جدا .

ان المستندات اللازمة لدراسة تاريخ المجتمعات التي سبقت المجتمعات القديمة بالتفصيل غير متوفرة ، ولكننا نعرف مثلا انه وجد عند اليونان عبيد واسياد ، وان طبقة التجار كانت قد بدأت بالنمو . بعد ذلك في العصور الوسطى ، أتاح المجتمع الاقطاعي مع النبلاء والاقنان للتجار ان يحظوا باهمية متزايدة . فتجمعوا حول القصور في قلب البلدات Bourgs ومن هنا اسم البورجوازي . من جهة اخرى وقبل الانتاج الرأسمالي ، لم يوجد الا الانتاج الصغير ، الذي يشترط اولا ان يكون المنتج هو المالك لادوات العمل . فوسائل الانتاج تخص الفرد ، ولم تكن مهيأة الا للاستعمال الفردي . وكانت بالتالي ، هزيلة ، صغيرة ، محدودة . فكان الدور التاريخي للانتاج الرأسمالي والبورجوازية في مركزة وسائل الانتاج هذه وتوسيعها ،

٧ ـ قارن انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة . ص ٢١٨ ـ ٢١٩

وتحويلها الى دوافع جبارة للانتاج الحديث .

« ابتداء من القرن الخامس عشر ، قامت البورجوازية بهذا الدور تاريخيا في درجات الانتاج الثلاث المختلفة ، التعاون البسيط ، المانيفاكتورة ، الصناعة الكبيرة . . ولكن البورجوازية لم تستطع ان تحول وسائل الانتاج المحدودة هذه الى قوة منتجة جبارة دون ان تحولها من وسائل انتاج يستعملها الافراد الى وسائل اجتماعية للانتاج يستعملها جمهور من الناس بصورة مشتركة »[٨] .

نرى اذن انه ، بصورة متوازية لتطور الطبقات (اسياد وعبيد ، نبلاء واقنان) تتطور ظروف الانتاج ، والتبادل وتوزيع الثروات ، اي الظروف الاقتصادية . وان هذا التطور الاقتصادي يتبع خطوة خطوة ، وبصورة متوازية ، تطور انماط الانتاج هذه اذن :

٦ ـ انماط الانتاج :

اي حالة الادوات والآلات ، واستعمالها ، وطرق العمل ، بكلمة واحدة حالة التكنيك التي تحدد الظروف الاقتصادية .

« فاذا كانت القوى لفرد واحد ، او على الاكثر لعائلة واحدة ، تكفي لتشغيل وسائل الانتاج المنفردة ، فيجب الآن جمهور من الناس لتشغيل وسائل الانتاج المركزة هذه . فالبخار والآلة انهت واكملت هذا التحول . . . فحلت الفبركة محل المشغل الفرد ، هذه الفبركة التي تتطلب تعاون مئات العمال فتحول الانتاج من مجموعة اعمال فردية ، الى مجموعة اعمال اجتماعية »[٩]

نرى هنا ان تطور أنماط الانتاج قد حول كليا القوى المنتجة . والحال انه ، اذا كانت قد اصبحت ادوات العمل جماعية ، فان نظام الملكية ظل فرديا ، وبقيت الآلات التي لا تعمل الا بسواعد المجموعة ملكا لشخص واحد . وهكذا نرى ان :

« القوى المنتجة تدفع الجميع الى الاعتراف العملي بخصائصها الواقعية

٨ ـ انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية : دار التقدم ص ٦٨ ـ ٦٩
٩ ـ انجلس : المرجع نفسه ص ٦٥

كونها قوى منتجة اجتماعية . . فتفرض الاجتماعية على قسم كبير من وسائل الانتاج الذي يظهر بشكل شركات مساهمة . . ولكن هذا الشكل يصبح هو ايضا غير كاف . . فيترتب على الدولة ان تتسلم قيادة القوى المنتجة هذه . . فتصبح البورجوازية من نوافل الامور . . فان وظائف الرأسماليين الاجتماعية جميعها يقوم بها الان مستخدمون اجراء . . »[١٠]

هكذا يظهر لنا تناقض النظام الرأسمالي .

« من جهة تحسين الآلات ، وقد جعلته المزاحمة قانونا الزاميا على كل صناعي ، ويعني في الوقت نفسه ، استبعاد العمال من المصانع بصورة متزايدة على الدوام : نشوء جيش صناعي احتياطي . ومن جهة اخرى ، توسيع الانتاج الى ما لا حد له ، فقد جعلته المزاحمة قانونا الزاميا ايضا على كل صناعي ، ومن الجهتين ، تطور القوى المنتجة تطورا لم يسمع بمثله من قبل ، زيادة العرض على الطلب ، فيض في الانتاج ، اكتظاظ في الاسواق ، ازمات تتكرر كل عشر سنوات ، حلقة مفرغة : هنا فيض من وسائل الانتاج والمنتجات ، وهناك فيض من عمال بلا عمل وبلا وسائل للعيش »[١١]

هناك تناقض بين العمل الذي اصبح اجتماعيا وجماعيا ، وبين الملكية التي بقيت فردية ، ونقول عند ذلك مع ماركس :

« فبعد ان كانت هذه العلاقات اشكالا لتطور القوى المنتجة تصبح عوائق في وجه تطورها . وعندها يبدأ عصر ثورة اجتماعية »[١٢]

٧ ـ ملاحظات :

من الضروري ، قبل نهاية هذا الفصل ، ايراد بعض الملاحظات ، والاشارة الى اننا نجد في هذه الدراسة جميع سمات الديالكتيك وقوانينه التي درسناها .

١٠ ـ فارن انجلس : الاشتراكية العلمية والاشتراكية الطوباوية ، ص ٨٢ ـ ٨٣

١١ ـ فارن انجلس : المرجع نفسه ص ٩١

١٢ ـ Marx : Préface dela contribution à la critique de l'économie politique

لقد استعرضنا بالفعل ، وبسرعة كبيرة تاريخ المجتمعات ، الطبقات وانماط الانتاج ، ونحن نرى الى اي حد يتعلق كل قسم من هذه الدراسة بباقي الاقسام . فنلاحظ ان التاريخ متحرك اساسا ، وان التغيرات التي تحصل في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات يحدثها صراع داخلي ، صراع عناصر المحافظة وعناصر التقدم ، صراع يوصل الى هدم مجتمع ، والى ولادة مجتمع جديد . فكل مجتمع له ميزة ، وبنية مختلفة جدا عن الذي سبقه . هذه التحولات الجذرية تتفاعل بعد تراكم الوقائع التي بذاتها تظهر بلا معنى ، ولكنها ، في لحظة من اللحظات ، تخلق ، بتراكمها ، امرا واقعا يحدث تبدلا عنيفا وثوريا

سنجد هنا اذن السمات والقوانين العامة الكبيرة للديالكتيك اي :

- تداخل العلاقات بين الاشياء والوقائع .
- الحركة والتغير الديالكتيكي .
- الدينامية الذاتية .
- الفعل المتبادل .
- والتطور بالقفز (اي تحول الكمي الى نوعي) .

للقراءة

انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة .

انجلس : الاشتراكية العلمية والاشتراكية الطوباوية .

القسم السادس

المادية الديالكتيكية والايديولوجيات

فصل وحيد

تطبيق المنهج الديالكتيكي على الايديولوجيات

١ ـ ما هي اهمية الايديولوجيات بالنسبة للماركسية ؟
٢ ـ ما هي الايديولوجية ؟ (العوامل والاشكال الايديولوجية)
٣ ـ البنية الاقتصادية والبنية الايديولوجية .
٤ ـ الوعي الصحيح والوعي المغلوط .
٥ ـ فعل ورد فعل الايديولوجية .
٦ ـ منهج التحليل الديالكتيكي .
٧ ـ ضرورة الصراع الايديولوجي .
٨ ـ خلاصة .

١ ـ ما هي اهمية الايديولوجيات بالنسبة للماركسية ؟

نسمع عادة القول ، ان الماركسية هي فلسفة مادية تنفي دور الافكار في التاريخ ، وتنفي دور العامل الايديولوجي ، ولا تعتبر الا التأثيرات الاقتصادية .

ان ذلك خطأ . فالماركسية لا تنفي الدور المهم للذهن والفن والافكار في الحياة . على العكس : انها تعلق اهمية خاصة على اشكال الايديولوجيات هذه وسننهي هذه الدراسة للمبادىء الاولية في الماركسية فنمتحن كيفية تطبيق منهج المادية الديالكتيكية على الايديولوجيات ، سنرى ما هو دور الايديولوجيات في التاريخ ، وما هو فعل العامل الايديولوجي وما هو الشكل الايديولوجي

هذا القسم من الماركسية الذي سندرسه هو النقطة المجهولة اكثر من غيرها في

هذه الفلسفة . والسبب انه ، خلال وقت طويل ، عولج من الماركسية القسم الذي يدرس الاقتصاد السياسي ، وانتشر . مما أدى الى فصل هذه المادة تعسفاً ليس فقط عن « الكل » الكبير الذي تؤلفه الماركسية ، بل ايضا عن اسسها ، لان ما اتاح جعل الاقتصاد السياسي علما حقيقا هو المادية التاريخية ، التي هي كما رأينا ، تطبيق للمادية الديالكتيكية .

نستطيع ان نشير بشكل عابر ، ان هذا الشكل من التصرف يتأتى من الذهنية الميتافيزيقية التي نعرفها ، والتي نعاني كثيرا للتحلل منها . لنعيد اننا بقدر ما نعزل الاشياء وندرسها بشكل احادي الجانب بقدر ما نرتكب من الاخطاء .

فالتفسيرات السيئة للماركسية تتأتى اذن من اننا لم نصر بصورة كافية على دور الايديولوجيات في التاريخ وفي الحياة ، ففصلناها عن الماركسية . وبهذا فصلنا الماركسية عن المادية الديالكتيكية اي فصلناها عن نفسها .

ويسرنا ان نرى ، منذ بضع سنوات ، ان الماركسية استعادت وجهها الحقيقي ، والمكانة التي تستحقها ، بفضل الجامعة العمالية في باريس التي يدين لها بضعة آلاف بمعرفة الماركسية ، وبفضل عمل رفاقنا المثقفين ايضا الذين ادوا ، بكتبهم واعمالهم ، الى معرفة الماركسية واحتلالها المكان الذي يعود اليها .

٢ ـ ما هي الايديولوجية ؟ (العوامل والاشكال الايديولوجية) :

سنبدأ هذا الفصل ، المخصص لدور الايديولوجيات ببعض التعريفات . ما الذي نسميه ايديولوجية ؟ الذي يقول « ايديولوجية » يقول ، قبل كل شيء ، « فكرة »فالايديولوجيةهي مجموعة من الافكار التي تؤلف كلا ، نظرية ، سيستاما ، او تؤلف بكل بساطة ، حالة ذهنية في بعض الاحيان .

الماركسية هي ايديولوجية تؤلف كلا ، وتهب منهجا لحل جميع المشكلات . ايديولوجية جمهورية هي مجموعة الافكار التي نجدها في ذهن جمهوري ، معين .

لكن الايديولوجية ليست فقط مجموعة من الافكار المحضة ، منفصلة عن كل شعور (هذا تصور ميتافيزيقي) . ان ايديولوجية ما تحوي بالضرورة مشاعر واستلطافا ونفورا وآمالا ومخاوف الخ . . ففي الايديولوجية البروليتارية ، نجد عناصر المثل العليا لصراع الطبقات لكننا نجد ايضا مشاعر التضامن مع المستغلين في النظام الرأسمالي « المساجين » ومشاعر التمرد والحماسة الخ . . كل هذا هو ما يشكل ايديولوجية ما .

لنر الآن ما الذي يسمى العامل الايديولوجي ، انه الايديولوجية المعتبرة كسبب او كقوة فاعلة ، مؤهلة للتأثير ، ولذلك نتكلم عن فعل العامل الايديولوجي . فالاديان مثلا هي عامل ايديولوجي يجب ان نحسب حسابه فهي تملك قوة معنوية ما تزال تؤثر بشكل هام .

ماذا نعني بالشكل الايديولوجي ؟ نسمي كذلك مجموعة من الافكار الخاصة التي تؤلف ايديولوجية في ميدان متخصص . فالدين والاخلاق هما شكلان من الايديولوجية ، كذلك العلم ، والفلسفة والادب والفن والشعر .

فاذا اردنا تفحص دور تاريخ الايديولوجية بشكل عام ايضا وتاريخ اشكالها بصورة خاصة ، علينا ان نوجه هذه الدراسة ، ليس بفصل الايديولوجية عن التاريخ ، اي عن حياة المجتمعات ولكن باظهار دور الايديولوجية وعواملها واشكالها في المجتمع وانطلاقا منه .

٣ ـ البنية الاقتصادية والبنية الايديولوجية :

رأينا ، في دراستنا للمادية التاريخية ان تاريخ المجتمعات يفسر بالترابط الآتي : الناس يصنعون التاريخ بافعالهم ، التي هي تعبير عن ارادتهم . وهذه الارادة تحددها الافكار . رأينا ان الذي يفسر افكار الناس اي ايديولوجيتهم ، هو الوسط الاجتماعي الذي تظهر فيه الطبقات ، وهذه الطبقات تتحدد بدورها بفعل العامل الاقتصادي اي ، في نهاية المطاف ، بنمط الانتاج .

ورأينا ان العامل السياسي يوحد بين العامل الايديولوجي والعامل

الاجتماعي ، وهذا العامل السياسي يظهر في الصراع الايديولوجي كتعبير عن الصراع الاجتماعي .

فاذا تفحصنا اذن بنية المجتمع ، في ضوء المادية التاريخية ، نرى ان البنية الاقتصادية توجد في اساسه ، ثم فوقها البنية الاجتماعية التي تحمل البنية السياسية واخيرا البنية الايديولوجية .

نرى ان البنية الايديولوجية هي نقطة الانتهاء بالنسبة للماديين وهي قمة البناء الاجتماعي، بينما هي الاساس لكل شيء بالنسبة للمثاليين.

« في الانتاج الاجتماعي لمعيشتهم ، يدخل الناس في علاقات محددة ، ضرورية ومستقلة عن ارادتهم ، علاقات انتاج تتوافق مع درجة معينة لتطور قواهم المادية المنتجة . ان مجموع علاقات الانتاج هذه يكوّن البنية الاقتصادية للمجتمع ، والاساس الواقعي الذي ترتفع عليه بنية فوقية حقوقية وسياسية تتوافق مع اشكال محددة في الوعي الاجتماعي (اي اشكال من الايديولوجيات). فنمط انتاج الحياة المادية يحدد شروط سيرورة الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بصورة عامة »[1]

نرى بالتالي ان البنية الاقتصادية هي في اساس المجتمع . نقول اذن انها البنية التحتية (اي البنية التي هي تحت) .

والايديولوجية التي تتضمن جميع الاشكال : الاخلاق والدين والعلم والشعر والفن والادب ، تؤلف البنية الفوقية اي البنية التي هي فوق .

مع العلم ان الافكار هي انعكاس للاشياء ، كما تبين ذلك النظرية المادية ، وان وجودنا الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي ، سنقول اذن ان البنية الفوقية هي انعكاس للبنية التحتية .

هذا مثل من انجلس ، يبين لنا ذلك جيدا :

١ - Marx : Préface dela contribution à la critique de l'économie politique p. 4

« ان عقيدة كالڤن كانت تستجيب لمطالب القسم الاكثر تقدماً من البورجوازية في ذلك العهد . فان مذهبه القائل بالقضاء والقدر كان التعبير الديني لكون النجاح والافلاس ، في عالم التجارة والمزاحمة ، لا ينجمان عن نشاط الافراد ومهارتهم بل عن ظروف مستقلة عنهم . ولا تخضع هذه الظروف لا لارادة من يريد او من يشتغل ، انما هي تحت رحمة قوى اقتصادية جبارة ومجهولة . وقد كان ذلك صحيحا بخاصة في زمن الانقلاب الاقتصادي ، حيث كانت جميع الطرق التجارية القديمة ، والمراكز التجارية القديمة ، تزيحها طرق ومراكز جديدة ، وحين اكتشفت اميركا والهند ، وحين تداعى وانهار حتى اقدس بنود الايمان الاقتصادي ونعني به قيمة كل من الذهب والفضة »[2] .

وماذا حدث بالفعل في الحياة الاقتصادية للتجار ؟ انهم يتزاحمون . ولقد جرب التجار والبورجوازيون هذه المزاحمة ، التي فيها غالبون ومغلوبون .

وغالبا ما يكون الاكثر حذاقة والاكثر ذكاء مغلوبا ، بفعل مزاحمة مفاجئة تهلكه . هذه الازمة هي شيء غير منتظر بالنسبة له . فهي كالقدر ، وهذه الفكرة التي مؤداها انه بدون سبب يستمر الاقل خبثا ، وينتصر على الازمة ، هذه الفكرة انعكست في المذهب البروتستانتي . هذه الملاحظة بان البعض « يصل » بالصدفة ، هي التي صنعت فكرة القدر المكتوب والذي بموجبه يخضع الناس لمصير قدره الله منذ الازل .

نرى في هذا المثل ، الذي يتحدث عن انعكاس الظروف الاقتصادية كيف تكون البنية الفوقية انعكاسا للبنية التحتية .

ها كم مثلا آخر ايضا : لنأخذ ذهنية عاملين غير منتسبين للنقابة . اي غير ناضجين سياسيا . احدهما يعمل في مصنع كبير ، العمل فيه معقلن ، والآخر يعمل لدى حرفي صغير . فمن المؤكد انهما يملكان تصورا مختلفا عن رب العمل . بالنسبة للاول ، فان رب العمل سيكون المستغل المتوحش ، ميزة

٢ - كارل انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية . المقدمة ص ٢٠

الرأسمالية . والثاني سيرى رب العمل كشغيل ، مرتاح طبعا لكنه شغيل وليس طاغية .

هذا اذن انعكاس لظروف عملها الذي حدد شكل الفهم لرب العمل لديها .

هذا المثل ، المهم ، يفرض علينا الدقة في صياغة بعض الملاحظات .

٤ ـ الوعي الصحيح والوعي المغلوط :

قلنا ان الايديولوجيات هي انعكاس للظروف المادية في المجتمع ، وان الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي . وقد يستنتج من ذلك ان البروليتاريا يجب ان تملك بصورة اوتوماتيكية ايديولوجية بروليتارية .

لكن افتراضا كهذا لا يتوافق مع الواقع ، لان هناك عمالا لا يملكون وعيا عماليا .

اذن يجب ان نميز هنا : يمكن ان يعيش الناس في ظروف محددة ولكن وعيهم لها قد لا يتوافق مع الواقع . وهذا ما يسميه انجلس « الوعي المغلوط » .

مثلا : بعض العمال متأثرون بمذهب التضامن الحرفي الذي هو عودة الى العصور الوسطى ، الى الحرفية . في هذه الحالة ، هناك وعي لبؤس العمال . ولكنه ليس وعيا صحيحا وصادقا . الايديولوجية هي هنا انعكاس لظروف الحياة الاجتماعية ، ولكنها ليست انعكاسا امينا ، ولا دقيقا .

ان الانعكاس هو غالبا ، في وعي الناس ، انعكاس « مقلوب » ان ملاحظة واقع البؤس هو انعكاس للظروف الاجتماعية ، لكن هذا الانعكاس يصبح خاطئا عندما نظن ان عودة نحو الحرفية ستحل المشكلة . نرى هنا اذن وعيا صحيحا في جزء منه ، ومغلوطا في جزء آخر .

العامل الذي هو من انصار المَلَكية ، يملك ايضا وعيا صحيحا ومغلوطا في آن واحد . صحيح : لانه يريد ازالة البؤس الذي يلاحظه ، ومغلوط لانه يظن

ان مَلِكا يستطيع ان يفعل ذلك . وببساطة لانه اخطأ التعليل واخطأ اختيار ايديولوجية من الممكن ان يصبح هذا العامل بالنسبة لنا عدوا طبقيا مع انه من نفس طبقتنا . وهكذا فان امتلاك وعي مغلوط هو ان ننخدع او نكون مخدوعين بالنسبة لوضعنا الحقيقي .

سنقول اذن ان الايديولوجية هي انعكاس الظروف المعيشية ولكنها ليست انعكاسا قدرياً .

وعلينا ان نلاحظ ، في كل الاحوال ، ان كل شيء قد شُغّل لاعطائنا وعيا مغلوطا ، ولانماء تأثير ايديولوجية الطبقات الحاكمة على الطبقات المستغلة . فالعناصر الاولى لتصور الحياة التي نتلقاها وكل ما نتلقى في تربيتنا وتعليمنا تعطينا وعيا مغلوطا . وروابطنا في الحياة ، وبقايا الفلاحية عند البعض ، والدعاية والصحافة والراديو ، تزور وعينا في بعض الاحيان ايضا .

وبالتالي ، فان للعمل الايديولوجي اهمية بالغة بالنسبة لنا كماركسيين . فلاكتساب وعي صحيح يجب هدم الوعي المغلوط ، وهذا التحويل لا يمكن تحقيقه بدون العمل الايديولوجي .

ان الذين يعتبرون ويقولون ان الماركسية هي عقيدة قدرية هم على خطأ اذن ، لاننا نعتقد بحق ان الايديولوجيات تلعب دورا كبيرا في المجتمع ، ونعتقد انه علينا ان نعلّم ونتعلم هذه الفلسفة الماركسية حتى تلعب دور الاداة والسلاح الفعال بالنسبة لنا .

٥ ـ فعل ورد فعل العوامل الايديولوجية :

رأينا بالامثلة عن الوعي الصحيح والوعي المغلوط ان الافكار يجب ان لا تفسر دائما بالاقتصاد فقط فننفي فعل الافكار نفسها . ان مثل هذا التصرف هو تفسير للماركسية بصورة سيئة .

فالافكار تفسر طبعا في نهاية التحليل بالاقتصاد ولكنها تملك فعلا خاصا بها .

« بموجب التصور المادي للتاريخ ، نرى ان العامل المحدد للتاريخ هو في نهاية المطاف ، انتاج الحياة الواقعية واعادة انتاجها . ولم يؤكد ماركس ولا انا (انجلس) اكثر من ذلك. واذا عالج احدهم ذلك ، ليقول بان العامل الاقتصادي هو المحدد الوحيد، فهو يحول هذا القول الى جملة فارغة مجردة ، يحوله الى خلف فالوضع الاقتصادي هو الاساس ، لكن مختلف اجزاء البنية الفوقية تؤثر ايضا على مجريات الصراع التاريخي ، وتحدد بنسبة غالبة ، شكل الصراع في كثير من الحالات ، فهناك فعل ورد فعل لجميع هذه العوامل ، تشق في وسطها الحركة الاقتصادية طريقا لها في النهاية كشيء الزامي وسط هذا الحشد من الصدف اللامتناهية[3] ».

نرى اذن انه يجب فحص كل شيء قبل البحث عن الاقتصاد وانه ، اذا كان الاقتصاد هو السبب في نهاية التحليل ، فيجب التفكير دائما بانه ليس السبب الوحيد .

فالايديولوجيات هي انعكاسات ونتائج للظروف الاقتصادية ، لكن العلاقة بينها ليست بسيطة لاننا نلاحظ فعلا عكسياً للايديولوجيات على البنية التحتية .

فاذا اردنا دراسة الحركة الجماهيرية التي نمت في فرنسا بعد ٦ شباط ١٩٣٤ سندرسها بوجهين على الاقل للبرهنة على ما كتبناه .

١ ـ البعض يشرح هذا التيار بقوله ان الازمة الاقتصادية كانت السبب . وهذا شرح مادي لكنه احادي الجانب . انه لا يأخذ في الاعتبار الا عاملا واحدا هو الاقتصاد، هنا: الازمة.

٢ ـ هذا التعليل صحيح في قسم منه ، ولكن بشرط ان نضيف له ، كعامل للتفسير، ما يظنه الناس أي الايديولوجية . والحال في هذا التيار الجماهيري، الناس

٣ ـ Voir dans Marx — Engels. Etudes philosiphiques. la lettre d'Engels à Joseph. Bloch.

هم «ضد الفاشية»، هذا هو العامل الايديولوجي. واذا كان الناس ضد الفاشية فذلك بفضل الدعاية ، هذه الدعاية التي ولدت الجبهة الشعبية . ولكن حتى تكون الدعاية فعالة يجب ان تكون التربة صالحة ، وما استطعنا فعله في ١٩٣٦ لم يكن ممكنا في ١٩٣٢ . اخيرا ، نحن نعرف كيف اثرت هذه الحركة الجماهيرية وايديولوجيتها بعد ذلك في الاقتصاد بفعل النضال الاجتماعي الذي ولدته .

نرى اذن في هذا المثل ان الايديولوجية التي هي انعكاس للظروف الاجتماعية تصبح بدورها سببا للاحداث .

« ان التطور السياسي والحقوقي والفلسفي والديني والادبي والفني الخ . .

يرتكز على التطور الاقتصادي . لكنها تفعل جميعها ايضا الواحدة في الاخرى كما تفعل في الاساس الاقتصادي . وليس ذلك هو كذلك لان الوضع الاقتصادي هو السبب ، وهو وحده الناشط وكل ما تبقى انفعال . هناك على العكس فعل ورد فعل على اساس الضرورة الاقتصادية التي تتغلب دائما في نهاية المطاف[4] .

وهكذا مثلا ، فان :

« اساس الحق الارثي ، بافتراض المساواة في مرحلة تطور العائلة ، هو اساس اقتصادي . بيد انه من الصعب ان نبرهن مثلا ان حرية الوصية ، المطلقة في انكلترا ، ومحدوديتها الكبيرة في فرنسا ، ليس لها في جميع خصوصياتها الا اسباب اقتصادية . ولكن في قسم مهم جدا الاثنين ، (اي حرية الوصية ومحدوديتها) ، يفعلان في الاقتصاد لكونهما يؤثران في توزيع الثروة »[5]

سنأخذ مثل الضرائب ، حتى نأخذ مثلا اكثر معاصرة . كلنا يملك فكرة عن

٤ ـ Marx — Engels : Etudes pilosophiques. Lettres d'Engels à Heinz Stakenburg
٥ ـ Idem : Lettre d'Engels à Conrad Schmidt

الضرائب . يريد الاغنياء ان يعفوا من الضرائب ، وهم دعاة الضرائب غير المباشرة . الشغيلة والطبقات الوسطى تريد ، على العكس ، تشريعا ضريبيا مؤسسا على الضريبة المباشرة والتصاعدية . اذن فكرتنا عن الضرائب ، والتي هي عامل ايديولوجي ، اصلها في الوضع الاقتصادي الذي هو وضعنا والذي خلقته وفرضته الرأسمالية . فالاغنياء ، يريدون الاحتفاظ بامتيازاتهم ويناضلون للاحتفاظ بالطريقة الحالية في فرض الضرائب ، وتقوية القوانين في هذا الاتجاه . لكن هذه القوانين التي تتأتى من الافكار ، تفعل في الاقتصاد لانها تقتل التجارة الصغيرة والحرفيين وتعجل بالتمركز الصناعي .

ونحن نرى بالتالي ، ان الظروف الاقتصادية تولد الافكار ، ولكن الافكار ايضا تولد تعديلات في الظروف الاقتصادية . ويجب عند تفحص الايديولوجيات ، جميع الايديولوجيات ، ان نأخذ بالاعتبار تبادل العلاقات

هذا ، ولا نرى ان الضرورات الاقتصادية تتغلب عليها دائما الا في نهاية التحليل .

ونعلم ان مهمة نشر الايديولوجيات، إن لم نقل الدفاع عنها، تقع على عاتق الكتاب والمفكرين ، وهم، وان كانت كتاباتهم وافكارهم غير مميزة دائماً ، لكننا نجد في الواقع لدى تحليل الكتابات التي تبدو كقصص بسيطة واخبار، نجد دائماً ايديولوجية ما. ان القيام بهذا التحليل هو عمل دقيق للغاية، ويجب القيام به بكثير من الحيطة . والمنهج الديالكتيكي الذي سنعينه ، سيكون مساعدا كبيرا ولكن يجب الحذر حتى لا نكون آليين فنحاول تفسير ما لا يفسر.

٦ ـ منهج التحليل الديالكتيكي :

لتطبيق المنهج الديالكتيكي جيداً ، يجب ان نعرف الكثير من الاشياء . واذا كنا نجهل موضوعها ، يجب ان ندرسه بدقة ، والا فان ما نحصل عليه هو ببساطة كاريكاتور حكم .

سنعين منهجا نستطيع تطبيقه في تحليل كتاب او قصة ديالكتيكيا ، ونستطيع تطبيقه ايضا على موضوعات اخرى .

أ ـ يجب الانتباه اولا الى محتوى الكتاب او القصة التي نحللها . وفحصها بصورة مستقلة عن كل مسألة اجتماعية ، لان ليس كل شيء يتأتى عن الصراع الطبقي والظروف الاقتصادية .

هناك تأثيرات ادبية يجب ان نأخذها في الحسبان . محاولة رؤية الى اية « مدرسة ادبية » ينتمي العمل . ان نأخذ بالاعتبار التطور الداخلي للايديولوجيات . عمليا ، سيكون من المفيد تحقيق خلاصة للموضوع المحلل والاشارة الى ما يلفت النظر فيه .

ب ـ مراقبة النماذج الاجتماعية ، ابطال الحبكة ، البحث عن الطبقة التي ينتمون اليها . فحص نشاط الشخصيات ، ورؤية : هل نستطيع ربط ما يحدث بوجهة نظر اجتماعية ، بشكل ما .

فاذا كان ذلك مستحيلا ، واذا لم نستطع تحقيق ذلك بصورة عقلية ، فمن الاحسن ترك التحليل بدلا من الاختراع . يجب ان لا نخترع تفسيرا ابدا .

ج ـ عندما نجد الطبقة او الطبقات التي هي موضوع التحليل ، يجب البحث عن الاساس الاقتصادي اي ما هي وسائل الانتاج ، وشكل الانتاج في اللحظة التي يحدث فيها العمل القصصي .

فاذا حدث الأمر في ايامنا، فالاقتصاد هو الرأسمالية . نرى حاليا العديد من القصص والروايات التي تنتقد وتحارب الرأسمالية ولكن هناك شكلين لمحاربة الرأسمالية .

أ- ثوري يسير الى الامام .

ب ـ رجعي يريد الرجوع الى الماضي ، وهذا الشكل نجده غالبا في القصص الحديثة ، حيث يتم التأسف على الزمن الماضي .

د ـ عندما نحصل على كل هذا ، نستطيع البحث عن الايديولوجية اي النظر في ما تكون عليه الافكار والمشاعر ، وما هو شكل تفكير الكاتب .

ونحن ببحثنا عن الايديولوجية ، نفكر بالدور الذي تلعبه ، بتأثيرها على

ذهن الناس الذين يقرأون الكتاب .

هـ ـ يمكننا عندئذ ان نعطي نتيجة التحليل ، وان نقول : لماذا كتبت هذه القصة او الرواية في وقت كهذا . وان نفضح نوايا الكاتب بحسب الحالة ، او نمدحها (والتي هي غالبا واعية عنده) .

ان هذا المنهج في التحليل ليس نافعا الا اذا تذكرنا ونحن نطبقه كل ما قيل سابقا . فعلينا ان نفكر جيدا ان الديالكتيك ، وهو يحمل لنا شكلا جديدا في تصور الاشياء ، يتطلب ايضا معرفة جيدة بهذه الاشياء حتى نتحدث عنها ونحللها .

يجب علينا بالتالي ، في دراساتنا ، وفي حياتنا النضالية والشخصية ، الآن وقد رأينا على اي شيء يقوم هذا المنهج ، ان نحاول رؤية الاشياء في حركتها وفي تغيراتها وفي تناقضاتها ، وفي معانيها التاريخية ، وليس في حالتها الجامدة الثابتة ، رؤيتها ودراستها ايضا من كل الوجوه ، وليس بشكل احادي الجانب . وبكلمة واحدة ، ان نطبق في كل مكان ودائما الذهنية الديالكتيكية .

٧ ـ ضرورة الصراع الايديولوجي :

نحن نعرف الآن ، بصورة افضل ، ما هي المادية الديالكتيكية ، التي هي شكل حديث من المادية اسسها ماركس وانجلس وطورها لينين . لقد استخدمنا بصورة خاصة في هذا الكتاب مقاطع من ماركس وانجلس ، ولكننا لا نستطيع ان ننهي هذا الموضوع دون ان نشير بصورة خاصة ان العمل الفلسفي للينين هو عمل كبير القيمة[٦] . لذلك يتكلمون اليوم عن الماركسية اللينينية .

ان الماركسية اللينينية والمادية الديالكتيكية هي وحدة لا تنفصم ، وما يتيح

٦ ـ راجع لينين في ثبت المصطلحات والاعلام . الاسهام الفلسفي اللينيني في الماركسية الذى سيكون النظر فيه هنا طويلا ومعقدا ـ يظهر واضحا في كتابه المادية والمذهب النقدي التجريبي وفي الدفاتر الفلسفية .

قياس اتساع الماركسية اللينينية ومداها وغناها هو معرفة الماد الديالكتيكية . وهذا ما يدفعنا الى القول ان المناضل لا يكون مسلحا ايديولوجيا بشكل صحيح الا اذا عرف هذا المذهب بمجمله .

لقد فهمت البورجوازية ذلك جيدا ، لذلك فهي تجهد نفسها لادخال ايديولوجيتها الخاصة في وعي الشغيلة مستعملة في ذلك جميع الوسائل . وبما انها تعلم تماما ان المادية الديالكتيكية هي الجانب المجهول اكثر من غيره في الماركسية ـ اللينينية ، فقد نظمت ضدها مؤامرة من الصمت . فمن الشاق علينا ان نلاحظ ان التعليم الرسمي يتجاهل منهجا كهذا ، فيتابع التعليم في المدارس والجامعات بنفس الطريقة المتبعة منذ مئة عام .

فاذا تغلب المنهج الميتافيزيقي على المنهج الديالكتيكي قديما ، فذلك بسبب الجهل كما رأينا . لقد اعطانا العلم اليوم الوسائل التي تبرهن ان المنهج الديالكتيكي هو الوحيد الذي يتوافق تطبيقه مع البحوث العلمية . فمن الفاضح ان نتابع تعليم اطفالنا كيف يفكرون وكيف يدرسون في ضوء منهج ناشىء عن الجهل .

فلذا كان العلماء في ابحاثهم العلمية ، لا يستطيعون ان يدرسوا ضمن اختصاصاتهم دون ان يأخذوا في الاعتبار تفسيرات العلوم ، فيطبقون بذلك جزءا من الديالكتيك بصورة غير واعية ، لكنهم يحملون معهم غالبا تكوين ذهنهم الميتافيزيقي الذي اعطي لهم . فكم من تقدم كان حققه او اتاح تحقيقه المفكرون الكبار الذين اعطوا اشياء كثيرة الى الانسانية ، لو كانوا يملكون تكوينا ذهنيا ديالكتيكيا ، لنفكر مثلاً بباستور[٧] وبرنلي اللذين كانا مثاليين ومؤمنين .

ولكن هناك شكلا من الصراع ضد الماركسية اللينينية اخطر بكثير ايضا من هذه الحملة من الصمت . هذا الشكل هو : التزوير الذي تحاول البورجوازية تنظيمه داخل الحركة العمالية نفسها . فنرى في هذا الوقت ازدهار « منظرين »

٧ - Voir L'introduction d'Ernest Kahan à Pasteur: Pages Choisies «les classiques du peuple».

عديدين يقدمون انفسهم « كماركسيين » ويدعون « تجديد » و« تحديث » الماركسية . وتختار هذه الحملات غالبا كنقطة ارتكاز لها وجوه الماركسية المجهولة اكثر من غيرها ، وبصورة خاصة جدا الفلسفة المادية .

وهكذا مثلا ، هناك اناس يعلنون قبول الماركسية كتصور للعمل الثوري ، ولكن ليس كتصور عام للعالم . فيعلنون انهم يستطيعون ان يكونوا ماركسيين تماما دون ان يقبلوا الفلسفة المادية . وبالتطابق مع هذا الموقف العام تنمو محاولات مختلفة للتهريب . اناس يدعون انهم ماركسيون ، ويريدون ادخال تصورات في الماركسية لا تنسجم مع الاساس الماركسي نفسه ، اي مع الفلسفة المادية . لقد عرفنا محاولات من هذا النوع في الماضي . ولقد كتب لينين كتابه : « المادية والمذهب النقدي التجريبي » ضد هؤلاء . وفي الوقت الحاضر ، في زمن الانتشار الواسع للماركسية ، نشاهد بعث هذه المحاولات وتكاثرها . فكيف نتعرف الى هذه المحاولات التي تتعرض للماركسية بوجهها الفلسفي بشكل خاص ، وكيف نكتشفها ، اذا كنا نجهل الفلسفة الحقيقية للماركسية ؟

٨ ـ خلاصة :

لحسن الحظ ، يشاهد ، منذ عدة سنوات ، اندفاع هائل عند الطبقة العاملة لدراسة الماركسية بمجملها ، واهتمام متزايد لدراسة الفلسفة المادية بشكل دقيق . وهذه اشارة الى ان الطبقة العاملة قد احست تماما بصواب الاسباب التي اعطيناها في البداية لصالح دراسة الفلسفة المادية . فالشغيلة تعلموا بتجربتهم الخاصة ضرورة ربط النظرية بالممارسية ، وضرورة دفع الدراسة النظرية في نفس الوقت الى ابعد ما يمكن . فدور كل مناضل يجب ان يقوم على تقوية هذا التيار ، واعطائه الوجهة الصحيحة والمحتوى الصحيح . نحن سعداء لرؤية بضعة آلاف من الاشخاص قد تعلموا ما هي المادية الديالكتيكية بفضل الجامعة العمالية في باريس[٨] . واذا كان ذلك يظهر بشكل اخاذ ، في نضالنا ضد البورجوازية مبينا الى جانب من يقف العلم ، فان ذلك يشير ايضا

٨ ـ اليوم « الجامعة الجديدة »

الى ما هو واجبنا . يجب ان ندرس ، علينا ان نعرف الماركسية ونجعلها معروفة في كل الاوساط . ففي الشارع ، وبصورة متوازية في العمل ، يجب على المناضلين ان يقودوا النضال الايديولوجي . واجبهم الدفاع عن ايديولوجيتنا ضد جميع اشكال الحملات وفي نفس الوقت ان يقودوا « الهجوم المضاد » لهدم الايديولوجية البورجوازية في وعي الشغيلة . لكن للسيطرة على جميع وجوه الصراع ، يجب ان يكون الانسان مسلحا . والمناضل لا يكون مسلحا الا بمعرفة المادية الديالكتيكية .

وبانتظار ان نبني المجتمع اللاطبقي حيث لا شيء يعيق تطور العلوم ، فان ذلك جزء اساسي من واجباتنا .

ثبت المصطلحات والاعلام

ابيقور :

فيلسوف يوناني (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق . م) درس الفلسفة في اثينا ، ولم يبق لنا من عمله الذي كان يعد ، كما قيل ، حوالي ٣٠٠ كتاب سوى عدة رسائل تحوي خلاصة مبدئه ومجموعة من الامثال كذلك .

يعلم ابيقور ان العالم مركب من عدد من الذرات لا نهاية له يلتقي ويندمج ثم ينفصل بفضل سببية نقطة انطلاقها عرضية . وقد يوجد كثير من الآلهة ، لكنها وفقا لافكار ابيقور ، لا تهتم بعالمنا في كل الاحوال . الانسان اذن حر ، وليس له ان يخاف الموت . وهكذا بما انه تجرد من الخوف والخطأ ، فيجب ان يتجنّب الخيرات السريعة العطب والزائلة، وان يبحث عن الخير الثابت والمستمر الذي تهبه اللذات المعتدلة.

علم الاحاثة :

يبحث في المتحجرات اي في الحيوانات والنباتات المحفوظة بشكل بقايا او بصمات في الطبقات الجيولوجية .

الارتوذكسية :

هي التزام رأي ما بالايمان الديني المعترف بصحته ، تستعمل كذلك بتوسع لتعيين التزام التصور الاصلي والدقيق لنظرية فلسفية علمية الخ .

أرسطو :

(٣٨٤ ـ ٣٢٢ق . م) كان مع افلاطون اكبر الفلاسفة الاقدمين . علم في اثينا التي هرب اليها قبل موته بسنة خوفا من المطاردات بسبب كفره . تلميذ افلاطون لكنه كان خصما له . لقد حاول ارسطو ان يعطي الفلسفة المثالية

الافلاطونية اساسا واقعيا ، انطلاقا من الملاحظة المنظمة للعالم الحسي . ولكنه يذهب كما يفعل افلاطون، من مفهوم الفكرة القائلة ان كل وجود او جوهر مصنوع من مبدأين اثنين : المادة والصورة ، المادة هي الكتلة الخام ، الجامدة ، غير المتميزة ، وحتى تصبح هذا الشيء او ذاك « هذا » او « ذاك » يجب ان تنطبع فيها الصورة . فالصورة هي الفكرة الناشطة ، النوعية ،وهي التي تعطي المادة كيفيتها ، والله هو الصورة الاسمى التي تحتوى جميع الصور الاخرى .

كذلك ادخل ارسطو الغائية وابعد بذلك التصور الميكانيكي لديمقريطس . فالله هو منظم الكون . ان ارسطو هو مؤسس المنطق كنظرية للتفكير الصحيح . وفكرة النمو في سيستامه فكرة مركزية في النمو الكوني والنمو العضوي ، ونمو اشكال الدولة . ان اشكال النمو هذه معتبرة كنمو من الناقص الى الكامل ، ومن العام الى الخاص . يسميه انجلس الدماغ الاكثر كلية بين جميع الفلاسفة اليونان ، فهو الذي اندفع من قبل نحو البحث عن اشكال اساسية للتعليل الديالكتيكي (انظر فريديريك انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية) .

لم يحفظ تلامذة هذا العالم الكبير والمنطقي الكبير في القرون الوسطى من تعليمه الا الوجه الشكلي والمجرد . وكان عجزهم عن التفكير من جديد بالارسطية في ضوء تقدم العلم قد جعل منها سيستاما جافا وعقيما . هذا السيستام كون اساس المدرسية .

الاستنباط :

هو التعليل الذي يعلن نتائج معينة ، انطلاقا من قضية ما او حدث ما او هو الذي يستخلص ايضا الخاص من العام .

الايليون :

(فلاسفة ايليه Elée) . وايليه مدينة اسسها اليونان في ايطاليا الجنوبية ، يعارضون هيراقليط ومدرسة ميله (انظر اطاليس) . اكد الايليون استقرار

الوجود اشهرهم زينون (حوالي ٥٠٠ ق .م).

الاسمية :

المذهب الاسمي هو عقيدة فلسفية تعتبر ان المفاهيم العامة والاجناس والانواع لا توجد الا بالاسم . يوجد فقط الفرد والفردي . والمفهوم والجنس لا يوجدان الا بالنسبة للذكاء .

افلاطون :

٤٢٧ ـ ٣٤٨ قبل الميلاد) فيلسوف يوناني ، واكبر المفكرين المثاليين في العصور القديمة .

فالاشياء المحسوسة التي ندركها ، لا تكون بالنسبة له الواقع الحقيقي ، هي ليست سوى مظاهر انعكاسات ونسخ . الواقع الحقيقي لا ينتمي الا للمثل ، التي هي نماذج بدائية للاشياء المحسوسة ومعلقة في سماء عقلي ، ثابت وابدي . اذن هناك من المثل بقدرما هناك من الاشياء : مثال الطاولة ، مثال الكرسي الخ . . يجب ان نفهم ان هذه المثل ليست تمثلات بسيطة فينا ، بالنسبة له ، بل هي كائنات واقعية تعيش وجودا مستقلا عنا . فالمعرفة ليست ممكنة الا « بتذكرنا » للمثل التي شاهدناها في وجود سابق ، قبل ولادتنا الجسدية . هذه نظرية « التذكر » . يبقى ان افلاطون طور عناصر الديالكتيك ولكن بشكل مثالي وكلامي في آن واحد . فالمثالية الافلاطونية في اطروحاته السياسية ـ الاجتماعية هي ايديولوجية الطبقات المسيطرة للمجتمع القديم المرتكز على عمل العبيد ، في حقبة تسارع انحطاطها بفضل تطور الاقتصاد التجاري والتربوي .

في مؤلفه « الجمهورية » عرض افلاطون مثاله للدولة حيث يطلب شيوع الثروات للشريحة المسيطرة من الارسطوقراطيين . وهذا هو التخريف الاكبر للطوباويات الاشتراكية في العصور القديمة . مؤلفاته الرئيسية هي بشكل محاورات كريتون[1] ـ الدفاع عن سقراط ـ فيدون ، طيماوس ، فيدر ، غورجياس ، تيوتيت ، الجمهورية ـ القوانين الخ .

اناكسيمنس الميلي :

فيلسوف في المدرسة الايونية ، عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، تلا معلمه اناكيسمندرس ، وكان اناكسوغوراس وديوجين الابولوني من اتباعه . كان يؤمن بأن الهواء هو مبدأ جميع الاشياء .

انجلس :

(فريدريك (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) اعز صديق لماركس ورفيق النضال الدائم واحد مؤسسي المادية الديكالكتيكية والاشتراكية العلمية ساعد ماركس في بيان الحزب الشيوعي ، احد مؤسسي عصبة الشيوعيين وتجمع العمال الاممي او الاممية الاولى . اصبح بعد موت ماركس (١٨٨٣) الرئيس الروحي المعترف به واكبر مرجع للحركة العمالية العالمية . اهميته الاولى تكمن في عرض المادية الديالكتيكية وتطويرها . يجب اعطاء الاولوية في اعماله النظرية لبلاغاته الفلسفية التي هي آثار عظمى احدثت في الفكر البرولتياري تأثيرا مستمرا ، واكتسبت اهمية تتزايد باستمرار ، اظهر انجلس فيها بكفاءة ووضوح لا مثيل لها العلاقات الديالكتيكية للفلسفة مع صراع الطبقات الاجتماعي ومع تطور القوى المنتجة ، والانطلاق المتوازي لعلوم الطبيعة . فيقود القارىء هكذا بطرق جديدة دائما الى هذه الحقيقة . ان اي فلسفة تحرر الانسانية بكاملها بصورة واقعية ، لا يمكن ان تكون الا الفلسفة الديالكتيكية ، لانها وحدها قادرة على حفظ التفكير النظري من سيلا (Scylla) المثالية ومن شاريبد (Charybde)[2] المادية المبتذلة الالية ، وتؤكد النصر لنظرية مادية منسقة للمعرفة .

اعماله الرئيسية هي : « انتي دوهرنغ » كتاب جدالي مؤلف على طريقة

١ ـ Criton — L' Apologie de Socrate — Phédon — Tinée — Phèdre Gorgias — le Banquet Théetète — la République — les lois, etc.

٢ ـ اي حفظها من خطأ المثالية ومن خطأ المادية المبتذلة (المترجمة)

ليسنغ ، مليء بالجدة والحمية والحماسة المكافحة هو دفاع فريد خصب بالتصور المادي للعالم ، « لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية » بحث ممتاز عن تطور الفلسفة من هيجل حتى ماركس . مؤلف آخر غير معروف كثيرا ، لكن له جميع الصفات التي تجعله مع « انتي دوهرنغ » السلاح الاساسي للماركسيين في الصراع ضد الدينامات المثالية الجديدة في الفلسفة : « ديالكتيك الطبيعة » مجموعة من الموضوعات والمقاطع التي طبعت في فرنسا منذ عدة سنوات ، كتبت من ١٨٧٣ الى ١٨٩٢ ، تحوي بالرغم من ان الاكتشافات العلمية قد تجاوزتها في بعض النقاط ـ منجما لا ينضب لجميع هؤلاء المعنيين بالنضال من اجل المادية الديالكتيكية وتفسيرها الصحيح ، ولهؤلاء الذين يؤمنون بضرورة تجسيد العلوم الطبيعية الحديثة في الماركسية بشكل متناسق . بين اعماله النظرية والمنهجية المهمة : « وضع الطبقة الكادحة في انكلترا » (١٨٤٥) ، « بيان الحزب الشيوعي » ١٨٤٨ ـ كتب بالاشتراك مع ماركس « الثورة الديموقراطية والبورجوازية في المانيا » .

(١٨٥٠ ـ ١٨٥٢) . تحتوي « حرب الفلاحين » و« والثورة المضادة في المانيا » و« الحملة لتأسيس الرايخ » ثم « الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية » (١٨٨٠) و« اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (١٨٨٤) و« مسألة السكن » (١٨٧٢) و« مساهمة في تاريخ المسيحية البدائية » (اعيد طبعه في مجموعة ماركس انجلس : حول الدين) ودراسات عن « رأس المال » و« نقد برنامج وافروت » (١٨٩١) .

فوق ذلك نشير الى « حول الفن والادب و« حول الدين ودراسات فلسفية » ورسائل حول « رأس المال » وكلها نصوص مختارة من ماركس وانجلس .

ان دراسة مراسلة انجلس هي ايضا ضرورية ، وقبل كل شيء نذكر مراسلة ماركس مع انجلس (٩ كتب) ومراسلة انجلس وبول ولورالافارغ (٣ كتب) .

جميع هذه المؤلفات التي اوردناها ، ما عدا مراسلة ماركس ـ انجلس نشرت في المنشورات الاجتماعية ، التي نشرت طبعة كاملة للمراسلات في ١٩٧٠ .

باركلي :

(١٦٨٥ ـ ١٧٥٣) جورج ، فيلسوف انكليزي ، اسقف ومبشر سيء الحظ في امريكا لبعض الوقت . يتسم نشاطه اللاهوتي بطابع رجعي تماما ، فقد كان راهبا بروتستانتيا في ايرلندا الكاثوليكية الملحقة والمستعمرة في بداية القرن الثامن عشر ، وكان في خدمة الامة الانكليزية الغازية . وبصورة موازية للتأملات الروحية ، اهتم باركلي بتأملات اكثر مادية (مثلا جدوى بيوت العمال الشهيرة ، وعمل الاطفال) كما يظهر ذلك في كتابه « رسالة في وسائل تجنب خراب بريطانيا العظمى » (١٧٢٠) الذي الفه بمناسبة افلاس شركة سوسي من جراء مضاربة مغامرة .

لقد ابرز لينين ميزات فلسفته ، ونجد عرضا لذلك في الكتاب الذي بين ايدينا في القسم الاول ـ الفصل الثاني . وفحص ماركس تصوراته الاقتصادية فحصا جيدا في « Querist » وخاصة عن النقود وذلك في كتابه « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » .

اعماله : « النظرية الجديدة لادراكات الروح » (١٧٠٧) « مبادىء المعرفة البشرية » (١٧١٠) « محاورات هيلاس وفيلونوس » (١٧١٢)[٣] .

باستور :

لويس (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) ولد في دول « Dole » هو كيميائي وبيولوجي مشهور باكتشافاته العلمية والنفعية المتعددة . ساعد على تقدم العلم في الصراع ضد الامراض المعدية (راجع صفحات مختارة في « كلاسيكيات الشعب») .

برنلي :

ادوار (١٨٤٦ ـ ١٩٤٠) فيزيائي ، اكتشف سنة ١٨٧٣ خصائص اوكسيد

٣ ـ « Nouvelle théorie des perceptions de l'esprit » Principes de la connaissance Humaine « traduction Francaise par charles Renouvier Paris (1920) — Dialogues entre Hylas et Philonoüs traduction Française par F. Beaulavon. paris 1895)

النحاس « لتقويم » التيارات المترددة في السنة ١٨٨٨ حقق الاتصالات الاولى بالراديو باكتشافه خصائص « الانبوب ذي النحاتة » وبفضل« مكثافه »[٤] ولد اللاسلكي . في السنة ١٨٩٨ عرض على اكاديمية العلوم تطبيق اكتشافه على طلب النجدة للبواخر .

برودون

بيير جوزف(١٨٠٩ - ١٨٦٥)كاتب واقتصادي فرنسي ، هو الممثل الكلاسيكي لاشتراكية صغار البورجوازيين . ابن فلاحين فقراء ، اشتغل كمصحح في باريس وفي مرسيليا وفي مدن اخرى ، وترأس مطبعة في بيزنيسون لبعض الوقت .

كتب « ما الملكية » ظهر في السنة ١٨٤٠ وهو الذي تضمن الجملة الشهيرة « الملكية هي السرقة » . التناقض الاقتصادي او فلسفة البؤس « ظهر في السنة ١٨٤٦ ورد عليه ماركس بكتابه « بؤس الفلسفة » كتب برودون ايضا « المقدرة السياسية للطبقات العمالية[٥] (١٨٥١) هذا الكتاب الذي احدث اثرا عميقا في الحركة العمالية الاشتراكية الفرنسية . برودون هو في نهاية الامر ، طوباوي بورجوازي صغير ، لا تصمد له حجة امام نقد ماركس الذي اعلن عن معارضته في اغلب الاحيان .

سمي برودون غداة ثورة ١٨٤٨ عضوا في الجمعية التأسيسية ، ووثق في لويس نابليون ، منذ استيلائه على السلطة في ٢ كانون الاول ١٨٥١ ليحقق انتصار العدالة الاجتماعية .

بور - رويال :

دير ، اسس في السنة ١٢٠٤ ، وهو دير حناوي مشهور بالقرب من شافروز Seine oise وهي بلدة ماغني لوهامو(Magny-le-hameau) تعود شهرة

٤ - اداة تكشف عن الموجات الكهربائية (المترجمة)

٥ - La capacité politique des classes ouvrières

هذا الدير للصراع بين الحناويين واليسوعيين في ظل لويس الرابع عشر والى صياغة (دراسة منطقية) ذات الميول الارسطية ، هدم في السنة ١٧١٠بأمر من الملك .

بيكون :

فرنسيس دوفيرولام (١٥٦١ - ١٦٢٦) هو فيلسوف انكليزي شهير ، عضو في مجلس العموم في السنة ١٥٩٣ ، سمي محاميا عاديا للتاج في السنة ١٦٠٤ . في السنة ١٦١٣ سمي وزيرا للعدل ، في ١٦١٧ حاملا لاختام الملك . في ١٦١٨ رئيس القضاء للتاج الملكي . في السنة ١٦٢٤ حكم عليه في البرلمان بالحبس والسقوط بتهمة الرشوة . اعيدت اليه حريته في غضون يومين وعاد الى الحياة الخاصة .

فرنسيس بيكون هو مؤلف عدد كبير من المؤلفات العلمية والفلسفية ويجب ان نلحظ بينها بصورة خاصة « الاورغانون الجديد » ١٦٢٠ الذي يعارض فيه ميتافيزيقا الافكار القبلية القديمة ، بالمنطق المبني على التجربة .

فرنسيس بيكون هو احد مؤسسي الفلسفة الحديثة والمنهج العلمي الحديث .

التحليل :

عملية ذهنية تقوم على تفكيك شيء ما او فكرة ما الى عناصرها .

التشريح :

علم يدرس بنية الكائنات الحية وعلاقة مختلف الاعضاء التي تتركب منها

التصوف :

هو موقف فلسفي وديني ، يقوم الكمال ، وفقا له ، (في المعرفة كما في الاخلاق) على نوع من التأمل الذي يوحد الانسان والخالق بصورة سرية . ونعني ايضا بلفظة صوفي وضعية للذهن تصدق ، وفقا لهذه الوضعية ، كل ما هو غامض وسري . وتقابل العقلانية .

توما الاكويني :

القديس (١٢٢٧ ـ ١٢٧٤) لاهوتي وفيلسوف في العصور الوسطى . حاز لقب دكتور (يقابل : إمام) في الكنيسة ، مؤلفاته الرئيسية هي : مجموعة فلسفية ضد الوثنيين ، ومجموعة لاهوتية . تعرض الاولى العقيدة الكاثوليكية وتدافع عنها ، وتجهد لتبين ان الايمان والعقل لا يتعارضان . والثانية تضعها الكنيسة الى جانب الكتب المقدسة وتنقسم الى ثلاثة اقسام :

١ ـ دراسة عن الله . ٢ ـ نظرية في ملكات الانسان . ٣ ـ دراسة عن يسوع ـ المسيح وخلاص البشر على يديه والاسرار[٦] .

ان التومائية هي العقيدة اللاهوتية والفلسفية للقديس توما الاكويني ، وهي منتشرة حاليا ايضا عند الفلاسفة الكاثوليك ، وهي عقيدة سكولاتية متطرفة ورجعية بصورة عميقة (وهذا ما يفسر كونها الفلسفة الرسمية للاكليروس والبابوية) .

الحسية :

مذهب فلسفي تأتي كل الافكار ، بموجبه ، من الاحساسات مباشرة

داروين :

شارل روبير : (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) عالم طبيعة انكليزي مشهور ، اهم منظري التطورية في علوم الطبيعة في القرن الماضي . ولقد وجدت نظرية التحول التي توقعها لامارك وغوته الخ . . . وجدت لديه تعبيرها النهائي ، فشق بذلك طرقا جديدة للعلم . وقد اسس داروين نظريته في التطور على فرضية الاصطفاء الطبيعي ، اي الاصطفاء في صراع البقاء الذي يبقى الاكثر جدارة . انطلق من تجارب التدجين الاصطناعي . ولكن اين هي يد المدجن في الطبيعة العمياء ؟ للجواب عن هذا السؤال استخدم داروين « محاولة في مبدأ السكان »[٧] لمالتوس (١٧٨٩) بمقدار ما ذهب مالتوس من عدم التناسب

٦ ـ Un traité de Dieu — Une Théorie des Facultés de l'Homme
Un traité de Jésus — Christ, de la rédemption et des sacrements.

٧ ـ Essai sur le principe de la population de Malthus

بين زيادة السكان وامكانية تزايد وسائل العيش . وبالرغم من كون العلم البيولوجي الحديث قد تفحص مجموعة من الظاهرات الجديدة وعدل وأكمل هكذا العوامل التي استخدمها داروين بعمومية مفرطة ، فان الفكرة الاساسية لنظرية التطور ما تزال راسخة في الفكر الحديث .

كتب انجلس عن هذا الموضوع في « تطور الاشتراكية » :

« لقد حمل داروين الى التصور الميتافيزيقي للطبيعة الضربة الاكثر نجاحا مبينا ان الطبيعة العضوية الحالية والنبات والحيوانات وكذلك الانسان هي نتاج سيرورة تطور تتابع منذ ملايين السنين » .

وفي خطبته على قبر ماركس (١٨٨٣) حدد انجلس العلاقات بين ماركس وداروين في الكلمات التالية : « وكما اكتشف داروين قانون التطور للطبيعة العضوية ، اكتشف ماركس قانون تطور التاريخ الانساني » . وكان ماركس قد كتب في السنة ١٨٦٠ ، بما يخص كتاب داروين الرئيسي الذي كان قد ظهر للتو في السنة (١٨٥٩) : « عن اصل الانواع بطريقة الاصطفاء الطبيعي » كتب في رسالة الى انجلس : « بالرغم من كونه موسعا بطريقة فظة على الطريقة الانكليزية ، فهذا الكتاب يحتوي فيما يختص العلوم الطبيعية ، الاساس المطابق لوجهة نظرنا » . مراسلات ماركس وانجلس « الكتاب الحادي عشر صفحة ٤٢٦[٨] . كذلك يعبر بالشكل نفسه في رسالة الى لاسال صفحة ٣٤٦[٩] : « مؤلف داروين عظيم الاعتبار ، ويناسبني كاساس بالنسبة للعلوم الطبيعية ، وللصراع الطبقي في التاريخ . . بالرغم من كل ما يحويه من نواقص . ليس فقط هو الاول الذي وجه ضربة مميتة « للاهوت » في العلوم الطبيعية بل اقام بشكل تجريبي الاتجاه العقلي لهذه العلوم»[١٠] .

٨ ـ Mélanges de littérature d'Histoire et de philosophie (1752) — Traité de dynamique (1743) et Eléments de philosophie (1758)

٩ ـ Correspondance Marx — Engels. 11e Volume p. 426

١٠ ـ Dans une lettre à Lasalle p. 346

دالمبار :

جاون لورون (١٧١٧ ـ ١٧٨٣) ، احد الممثلين المميزين لعصر الانوار في فرنسا ، رياضي كبير ، حقق اعمالا ضخمة ، ليقيم مبادىء الميكانيك . لقد نشر مع ديدرو الموسوعة او القاموس المفكر للعلوم والفنون والمهن الذي وضعه مجموعة من رجال الادب . هذا العمل الكبير الذي حاربته بقوة الملكية وانتشر انتشارا كبيرا . ومنعه مجلس الدولة الرجعية في نهاية الامر ، وهذا العمل هو الاثر الرئيسي لعصر الانوار (٣٣ كتابا (١٧٥١ ـ ١٧٧٧) .

الف دالمبار مقدمة هذه الموسوعة : « الخطاب التمهيدي » كانت وجهة نظره الفلسفية هي الشكية فلا المادة ولا الروح معروفة في جوهرها ، ومن الممكن افتراض العالم بشكل يختلف عما يظهر لحواسنا . الاعمال الرئيسية : اوراق في الادب والتاريخ والفلسفة (١٧٥٢) كتاب الديناميك (١٧٥٢) وعناصر في الفلسفة (١٧٥٨)[١١] .

دوهرنغ :

اوجين (١٨٣٣ ـ ١٩٢١) فيلسوف واقتصادي الماني ، كلف لبعض الوقت بالمحاضرات في الفلسفة والاقتصاد السياسي في جامعة برلين . اصبح اعمى تماما بعد ذلك بقليل . عاش دهرنغ ككاتب اولا في برلين ثم في نوفاوفس حتى موته . هذا الممثل الكبير للاشتراكية البورجوازية الذي رأى في « الجهود الطبيعية للذهن الفردي » اساس النظام الاجتماعي . وكان يتوقع من مصالحة التناحرات الطبقية خلاص المستقبل ، كان يعتبر نفسه كمصلح للبشرية . حاضر دوهرنغ امام مستمعين عديدين وفي موضوعات متنوعة جدا ، لكنه حرم من منبره بعد الهجمات العلنية القاسية ضد اساتذة برلين . بين السنة ١٨٧٠ و١٨٨٠ تبعه كثيرون من الاشتراكية الديمقراطية . نشر في مؤلفات عديدة ، سيستاما خاصا اشتراكيا فلسفيا الفه بمساعدة عدد من « حقائق التحليل الاخير » المطلقة التي اعتقد انه اكتشفها . هو خصم للمسيحية ومعاد متحمس للسامية . قدم خدمة كبيرة للشيوعية العلمية بالرغم عنه بصورة غير مباشرة ،

١١ - Voir Darwin : Textes Choisis« Les classiques du peuple »

لقد احدثت هجماته المنفعلة ضد ماركس ولاسال « وفلسفة في الواقع » هذه الهجمات الموصومة بجنون العظمة ، احدثت بالفعل الرد في رسالة النقد الكلاسيكية المشهورة لانجلس « السيد اوجين دوهرنغ يقلب العلم » (انتي دوهرنغ) مؤلف اصبح بعد وقت قصير الدليل الفلسفي للجيل العمالي الثوري الجديد . في هذا المؤلف مزق انجلس بدون شفقة المذهب السطحي لدوهرنغ وحقق لاول مرة ، وبيد معلم ، عرضا كاملا وواضحا للمادية الجدلية (انظر انتي دوهرنغ لانجلس)[١] .

ديدرو :

داني (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) ابرز المفكرين الماديين في حقبة الانوار في فرنسا . هو رئيس الموسوعيين وروحهم . نشر مع دالمبار خلال ربع قرن ابتداء من ١٧٥١ ، الموسوعة الشهيرة المسماة (الرباط المقدس ضد التعصب والظلم) ، ان نشر هذا المشروع الذي اضطهدته الدولة واليسوعيين يتطلب تشددا متطرفا في قواه الاخلاقية وارادة عنيدة واصرارا كبيرا وتضحية مطلقة . يقول انجلس : لئن كان كل واحد قد كرس حياته متحمسا للحقيقة والحق ـ وهذه الجملة تؤخذ بمعناها الجيد ـ فهو ديدرو » لقد كتب في الموضوعات المختلفة : في العلوم الطبيعية والرياضيات ، وفي التاريخ والمجتمع ، وفي الاقتصاد والدولة ، والحقوق والتقاليد ، والفن والادب . تربى ديدرو في كتلكة متشددة فكبر بمنعطف مثير الاعجاب ، مارا من الالوهية ، الى المادية والالحاد المناضلين ، لينتهي بتجسيد الاهداف الاكثر سموا للفلسفة البرجوازية الفرنسية الثورية « عصر الانوار » لقد ترك اثرا عميقا ودائما في مجتمع زمانه . ولم يكن فكره محصورا في الحدود الضيقة للمادية المبتذلة ، فنجد عنده بذورا متعددة للفكر الديالكتيكي ، ففي « افكار فلسفية » (لاهاي ١٧٤٦) الذي صودر قبل الطبع بامر من البرلمان ، وفي « نزهة الشكي» (١٧٤٧) كان قد شرع في هجمات جريئة ضد الكنيسة . ومؤلفه الالحادي «رسالة عن العميان» (لندن ١٧٤٩) كلفه سنة في السجن ويعتبر ديدرو ايضا رائدا للامارك وداروين ، لانه ساند ، وبشكل واضح وسهل ، فكرة تطور تطور

١٢ ـ انتي دوهرنغ : ترجمة فؤاد ايوب : دار دمشق . الطبعة الأولى

الاجسام والوجود الاولي « للكائن البدائي » الذي انطلقت منه المتنوعات اللاحقة للمملكة الحيوانية والنباتية بواسطة تحولات متدرجة استنادا لفكره ، هناك تطور للانواع كما ان هناك تطورا افراديا ايضا . ويوجب ديدرو ، بعد ان تتبع بصورة منطقية فكرة التطور ، يوجب الاعتراف بتطور كل مادة جامدة في نهاية الامر . ففي مؤلفه « افكار حول تفسير الطبيعة (١٧٥٤) تصور ، حتى لتفسير » العوامل النفسية تصور فرضية الذرات التي تحس وانها موجودة قبلا عند الحيوانات ، وانها تحدد الفكر عند الانسان . فجميع افعال الطبيعة هي مظاهر للجوهر الذي يتضمن الوجود بكامله ، والذي تظهر فيه وحدة القوى المتغيرة ابدا والتي هي رد فعل عكسي ابدي .

بين الكتابات الاكثر جرأة والاكثر ذكاء ، يجب ايراد : « محاورات دالمبار وديدرو » (١٧٦٩) و« حلم دالمبار » (١٧٦٩) التي تؤلف في نفس الوقت تحفته الادبية الكاملة . ولقد كان ديدرو ، فوق ذلك ، كاتبا دراماتيكيا بارزا ، واستاذا في النثر ، لقد اعلن نفسه مع الطبيعة لتقديم الواقع الحي الملموس ، بدون اثقال ، وكان ذلك في صراعه من اجل اصلاح المسرح والفن . الف ديدرو فوق ذلك ـ ويجب القول انه كان الكاتب المفضل لدى ماركس ـ قصصا عديدة وحكايات طريفة تنبع اهميتها من كون اناس كـ « ليسينغ » و« شيلر » و« غوته » ، لم يكونوا فقط من المعجبين به ، بل ترجموا الى الالمانية كثيرا من اعماله . مؤلفه الاكثر شهرة هو « حفيد رامو »[١٣] ١٧٦٢ الذي يسميه انجلس « تحفة الديالكتيك » . في المجموعة « كلاسيك الشعب » شرعت المنشورات الاجتماعية بطبع نصوص اساسية من ديدرو .

ديكارت :

رينه (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) فيلسوف فرنسي ثنائي (اي انه يعارض بين المادة والروح بشكل ميتافيزيقي) حارب السكولائية واوجد الهندسة التحليلية . ثنائيته تضع العالم المادي المحسوس بين يدي الفيزياء او بصورة ادق بين يدي الآلية الرياضية . والنفس الروحية العقلانية بين يدي الميتافيزيقيا . ديكارت ايضا

١٣ ـ Le neveu du Rameau

هو مادي في الممارسة ومثالي في النظرية . لقد جعلت منه هذه الثنائية مدار الفلسفة البورجوازية جميعها في الازمنة الحديثة ، ان في ميله الآلي ـ المادي او في ميله الميتافيزيقي الروحاني . ومن اجل ان يجد الحقيقة ويهدم السكولائية قرر ان يبدأ بالشك « منهجيا » في كل شيء . مستبعدا التجربة الحسية الخادعة ، لانه عقلاني ، واعلن المنهج الرياضي نموذجا للعمل بكامله . اكتشف في القضية : « انا افكر ، اذن انا موجود » مثلا اعلى لجميع الحقائق البديهية ، وتوصل الى وجود النفس كجوهر روحاني بعد مجموعة من الاستنتاجات ، وتوصل الى وجود الله . وعلى وجود الله بنى وجود العالم المادي . ولكن المادة بالنسبة له هي هي الامتداد . وهكذا يعلن ديكارت تحرير علم الطبيعة من كل أثر لاهوتي مفارق . فالتقدم الاساسي للفلسفة يقوم على المطالبة بمنهج علمي ، يحلل جميع الاشياء الى اجزائها البسيطة المؤلفة لها . وبعزله الاشياء هكذا ، يقول انجلس ، على اساس التحليل الرياضي الآلي وبتفيسخه علاقاتها بشكل ميتافيزيقي ، لم يقدم ديكارت في الوقت نفسه المقدمات الضرورية لتوليفها الديالكتيكي . وكان انجلس ينسب الى « منهجه الجديد » اعظم الاهمية في التطور التكنولوجي والصناعي في زمنه . في الواقع ان هذا المنهج وكما هو تصوره الفلسفي بشكل عام (يتصور الحيوانات كالآت) هو الفلسفة المميزة للحقبة المانيفكتورية بشكل عام .

لكنها تمثل مع ذلك ارثا عقلانيا ثمينا ومفيدا للغاية .

بين المؤلفات : مقالة في المنهج (١٦٣٥) « تأملات ميتافيزيقية » (١٦٤١) مبادىء الفلسفة ـ (١٦٤٤ ـ وبحث في انفعالات النفس (١٦٤٩)[١٤] .

الديكارتية :

اسم يطلق على فلسفة ديكارت .

١٤ ـ Discours de la méthode — Méditations métaphysiques I Principes de philosophie — Traité des passions de l'âme -Traité de l'homme (Posthume)

ديمقريطس :

الابديري (٤٦٠ ـ ٣٧٠ قبل الميلاد). فيلسوف يوناني واكبر مادي في العصور القديمة . ان ما يوجد بالفعل بالنسبة له هو الذرات والفراغ فقط . فالذرات هي العناصر البدائية الصغيرة جدا وغير المنقسمة ، وهي مختلفة الشكل والكبر والموضع ، وذات حركة ابدية ، فالاشياء تتولد من تنظيم الذرات . ويؤكد ديمقريطس ان النفس هي مادية ومركبة ككل شيء من ذرات (الا انها اكثر دقة من غيرها). فيما عدا ذلك فان صفات الاشياء بالنسبة له (الوانها ، راشحتها الخ . .) هي ذاتية محضة وتكون اوهاما للحواس . فالعالم الواقعي والموضوعي لا يحتوي صفات كهذه ، ومهمة العقل يجب ان تكون تجريد هذه الصفات لايجاد الذرات نفسها .

ان التناقض الملاحظ عند ديمقريطس بين الميزة الذاتية « للصفات » التي جهزتها الحواس ، وبين العالم الحقيقي او موضوعية الذرات التي يتصورها العقل : ان هذا التناقض يطرح مشكلة المعرفة في الديكالكتيكية المادية بشكلها البدائي ، فنظريته الذرية هي حدس عبقري من الذرية الحديثة .

الديالكتيك :

كلمة ديالكتيك تعني اصلا فن المناقشة او علم المناقشة . والديالكتيك عند افلاطون هو اولا فن اخراج جميع النتائج السلبية والايجابية المتضمنة في فكرة او مبدأ ما . ثم هو السير الصاعد والمعقلن للذهن الذي يرتفع بمراتب متتابعة من المسلمات الحسية حتى المثل التي هي المبادىء الخالدة والدائمة للاشياء . وتأتي قبلها جميعاً فكرة الخير . وبما ان المثل بالنسبة لافلاطون هي وحدها الواقع المستحق لهذا الاسم فان الديكالكتيك او علم المثل ينتهي بان يكون هو العلم نفسه .

الديالكتيك عند هيجل هو حركة الفكرة ، مارة بالاطوار المتتابعة : الاطروحة ، الاطروحة ـ النقيض ، ثم التوليف ، حتى الفكرة المطلقة .

والديالكتيك ، عند ماركس والماركسيين ، ليس حركة الفكرة ، ولكنه حركة الاشياء نفسها من خلال التناقضات ، حيث حركة الذهن ليست سوى

التعبير عنها نفسها . ونجد دراسة عميقة عن الديالكتيك الماركسي في القسم الرابع من هذا المؤلف الذي بين ايدينا .

الذرة :

نسمي الذرة في الكيمياء والفيزياء ، الجزيء المادي الذي يكون اصغر كمية للعنصر ويستطيع الدخول في مزيج .

ونعني هذه الكلمة في الفلسفة القديمة ، اصغر عنصر للمادة ، غير منقسم ابداً ، العنصر الاول الذي منه انطلق تكون الطبيعة بكاملها بالمزج والتراكم .

اللاهوت :

« علم » الله ودراسة العقيدة والنصوص الدينية .

السيمياء :

اسم يطلق على الكيمياء في العصور الوسطى . وهو فن اكثر منه علم قريب من السحر ، ويتقوم بالبحث عن دواء شاف لكل العلل وتحويل المعادن الى ذهب بوساطة « الحجر الفلسفي ».

طاليس :

احد المفكرين الرئيسيين في مدرسة ميله في آسيا الصغرى (في القرن السادس قبل الميلاد). وكانت مدرسة ميله المدرسة المادية الاولى في العصور اليونانية القديمة حاول فلاسفتها ان يشرحوا كيف تتولد جميع الاشياء من الهواء والنار او الماء .

العقلانية : •

سيستام مؤسس على العقل ، بالتعارض مع السيستام المؤسس على الوحي الديني ، ويسمى ايضا عقلانية السيستام الذي يكون العقل بالنسبة له اصلا للأفكار بالتقابل مع التجريبية التي تعلن اننا لا نستطيع الا معرفة معطيات التجربة . ونعني اخيرا بهذه الكلمة منهجا في التفكير العلمي الذي يجعل من

واجبنا ان لا نستسلم الا للعقل . وان نتجنب كل ما يكشف عن تصور غير مراقب ، وعن نزوات تأملية وعن « الايمان » ويجب ان نشير على كل حال ، ان مساعدة الديالكتيك هي وحدها التي تتيح للعقلانية ان تصبح خصبة « وحديثة ».

الغائية :

هي فرضية بموجبها يكون لكل كائنات الطبيعة غاية (في اليونانية(telos fin I-) وهدف محدد ـ ومراد غالبا من الله او العناية الالهية . ان برنار دوسان بير (القرن ١٨) هو الذي اعطى الشكل الاكثر تطرفا في هذا التفسير ، فأكد انه اذا كانت التفاحة تتدلى من غصن الشجرة فذلك لكي يستطيع الانسان ان يقطفها بسهولة ، وان اليقطينة نبتت في الارض وليس على شجرة حتى لا تصرع المارة الخ . . هذه الفرضية لا يزال يدعمها بعض البيولوجيين في ايامنا ولكن بشكل اقل كاريكاتورية .

فيزيولوجيا :

العلم الذي يدرس الوظائف العضوية التي تظهر فيها الحياة .

فلوجستيك :

مبدأ او جسم مائع تصوره الكيائيون القدامى لشرح الاحتراق والنار .

لودفيغ :

فيورباخ (١٨٠٤ ـ ١٨٧٢) فيلسوف الماني ، مادي وابن العالم الجنائي المشهور في زمنه بول انسمن فيورباخ . ارغم فيورباخ على ترك مهنته الاكاديمية بسبب تصوراته الفلسفية ، وعاش عندئذ في الريف في ضيق مادي . انتقل فيورباخ من الهيجيلية اليسارية الى المادية « الفكر خرج من الوجود ، ولم ينطلق الوجود من الفكر ». « الانسان هو انتاج الطبيعة والدين هو انعكاس اسطوري للطبيعة الانسانية ».

ففي الله نتعرف على الانسان ، وفي الانسان نتعرف على الله ، والشيئان

هما هما . فليس الله هو الذي يخلق الانسان بل الانسان يخلق الله على صورته». ان فلسفة فيورباخ كونت الحلقة الوسطى بين فلسفة هيغل وفلسفة ماركس . وبالرغم من احتقاره البالغ لمادية القرن الثامن عشر الفرنسية كان فيورباخ في الواقع مجددا لمادية القرن الثامن عشر بكل حسناتها وسيئاتها ، بكرهه النبيل والفخور والثوري لكل « لاهوتية » وميله للمثالية عندما يتعلق الامر بتفسير الظاهرات والافعال الاجتماعية .

لقد اعلن ماركس وانجلس ، اللذان كانا لبعض الوقت تلامذة له ، عدم كفاية ماديته . فصاغا المادية الديالكتيكية التي تجاوزت فيورباخ ، مع تمثلهما لما يملك فكره من اشياء صالحة .

غاليلي :

(١٥٦٤ ـ ١٦٤٢) رياضي ، فيزيائي ، وعالم فلك ، مؤسس العلم التجريبي في ايطاليا ، اكتشف قانون توافق التذبذب في رقاص الساعة ، وبين تساوي زمن السقوط للاجسام غير المتساوية الوزن . قبل نظام كوبرنيكوس في الفلك ، وبنى منظارا فلكيا جديدا وحقق اكتشافات اكدت نظام كوبرنيكوس ، اعلن اذن ان الشمس مركز العالم وان الارض تدور حول الشمس . طورد من قبل محكمة التفتيش ، فأرغم على استدراك اقواله واعلن بعد ارتداده جملته المشهورة : « ومع ذلك فهي تدور »

كنط :

عمانوئيل : (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) فيلسوف الماني مشهور ، علم كل حياته الفلسفية في جامعة كينسبرغ ، نشر في السنة ١٧٥٥ فيزياء الكونية ، الكونية ، ونظرية السماء ، هذا المؤلف الذي يمهد لنظرية لابلاس في تكوين الكواكب . كتب في السنة ١٧٨١ « نقد الفكر المحض » وفي السنة ١٧٨٧ « بحث في السلام الابدي »[١٥] ، تدعي لأدرية كانط انه من المستحيل معرفة الاشياء في ذاتها ، كما هي بذاتها بل الاشياء فقط كما تظهر لنا (الظاهرات =

١٥ - Critique de la raisonPure : 1781, dissertation sur la paix éternelle

ما يظهر) .

لقد تعاطف كنط مع الثورة الفرنسية ، كان ليبراليا ، لكنه يحترم القوانين القائمة . في الدين ، هو عقلاني لكنه يحترم الاديان الوضعية . فقد هاجم الفلسفة الدوغمائية ولكنه ابعد الشكية ايضا . وفي الاخلاق رفض كل قانون خارجي لكنه ليعود فيضع لقانون داخلي اقسى من كل مايرفض. شجاعة في مسألة النظر ولكن احترام النظام القائم في الواقع والممارسة وكان ذلك علامة ذهنه الفارقة . انه باختصار ، النموذج الحقيقي للبورجوازي الليبرالي .

لا أدري :

اسم يعطى في الفلسفة لمن يعلن ان الحقيقة لا يدركها الذهن البشري.

كوبرنيكوس :

(١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) فلكي بولوني شهير . مؤلف كتاب « دورات الفلك السماوي » حيث يبرهن حركة دوران الارض حول محورها وانتقالها حول الشمس .

لامتري :

جوليان اوفري (١٧٠٩ ـ ١٧٥١) طبيب وفيلسوف فرنسي . اضاع مكانته كطبيب عسكري بعد نشره لمؤلفه المادي الواضح : « تاريخ النفس الطبيعي » ذهب الى فريدريك الثاني فاصبح قارئه المفضل .

كتب لامتري مؤلفات عدة ، طبق فيها على الناس النظرية الديكارتيه لاليه الحيوانات ، وشرح العواطف والتمثلات والاحكام ، بعمل الجهاز العصبي

لوك :

جون (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) فيلسوف انكليزي يمثل المذهب التجريبي الذي يعلن ان التجربة هي الاساس الوحيد لكل معرفة . في كتابه « بحث في الفهم »[١٦] (١٦٩٠) استنجد لوك بمبدأ التجربة لحل مشكلة المعرفة . نفى

١٦ - Loke : Essai sur l'entendement

وجود الافكار الفطرية وجعل التمثلات جميعاً تأتي من مصدرين : حس خارجي وحس داخلي . وبقدر ما كان لوك يفسر الاحساسات الخارجية بتأثير الاشياء علينا ، وحيث اعلن فرضيته الجريئة في زمنه : ان المادة (لو كان الله يريد ذلك) تستطيع التفكير، كان يضع نفسه مع وجهة النظر المادية . ولكنه بمقدار ما بقي مرتبطا بافكار الله والنفس والتي تبدو على كل حال ، في رأيه من مجال الايمان ، هو ثنائي (يقسم العالم الى مادة وروح) ويفتتح تطور مذهب التألية الانكليزي. ان الذي يميز نظريه المعرفة هو « ذرية » الفهم الانساني ، اي انه يختصر الذهن بمجموعة من « موزاييك » الاحساسات وموزاييك الوعي . وليس ذلك سوى الانعكاس الامين للعالم البورجوازي المفتت الى ذرات . لقد كان لوك ، في تصوراته عن السياسة الاجتماعية ، المدافع الموطد العزم عن مصالح البورجوازية ، فأعلن نفسه ، كمنظر لليبرالية ، مع الملكية الدستورية ، ومع التسامح مع الالحاد.

مؤلفاته الرئيسية : بحث في الفهم (١٦٩٠) رسائل حول التسامح (١٦٨٥ ـ ١٧٠٤)[١٧] .

لوسيب :

(القرن الخامس قبل الميلاد) ـ فيلسوف مادي ، تلميذ زينون ، ومعلم ديمقريطس . طور نظرية الذرات .

لوكريس :

تيتوس لوكرتيوس كاروس (٩٥ ـ ٥١ قبل الميلاد) شاعر لاتيني مشهور ولد في روما ، من اتباع ابيقور ، غنى في اشعاره الافكار المادية لمعلمه[١٨]

لينين :

فلاديمير ايليتش اوليانوف (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) ولد في ٢٢ نيسان ١٨٧٠ .

١٧ - Voir la nature des choses (extraits) des classiques du peuple ».

١٨ - Locke: Essai sur l'entendement — Lettres sur la tolérance

ومنذ السنة ١٨٨٥ شرع بدراسة راس المال لماركس ، وبدأ النضال . في السنة ١٨٨٧ ، كان اول اعتقال له ، وأعدم اخوه الاكبر لاشتراكه في محاولة اغتيال القيصر الكسندر . في السنة ١٨٩١ انهى دراسة الحقوق . وابتدأ النضال لتحرير الطبقة العمالية والفلاحية .

اوقف ونفي الى سيبيريا . ثم اطلق سراحه ، لكنه اوقف بعد وقت قصير . وفي السنة ١٩٠٠ سافر الى الخارج ، الى زوريخ ولندن وجنيف : لكن « بين الذين ظلوا في روسيا ، كان قليل جدا منهم ، مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحياة الروسية ، كلينين » (ستالين) . اسس لينين الحزب البولشيفي . وفي السنة ١٩٠٥ قامت الثورة الاولى التي سحقت والتي استفاد منها لينين دروسا كثيرة . من جديد نفى نفسه لفترة طويلة في باريس (١٩٠٨ - ١٩١٢) . ولم يعد الا في ١٩١٧ ليؤكد ان « الحزب الشيوعي جاهز في كل لحظة لتسلم السلطة بكاملها . كان عليه ان يناضل ضد الحكم المؤقت لكرنسكي . وأستطاع لينين ان يعلن في مساء ٢٦ تشرين الاول ، وبعد الاستيلاء على قصر الشتاء مقر الحكومة المؤقتة : « ابتدأنا ببناء المجتمع الاشتراكي » . ومنذ ذلك الوقت ، كرس لينين نفسه لصنع بلد اشتراكي من بلاده ، واخذت شعوب الاتحاد السوفياتي ، بتوجيه منه ومن الحزب البولشيفي ، تناضل ضد العدو الامبريالي ، وتنهض بالبلاد من بين الانقاض ، تجهزها بالكهرباء تخلصها من المجاعة ، وتفتتح ، بعد وضع مبادىء التخطيط تطور الصناعة الثقيلة الضرورية للاستقلال الوطني . ومات لينين بعد ان استهلكه العمل المتواصل في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٢٤ في الرابعة والخمسين من العمر .

وبالرغم من انهاكه في النضال ، ثم كونه رجل دولة ، لم يهمل لينين لحظة واحدة المشاركة في تحسين الاطروحات الماركسية لدرجة اننا اليوم نسمي المادية الديالكتيكية ، الماركسية اللينينية . ان اهم مؤلف له من وجهة النظر هذه هو بدون شك « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » (١٩١٧) .

كذلك ان مؤلفه : (اليسار) المرض الطفولي للماركسية (١٩٢٠) هو مؤلف مهم كذلك في تطبيق المادية التاريخية على مشكلات الممارسة السياسية .

وبين مؤلفاته الفلسفية نذكر : المادية والمذهب النقدي التجريبي

(١٩٠٨) ، دفاتر فلسفية ، الدولة والثورة (١٩١٧) . ونشر الى نشر « اعماله الكاملة » في السنة ١٩٥٧ من قبل المنشورات الاجتماعية .

ماركس :

كارل هنريش (١٨١٨ - ١٨٨٣) احد اكبر العباقرة الكبار في القرن التاسع عشر ، المؤسس الخالد للشيوعية العلميه ، المؤسس للنظرية وللممارسة في الصراع الطبقي . الثوري الحديث للبروليتاريا العالمية . ان المثل الاعلى الشيوعي مدين لماركس بنظريته وبرنامجه العلمي . يرتكز مذهبه على مبادىء المادية الديالكتيكية . فقد برهن بتحليلاته المتفوقة للمشاكل الملموسة ، سواء اكان ذلك يختص باكتشاف القوانين الداخلية للرأسمالية ، ام بشرح الحقبات والحوادث المحددة في تاريخ البشرية ، برهن في كل هذا على تفوق الديالكتيك المادي وكونه منهجا نظريا للبحث عن العلاقات التاريخية في الماضي ، ولمعرفة القوى المحركة الحقيقية للتطور الاجتماعي في الوقت الحاضر ، وكذلك بالنسبة لتحديد الميول نحو التطور في المستقبل . فنقده العبقري للمجتمع البورجوازي كان هداماً وبناءً في آن واحد ، كان هداما في اعلانه موت البورجوازية ، وبناء في اعلانه نصر البروليتاريا . كانت ديالكتيكيته منهجا للبحث ودليلا للنشاط الانساني . فديالكتيكيته المادية لا تمتد فقط لمعرفة قوانين التاريخ البشري ولكن لمعرفة تاريخ الطبيعة ايضا . من هنا انتسابه للثورة التي احدثها مذهب التطور لداروين في العلوم الطبيعية .

ان منهج التفكير والعمل الذي تكوّنه الماركسية هو اثمن اسلحة البروليتاريا في الصراع الذي تقوده في سبيل تحريرها ومن اجل انسانية شاملة .

لنورد اهم مؤلفات ماركس حسب ترتيب زمني : مخطوطات ١٨٤٤ (فلسفة ، اقتصاد سياسي) : العائلة المقدسة (١٨٤٥) الايديولوجية الالمانية (١٨٤٥ - ١٨٤٦) كتبت بمساعدة انجلس بؤس الفلسفة (١٨٤٧) بيان الحزب الشيوعي (بمساعدة انجلس) (١٨٤٨) : العمل المأجور ورأس المال (١٨٤٩) الاجور والاسعار والارباح (١٨٦٥) النضال

الطبقي في فرنسا ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠ (١٨٥٠) ١٨ برومير[19] للويس بونابرت (١٨٥٢) مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي (١٨٥٩) هرفو (١٨٦٠) راس المال الكتاب الاول (١٨٦٧) ـ الكتاب الثاني والثالث نشرهما انجلس بعد موت ماركس[20] نقد برنامج غوتا (١٨٧٥) ـ نظريات حول فائض ـ القيمة ، ويعتبر هذا الكتاب متضمنا للكتاب الرابع لرأس المال ، ونشر ايضا بعد الوفاة .

وتقرأ النصوص المختارة لماركس وانجلس بمتعة فائقة : « رسائل حول رأس المال » ، حول الدين ، حول الادب والفن ، دراسات فلسفية (مجموعة نصوص من بينها « لودفيغ فيورباخ » ، ودراسة حول المادية التاريخية لانجلس ، التي تؤلف المقدمة لكتابه الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ، « اطروحات حول فيورباخ » ، ومقدمة « نقد الاقتصاد السياسي » لماركس وعدة رسائل فلسفية .

موليير :

جان بابتيست بوكلن (١٦٢٢ ـ ١٧٧٣) اكبر الكتاب الهزليين الفرنسيين . مسرح جميع الظروف الاجتماعية في عصره : الفلاحين والتجار والبورجوازيين، والاطباء وسكان المدن وجماعة البلاط، واذا كان هزل مسرحياته يختلف جدا في التهريجات «الطبيب رغما عنه»، او «خزعبلات سكابين»[21] عنه في بقية كوميديات الخصائص والعادات، (البخيل والليزونتروب)، لكنه، في الحالتين ، ينشأ دائما عن تمثيل الحماقة الانسانية والتشويه الاخلاقي . دافع موليير عن الحس السليم في كل مكان متوجها نحو الحس السليم للشعب . فكان يعرف ان يضحكهم بدون

١٩ ـ برومير : هو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية (المترجمة) .

٢٠ ـ Marx: La sainte famille – l'Idéologie allemande – Misère de la philosophie Manifeste du parti communiste — Travail salarié et capital. Salaire, prix et profit. Les luttes des classes en France — La 18 brumaire de louis Bonaparte — Contribution à la critique de l'economie politique — Le capital 1 — 2 — 3 Critique du programme de Gotha les Théories sur la plus — value

٢١ ـ Molière : Le médecin Malgré lui – L'avare

ان يجعلهم ينقطعون عن التفكير . ففي معالجته للمشاكل اليومية المستمرة بلغة غالبا ما تكون لغة المخاطبة العامية ، التي تنفح بالذوق الشعبي او المحلي ، كان طبيعيا بصورة هائلة . وكان الحافز لمسرحياته دائما هو واقع الانسان كما يظهر من خلال نواقص معاصريه . لقد كان عمله ضخما .

الموسوعة :

كتاب يتضمن ملخص جميع المعارف البشرية . والموسوعة هي في التاريخ الادبي الفرنسي المؤلف الضخم الذي صدر في القرن ١٨ . وعرضت فيه لاول مرة جميع المعارف البشرية من وجهة نظر البرجوازية الثورية . والى جانب الاثر الذي احدثه فضحها الحازم لعيوب النظام الاقطاعي الملكي فان اسهامها الحاسم كان على المستويات الثلاثة : المادية (الميكانيكية) ، والالحاد وتقدم التيكنيك (انظر النصوص المختارة من الموسوعة في كلاسيكيات الشعب) .

ميكانيك : هو علم الحركات والقوى

ميتافيزيقيا :

هي سيستام من الافكار والاطروحات الاعتباطية والدينية بصورة تقل او تكثر ، والتي تدعي تفسير العالم بمبادىء غير مادية وفوق طبيعية وغالبا بواسطة الله . وهي منهج في التفكير يعزل الاشياء وموضوعات الدرس بعضها عن بعض ، ويرفض اعتبارها في ديمومة حركتها : يقابل الديالكتيك (راجع القسم الثالث من المؤلف الذي بين ايدينا) .

ميتولوجيا :

التاريخ الاسطوري والخرافي لالهة الشعوب القديمة او المتوحشة . بتوسع كل مذهب خرافي .

هلفتيوس :

كلود أدريان (١٧١٥ ـ ١٧٧١) ولد في باريس ، « متعهد مالي »[٢٢] رجل ادب وفلسفة ، احد كبار الماديين في القرن الثامن عشر . وكتابه « عن الروح » (١٧٥٨) احرق بناء على امر من البرلمان ، « عن الانسان » ظهر (١٧٧٢) . كان خصما للاقطاع واللاهوت ، فبشر بـ« تشريع » يقوم على توافق الفوائد الفردية مع الفائدة الاجتماعية ، لكنه احال على التربية مهمة اصلاح المجتمع (راجع هلفتيوس : نصوص مختارة « كلاسيك الشعب »[٢٣] .

بارون دولباخ :

بول هنري تيري (١٧٢٣ ـ ١٧٨٩) مادي فرنسي ، وصل الى باريس في الثانية عشرة من عمره ، درس في فرنسا التي اصبحت وطنه الحقيقي ثم في ليد(Leyde) . لقد كان دولباخ من اكثر المشاركين حيوية مع ديدرو في تأليف الموسوعة . كتب موضوعات وهوامش تتعلق بالعلوم الطبيعية . وكان صالونه ملتقى أفضل الادمغة في فرنسا آنذاك . هناك تشكلت الايديولوجية الثورية للمرتبة الثالثة (اي غير النبلاء والاكليروس في فرنسا) والتي صاغت ، في حلقة ضيقة من بعض الاصدقاء ، مبادىء الفلسفة التي ستسمى فيما بعد المادية الفرنسية للقرن الثامن عشر . فقد وجدت المادية الآلية في مؤلفاته تعبيرها المستتم والناجز . وقف دولباخ ضد الثنائية ، ضد ازدواجية العالم بين المادة والروح . فالانسان ليس سوى النتاج الضروري للطبيعة . والطبيعة هي المادة المتحركة . والمادة هي التي تؤثر بشكل مباشر او غير مباشر على اعضاء حواسنا . السفاتيم الروحية واللاهوتية ليست سوى عناء دماغي ضائع للانسان ، وثمرة جهله والتضليل الواعي للأكثرية من هؤلاء الذين يستفيدون من هذا التضليل وخاصة من الكنيسة . كتابه « سيستام الطبيعة » (١٧٧٠)

٢٢ ـ Fermier général متموّل في ظل الملكية الفرنسية كان يلتزم جباية الضرائب (المترجمة)

٢٣ ـ Voir Helvétius: Textes choisis « Les classiques du peuple »

كان له تأثير ثوري خارق في زمانه (راجع دولباخ ـ نصوص مختارة) « كلاسيكات الشعب » .

هيراقليطس:

(٥٤٤ ـ ٤٧٥ قبل الميلاد) سمي ايضا « الغامض» . عاش في المدينة التجارية أفسس (Ephèse) في اسيا الصغرى وكان احد اكبر الديالكتيكيين البارزين في العصور القديمة . الصيرورة عنده هي القانون الاساسي للكون ، ماهية العالم هي صراع ووحدة الاضداد ، ووحدة الوجود واللاوجود . لقد رأى هيراقليطس في عدم الاستقرار هذا بجميع الاشياء ، وفي هذا التغير المتواصل لكل وجود ، القانون الاكثر عمومية في الكون . كل شيء يسيل ، لا شيء ثابت ، بشكل اننا لا « نستطيع ان نستحم في النهر ذاته مرتين » . فالكون صراع وسلام ، شتاء وصيف ، تدفق وهدوء ، شبع وجوع الخ . . والتناقض ، المبدأ المسيطر في العالم ، ملازم للاشياء في نظره ، بشكل يجعل من الكل وحدة للاضداد .

هيغل :

جورج ويليام فريدريك (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) اهم فيلسوف مثالي في المانيا . مهم بمنهجه الديالكتيكي الذي هو صحيح في اساسه ، وان تصوره هيجل بشكل مثالي . انه مثالي موضوعي ، « الفكرة المطلقة » هي المبدأ الاول للواقع بالنسبة له ، وهي تتمظهر في الطبيعة ، ثم تتحقق ذهنا ومعرفة . صيرورة الفكرة هذه تكون تطورا منطقيا ـ ديالكتيكيا حيث التاريخ الواقعي هو التعبير عنه . الفكرة المحضة اذن هي خالقة العالم وتاريخه . والعالم ليس الا تجلي الفكرة . وهذه الفكرة ـ كما اوضح فيورباخ ، ليست ، في آخر الامر ، سوى الـه المسيحية في غلاف مجرد ومنطقي . ماركس وانجلس قلبا ديالكتيك هيغل : « وضعاه على رجليه » باعطائه محتوى ماديا وبجعله سلاحا نظريا ثوريا حقا . راجع ماركس وانجلس : «دراسات فلسفية ـ المنشورات

الاجتماعية »[٢٤] .

الهيغليو ن الشباب :

بعد موت هيغل ، انقسم تلاميذه الى مجموعتين متقابلتين حسب التفسير الذي اعطوه لمذهب المعلم . فاولئك الذين تمسكوا بحرفية المذهب ، كونوا اليمين الهيغلي ، وكانوا المدافعين عن الدولة البروسية ، والاخرون الذين تخلوا عن النتائج المثالية والمحافظة لهيغل مرتكزين على منهجه ، كونوا اليسار الهيغلي او « الهيغليون الشباب » . فهاجموا جميع اشكال الرجعية . وكان بينهم ارنولدروج ـ شتراوس ، برونو باور ، فيورباخ ، شترنر ، كوبن ، كارل ماركس .

هيوم :

دايفيد . (١٧١١ ـ ١٧٧٦) فيلسوف اسكتلندي ، شكي ولا ادري في الفلسفة ، هو رجل سياسة نشيط ، الف ابحاثا عن مشاكل الاقتصاد الاجتماعي وكان مؤرخا اصيلا ، وفلسفته تمثل نقطة الاوج بالنسبة للاتجاه الخاص بالفكر البورجوازي الانكليزي الذي يبتدىء بفلسفة لوك التجريبية . ثم ينحرف بعد ذلك الى ذاتية باركلي ، ليعلن نفسه اخيرا لصالح اللاأدرية ، في كل المسائل الاساسية ، اي لصالح النظرية التي تثبت عدم امكانية المعرفة الحقة .

لا يكتفي هيوم كما يفعل باركلي بنفي وجود المادة ، بل يمتد شكه الى العلاقة السببية للاشياء معلنا ان علاقات السببية لا تملك حقيقة موضوعية ، وقد اقيمت ببساطة بفعل عادة ذاتية : يلاحظ الانسان الاعادة المنظمة لسلسلة من الظاهرات ، فيستنتج منها بدون اي سبب ان احداها هي سبب للاخرى .

يقول هيوم : انا الاحظ ، انه في كل مرة تضرب فيها الكرة البيضاء ، الكرة الحمراء تبدأ هذه بالاهتزاز ، اعبر عن تكرار هذه الظاهرة قائلا : اصطدام الكرة البيضاء هو سبب حركة الكرة الحمراء ولكن من يضمن لي ان تلك

٢٤ - Marx : Engels : Etudes philosophiques. Editions Sociales

سببية ضرورية وموضوعية ، وليست وهما شخصياً ؟ ومن يضمن لي ، ان اصطدام الكرة البيضاء ، في المستقبل ، سيهز الكرة الحمراء وسيكون ايضا سبب حركتها ؟ انه يرفض اذن كل ضمانة في علاقة السببية التي تكون مع ذلك محور تفسير العالم وفهمه . كذلك ليس العالم الخارجي بالنسبة له في نهاية الامر ، سوى فرضية ، سوى « اعتقاد » . لقد اقام كانط « مذهبه النقدي » لدحض « هيوم » ونظريته في النقد ، التي حللها ماركس في كتابه « نقد الاقتصاد السياسي » بوصفها تطبيقاً لتصوره البورجوازي المخادع للعلاقات الاقتصادية التي تحل الظواهر السطحية للاشياء مكان السيرورات الاصلية الاساسية .

الاعمال الرئيسية : « كتاب الطبيعة الانسانية » (١٧٣٩ ـ ١٧٤٠) ابحاث في العقل البشري (١٧٤٨)[٢٥] .

٢٥ - Hume : Traité de la nature humaine — Recherches sur la raison humaine.

قائمة بالمصادر

انجلس : الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ـ دار التقدم ـ موسكو

انجلس : اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ـ دار التقدم ـ موسكو

انجلس : لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ـ دار التقدم ـ موسكو

انجلس : انتي دوهرنغ ـ ترجمة فؤاد ايوب ـ دار دمشق : الطبعة الاولى ـ ١٩٦٨ .

ماركس انجلس : بيان الحزب الشيوعي ـ مكتبة الاشتراكية العلمية .

لينين : المادية والمذهب النقدي التجريبي ـ دار دمشق ـ ١٩٧١

لينين : ما العمل ـ دار التقدم ـ موسكو ـ ١٩٦٨ .

Marx : préface de la contribution à la critique de l'économie politique E.S..1947

Encyclopédie : Les classiques du peuple :.E.S

Diderot : Lettre sur les aveugles : Textes choisis T.1. Paris éditions sociales «Classiques du peuple ».

A. Peujon : Précis d'histoirede la philosophie librairie de la place

René Maublanc : La vie ouvrière. 25 Novembre 1935

Berkeley : Dialogues d'hylas et de philonoüs : Collection « Les classiques pour tous ». Librairie Hatier.

محتوى الكتاب

الفصل الثالث: المادية

الفصل الرابع: من هو على حق ، المثالي ام المادي

الفصل الخامس : هل هناك فلسفة ثالثة

القسم الثاني
المادية الفلسفية

الفصل الاول : المادة والماديون

الفصل الثاني: ماذا يعني ان يكون الانسان ماديا

الفصل الثالث: تاريخ المادية

القسم الثالث

دراسة الميتافيزيقيا

فصل وحيد : على ماذا يشتمل المنهج الميتافيزيقى ؟

القسم الرابع

دراسة الديالكتيك

الفصل الاول: مقدمة لدراسة الديالكتيك

الفصل الثاني :

قوانين الديالكتيك ـ القانون الاول ـ التغير الديالكتيكي

الفصل الثالث: القانون الثاني ـ الفعل المتبادل

الفصل الرابع : القانون الثالث ـ التناقض

الفصل الخامس :

القانون الرابع : تحول الكمية الى كيفية او قانون التقدم بالقفز

القسم الخامس

المادية التاريخية

الفصل الاول : القوى المحركة للتاريخ

الفصل الثاني :
مم تتأتى الطبقات والظروف الاقتصادية

القسم السادس

المادية الديالكتيكية والايديولوجيات

فصل وحيد ـ تطبيق المنهج الديالكتيكي على الايديولوجيات